جُرجي زيدان



تاريخ التمدن الإسلامي

(الجزء الرابع)



تاريخ التمدن الإسلامي (الجزء الرابع)

تاريخ التمدن الإسلامي (الجزء الرابع)

تأليف
جرجي زيدان



تاريخ التمدن الإسلامي (الجزء الرابع)

جرجي زيدان

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٧٨٢٧
تدمك: ٠ ٠٦٤ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

المحتويات

مقدمة

أخذنا في تأليف هذا الكتاب ونحن نعلم أهمية موضوعه ونشعر بافتقار اللغة العربية إلى مثله. ولكننا لم نكن نتوقع ما لاقاه من حفاوة أهل اللغات الأخرى في العالم الإسلامي بأسره، ولا أن يصل إعجاب كبار المستشرقين في أوروبا بموضوعه إلى مثل ما رأيناه منهم على أثر صدور الأجزاء الثلاثة الماضية، لأنهم فضلًا عما كتبوه إلينا من عبارات الاستحسان والتنشيط، وما نشروه من التقاريظ في المجلات والجرائد التي تصدر في بلادهم، قد أخذوا يشتغلون بنقله إلى ألسنتهم ونشره بين مواطنيهم ونحن لم نفرغ بعدُ من تأليفه. وبعض هذه الترجمات قد طبع ونشر ولا يزال البعض الآخر تحت الطبع، والآخر تحت الترجمة. فقد صدر الجزء الأول من الترجمة الأوردية (الهندستانية) مطبوعًا على الحجر في أمرتسار (الهند) بقلم الشيخ محمد غلام منشئ «جريدة وكيل» الهندية الشهيرة. وسيصدر الجزء الأول من الترجمة الفارسية قريبًا بقلم ميرزا ذكاء الملك صاحب «جريدة تربيت» الفارسية. وكتب إلينا المستشرق الكبير الأستاذ مرجليوث المشتغل بنقله إلى الإنجليزية في جامعة أكسفورد، أنه سيفرغ من ترجمته ويبدأ في نشره في أواخر هذا الصيف. وبعث إلينا الأستاذ دانيلوف المستشرق الروسي في موسكو أنه أتم نقل الجزء الأول إلى اللغة الروسية ويليه الجزء الثاني. وقد خابرنا بعض المستشرقين بشأن نقله إلى اللغة الفرنسية وغيرها.

فنشطنا ذلك في المثابرة على التنقيب والبحث لاستطلاع دخائل التمدن الإسلامي، وكشف أسراره بما يبلغ إليه الإمكان على أسلوب لم يطرقه كتاب العرب، نتوخى فيه إرجاع الحوادث إلى أسبابها وبيان ارتباطها بعضها ببعض مع تطبيق أحكام العقل ونواميس العمران عليها. فنطالع كتب التاريخ والأدب وغيرها، على سذاجة أسلوبها في سرد الحوادث وإيراد الوقائع، ونتدبر ما نقرؤه ثم نستخرج منه فلسفة ذلك التمدن

العجيب، كما يستخرج السكر من الخروب؛ لأن مؤرخي الإسلام، مع ما بذلوه من الجهد في تحقيق الحوادث وتمحيص أسانيدها ومصادرها، قلما نظروا في علاقاتها أو عللوا أسبابها، وإنما نقلوها على علَّاتها، وخصوصًا ما يتعلق منها بسياسة الدولة، وكيفية انتقال الملك من عائلة إلى عائلة، أو أمة إلى أمة، أو طائفة إلى طائفة؛ لأن تعليل تلك الحوادث يبعث أحيانًا على الطعن في أقوال بعض الخلفاء، أو تخطئة بعض المذاهب، وهم يتحاشون ذلك احترامًا للدين ورجاله، ولذلك كان موضوع هذا الجزء أوعر مسلكًا من موضوعات سائر الأجزاء الماضية، وأدعى إلى إعمال الفكرة، واستنباط الأقيسة، وتطبيق النتائج على المقدمات؛ لأنه عبارة عن فلسفة تاريخ الإسلام في ذلك التمدن.

موضوع هذا الجزء

بسطنا الكلام في الجزء الأول من هذا الكتاب عن نشوء الدولة الإسلامية وسعة مملكتها، وتاريخ نظمها الإدارية والسياسية والمالية والعسكرية والقضائية وغيرها. وخصصنا الجزء الثاني لبيان ثروة الدولة الإسلامية ورجالها، وأسباب تكون تلك الثروة وأسباب تدهورها. وجعلنا الجزء الثالث خاصًّا بالعلم والأدب، فبحثنا فيما كان منهما عند العرب في الجاهلية، وما أحدثه الإسلام من التغيير في القرائح والعقول، وما نُقل عن اللغات الأجنبية من العلوم، وما كان من تأثير التمدن الإسلامي في كل ذلك.

فبعد أن نظرنا في التمدن المذكور، من حيث نظام الدولة وثروتها وعلومها، عمدنا إلى البحث في سياستها، فخصصنا لها هذا الجزء برمته، ولعله أهم أجزاء الكتاب وأوعرها مسلكًا، لما يحول بيننا وبين أسباب الوقائع السياسية من العقبات والشكوك، ولا سيما انتقال الخلافة من دولة إلى دولة، وما يعترض ذلك من تنازع أهل الدولة على الاستئثار بالسلطة، وتأثير الاختلاف الجنسي أو المذهبي في ذلك، مما لا يتيسر العثور عليه في كتب القوم لما قدمناه من تحاشي المؤرخين الخوض في مثله. على أننا لم نعدم بصيصًا من خلال تلك الظلمة، تلمسنا به سبيلنا في البحث عن الأسباب والعلل، فوفقنا إلى كشف أسباب أكثر الحوادث، فبسطناها بما يقتضيه ذلك من النظر الفلسفي والحكم العقلي والقياس التمثيلي، وتحرينا الحقيقة جهد طاقتنا.

ولما عمدنا إلى تقسيم الموضوع وتبويبه اعترضتنا عقبة أخرى لا تقل وعورة عن تلك؛ لاختلاط الحوادث وتعارض أسباب واشتراك نتائجها وتلوُّن مظاهرها، وتعدد أوجهها من حيث الدين أو الجنس أو المكان أو الزمان، فرأينا بعد إمعان النظر أن نقسم

الموضوع باعتبار العناصر التي سادت في الإسلام، وما كان من تنازعها على تلك السيادة، مع ملاحظة أطوار التمدن الإسلامي باختلاف تلك العناصر. فقسمنا تاريخ الإسلام إلى دورين كبيرين:

الدور الأول: دور التمدن الذي نحن بصدده، يبتدئ بظهور الإسلام وينتهي بذهاب الدولة العباسية من العراق، وتدهور المملكة الإسلامية وتسلط المغول عليها.

الدور الثاني: هو النهضة السياسية التي حدثت بعد ذلك التدهور، بتغلب الدولة العثمانية وإحياء الخلافة الإسلامية، بجمع شتات المسلمين السُّنِّيِّين في ظلها، وظهور الدولة الصفوية الفارسية، وجمع شتات الشيعة تحت رايتها.

وقسمنا الدور الأول إلى خمسة عصور، باعتبار تغلب أحد العناصر الإسلامية على سائرها. ولا يتيسر وضع حد فاصل بين هذه العصور لأسباب لا تخفى على المطلع، فيغلب أن تختلط أواخر كل عصر بأوائل العصر الذي يليه. وإليك هذه العصور:

(١) العصر العربي الأول: من ظهور الإسلام إلى انقضاء الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ.
(٢) العصر الفارسي الأول: من قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ إلى خلافة المتوكل سنة ٢٣٣هـ.
(٣) العصر التركي الأول: من خلافة المتوكل إلى تسلط الديلم سنة ٣٣٤هـ.
(٤) العصر العربي الثاني: من قيام الدولة الفاطمية إلى انقضائها.
(٥) العصر المغولي: من ظهور جنكيزخان إلى وفاة تيمور لنك.

أما العصر التركي الثاني فهو عصر الدولة العثمانية، والعصر الفارسي الثاني عصر الدولة الصفوية ومن خلفها على بلاد فارس، ويتألف منهما الدور الإسلامي الثاني، وهو خارج عن دائرة بحثنا في هذا الكتاب.

وقسمنا كلًّا من العصور الخمسة التي درسناها في هذا الجزء إلى فصول وأبواب على ما يقتضيه المقام. فقدمنا الكلام بتمهيد في العرب قبل الإسلام من حيث نظام الاجتماع، فوصفنا البدو والحضر وأنساب العرب وقبائلهم وبطونهم، واستفحال عصبية النسب عندهم ومنها الأمومة والخؤولة، ثم ذكرنا توابع تلك العصبية كالحلف والاستلحاق والخلع، ثم العبيد والموالي في الجاهلية وأنواعهم وأحكامهم، والنازلين من الأجانب في جزيرة العرب قبل الإسلام وخصوصًا الأبناء الفرس، وختمنا التمهيد بفصل في سياسة دول العرب قبل الإسلام ومناقب العرب.

ثم تقدمنا إلى العصر العربي الأول، فقسمناه إلى أيام الراشدين وأيام بني أمية، فبينا أولًا أن الإسلام قام بالجامعة الإسلامية التي جمعت كلمة العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم تحت راية الإسلام. فتساووا في الفضل من حيث أنسابهم، وتفاضلوا من حيث سبقهم إلى الدين أو جهادهم في سبيله، فتولدت طبقات إسلامية جديدة، كالمهاجرين والأنصار وأهل بدر وأهل القادسية، مما لم يكن من قبل.

ثم وصفنا سياسة الخلفاء الراشدين وأنها مبنية على التقوى والحق والعدل، وذكرنا مزايا كل خليفة منهم، وأن سياسة عمر بن الخطاب كانت في أول خلافته تدعو إلى حصر المسلمين في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق، وأنه اضطر بطبيعة العمران إلى أن يأذن لقواده وأمرائه في الانسياح في الأرض، فانتشر العرب بالفتح أو المهاجرة، وتكاثروا بالتناسل الكثير.

وختمنا العصر الأول بفصل في العبيد والموالي وأحكامهم في الإسلام.

ثم انتقلنا إلى القسم الثاني من العصر الأول، وهو أيام الأمويين، فذكرنا أولًا الأسباب التي ساعدت على انتقال الخلافة إليهم، وما كان بين بني هاشم وبني أمية من المنافسة قبل الإسلام، وكيف شقَّ على الأمويين أن يعظم أمر بني هاشم بالنبوة وهم أقل منهم عددًا وقوةً. فما زالوا حتى غلبوهم على الدولة، فأخذها معاوية بن أبي سفيان من علي بن أبي طالب بالدهاء والأطماع. وفصلنا سياسة الأمويين في تأييد سلطتهم، وبينا أن محور هذه السياسة طلب التغلب بأية وسيلة كانت. والأمويون يعلمون أن الهاشميين أحق منهم بالخلافة، فعمدوا إلى التغلب بالعصبية كما كانت في الجاهلية، وكان العرب المسلمون قد زالت عنهم دهشة النبوة، فعادوا إلى عصبية النسب أولًا بين قريش وسائر العرب، ثم بين اليمنية والمضرية. وبالغ الأمويون في التعصب على غير العرب، فاحتقروا الموالي الفرس وغيرهم وضيقوا عليهم. وتحضر العرب في عصر الأمويين وألفوا السكنى في المدن، فحدثت العصبية الوطنية، أي: تعصب البلاد بعضها على بعض كالبصرة والكوفة والشام وغيرها. واضطر الأمويون في سبيل التغلب على بني هاشم إلى اصطناع القبائل والرجال ببذل المال، فحملهم ذلك على الاستكثار من الأموال. وجرهم الاستكثار منها إلى ابتزازها بحق أو بغير حق، فضيقوا على الرعية من المسلمين وأهل الذمة، حتى ملَّ الناس أيامهم وخصوصًا بعدما ظهر من استخفافهم بأحكام الشريعة، وتهتكهم وفتكهم واحتقارهم الموالي وتضييقهم على أهل الذمة. ويلي ذلك فصل طويل في أحكام أهل الذمة من زمن عمر بن الخطاب إلى آخر أيام الأمويين.

ثم تقدمنا إلى العصر الفارسي الأول، فصدَّرناه بفصل في انتقال الخلافة إلى العباسيين بنصرة الموالي الناقمين على بني أمية. وكيف نصروا بني العباس — وهم في الأصل من شيعة علي — وكانوا يظنون بيعتهم مشتركة بين العلويين والعباسيين؛ لأن العباسيين كانوا قد بايعوا العلويين على ذلك فسكتوا، فنقل أبو مسلم الخراساني المملكة الإسلامية من الأمويين وسلمها إلى العباسيين. فلما قبض العباسيون على زمام الدولة نكثوا البيعة، وغدروا بمن كانوا يخشون سلطانهم من العلويين وغيرهم، حتى فتكوا بجماعة من أكبر دعاتهم وأنصارهم، وفيهم أبو مسلم نفسه.

وقسمنا سياسة العباسيين إلى سياستين:

الأولى: سياستهم في تأييد سلطتهم، وكانت مبنية على الغدر والفتك، فخافهم الفرس الذين ساعدوهم على قيام دولتهم، وكظموا غيظهم لئلا يصيبهم ما أصاب أبا مسلم وأصحابه، فاستخدمهم العباسيون في مصالح دولتهم، وسلموا إليهم مقاليد الحكومة، وجعلوهم وزراءهم وأشهرهم البرامكة. فلما اشتد ساعد البرامكة، ونالوا ما نالوه من القوة والسطوة والثروة، أخذوا يبذلون الأموال لاكتساب قلوب الناس، وقد أضمروا إرجاع البيعة إلى العلويين أو تسليم الدولة للفرس، فشعر الرشيد بذلك فنكبهم. وفصلنا مقدمات هذه النكبة وأسبابها، وبينا كيف تضاعفت نقمة الفرس على العباسيين. ولما مات الرشيد اختلف ابناه الأمين والمأمون، وكان الفرس أخوال المأمون، فنصروه وحاربوا معه وقتلوا أخاه وأعادوا الخلافة إليه، على أن يبايع بعده لعلي الرضا، أي: ينقل الدولة من العباسيين إلى العلويين، فأطاعهم حتى ملك مراده منهم ثم غدر بهم.

والثانية: سياستهم في معاملة الرعية، وكانت مؤسسة على العدل والحق والمحاسنة، ويتخلل ذلك فصول في أهل الذمة وأحكامهم وأسباب ما لحقهم من الاضطهاد إلى عهد غير بعيد. وفصل في حرية الدين وإطلاق الأفكار، وما كان من تنازع العناصر، وكيف ذهبت العصبية العربية بذهاب دولة الأمين، وما رافق ذلك من اختلاط الأنساب، حتى ندر الدم العربي الخالص بعد ذهاب القرن الثاني للهجرة إلا في البادية.

ثم تقدمنا إلى العصر التركي الأول، وذكرنا الأسباب التي دعت إلى تدخل الأتراك في الدولة من أيام المعتصم، وكيف جمع الأتراك وجندهم وبنى لهم سامرا، وكيف تدرجوا في مصالح الدولة حتى تغلبوا على الخلفاء، وما ترتب على ذلك من احتجاب الخلفاء في دور النساء، ومعاشرتهم الخدم ووثوقهم بهم، حتى رفعوا الخدم والخصيان إلى رتب القيادة وإمارة الأمراء وغيرهما، وأطلقوا أيدي النساء في مصالح الدولة، فآل ذلك كله إلى

فساد الحكم واختلال الأعمال، وذهبت هيبة الخلفاء، فعمد أصحاب الأطراف إلى الاستقلال بولاياتهم، فتشعبت الدولة العباسية إلى فروع: فارسية، وتركية، وعربية، وكردية، وكلها تابع الخليفة العباسي. فاستطرقنا بذلك إلى البحث في معنى الخلافة ونسبتها إلى السلطة من أول الإسلام إلى الآن.

ثم انتقلنا إلى العصر العربي الثاني، فذكرنا نقمة العرب على العباسيين منذ أهملوهم وأسقطوهم من الديوان، وأضفنا إليها نقمة العلويين والأمويين، وكيف ظهرت الدولة الأموية في الأندلس، والفاطمية في مصر، لمقاومة الدولة العباسية، وأوشك الفاطميون — وهم علويون — أن يتغلبوا على العباسيين، لو لم يقف السلاجقة في سبيلهم. على أن الفاطميين ما لبثوا أن تضعضعوا وغلبهم الأكراد على دولتهم، وأولهم صلاح الدين، فأعاد البيعة إلى العباسيين، وانقضى هذا العصر وقد تضعضعت المملكة الإسلامية وانقسمت على نفسها، وطمع فيها أعداؤها المحيطون بها، فجاءها المغول وهي في تلك الحال، فاكتسحوها وزادوها ضعفًا واختلالًا، وهو العصر المغولي، وبه ينتهي هذا الجزء.

وقد بذلنا الجهد في تمحيص الحقائق وتحقيق الحوادث، بالاعتماد على أوثق المصادر وأصح الروايات، وتدبرنا ذلك واستخرنا من علل الحوادث وأسبابها ما نظنه الأقرب إلى الصواب، ملتزمين الصدق والإخلاص والإنصاف، والله حسبنا ونعم الوكيل.[1]

وسيكون موضوع الجزء الخامس حضارة المملكة وأبهة الدولة وآداب الاجتماع، وبه ينتهي الكتاب.

[1] طبع هذا الجزء خمس طبعات قبل هذه، منها الرابعة سنة ١٩٢٧، والخامسة سنة ١٩٤٧.

العصر العربي الأول

من ظهور الإسلام حتى سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م

تمهيد في العرب قبل الإسلام

نريد بهذا العصر المدة التي كانت فيها الدولة الإسلامية في أيدي العرب، وكانت سياستها عربية وقوادها عربًا وعمالها عربًا، وكانت السيادة فيها للعنصر العربي. والعصر المذكور يبتدئ بالإسلام وينقضي بانقضاء الدولة الأموية. وهو ينقسم إلى دولتين: دولة الراشدين، ودولة الأمويين، ولكل منهما أحكام خاصة بها في السياسة وشؤون الحكومة سيأتي بيانها. ولا بد لنا تمهيدًا لذلك أن نأتي بفذلكة في حال العرب قبل الإسلام، من حيث ما يهمنا بيانه في هذا الباب …

(١) البدو والحضر

البدو أهل البادية، والحضر أهل المدن. والبداوة أقدم من الحضارة؛ لأنها أقرب منها إلى الفطرة الطبيعية. فالإنسان كان في أول أدواره بدويًّا يحترف الزراعة والفلاحة، أو ينتحل القيام على تربية الحيوان من الغنم والبقر والماعز أو النحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها، مما لا تتسع له المدن من المزارع للغرس والمراعي للمرعى. فالتجأوا إلى السهول والبراري، وكان همهم بلوغ الضروري من القوت والسكن والدفء بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويمكِّن من مواصلة العيش. فلما تقدمت أحوالهم وحصلوا على ما هو أكثر من ذلك من أسباب الغنى والرفاهية، عمدوا إلى السكون والدعة وتأنقوا وتمدَّنوا وأترفوا.

فالبداوة تقوم إما على الفلاحة والزرع، أو على تربية الحيوان. فالبدو أهل الفلاحة مضطرون للاستقرار في مواطنهم ينتظرون الغلة وهم سكان المداشر. والقرى والجبال، وكانوا قليلين في بادية العرب. وإنما يكثر هذا الصنف من البدو في بلاد البربر بشمالي أفريقيا، وفيما يجاور المدن العامرة بمصر وفارس والشام وغيرها. وأما البدو الذين

يحترفون تربية الحيوان فدأبهم الظعن والارتحال، لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم. وهم صنفان: أهل سائمة، وأهل إبل. فأهل السائمة هم القائمون على الشاء والبقر، ولا يبعدون في القفر لقلة المراعي الطيبة، ويقال لهم: الشاوية نسبة إلى الشاء. وهؤلاء مثل البربر في شمالي أفريقيا، والترك وإخوانهم التركمان والصقالبة، وغيرهم ممن يقطنون بوادي تركستان وخراسان ونحوهما.

وأما أهل الإبل فأشهرهم بدو العرب، وهم أكثر ظعنًا وأبعد في القفار مجالًا من أهل السائمة؛ لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا تستغني بها الإبل في قوام حياتهم عن مراعي الشجر بالقفار، وورود مياهه الملحة والتقلب في فصل الشتاء في نواحيه فرارًا من أذى البرد إلى دفء هوائه وطلبًا لما خض النتاج في رماله؛ لأن الإبل أصعب الحيوانات فصالًا ومخاضًا وأحوجها في ذلك إلى الدفء. فاضطروا إلى إبعاد النجعة والإيغال في القفار، فهم ينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه، والمفترس من الحيوان، لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم في الضواحي، وقيامهم بالدفاع عن أنفسهم. فهم دائمًا يحملون السلاح، ويتلفتون في الطرق، ويتجافون عن الهجوع، إلا غرارًا في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب، ويتفردون في القفار والبيداء واثقين ببأسهم، حتى صار البأس لهم خلقًا، ولذلك كان أكثر البدو توغلًا في القفار أشدهم بأسًا وأصبرهم على المشاق.

فسكان جزيرة العرب معظمهم من البدو الرُّحَّل؛ ولذلك كانت المدن قليلة في تلك الجزيرة، ولا سيما في أواسطها. وأشهر المدن العربية قبل الإسلام مكة والمدينة والطائف في الحجاز، ومأرب وصنعاء في اليمن. وسكانها أخلاط من العرب والفرس والأحباش واليهود وغيرهم، يرتزقون بالبيع والشراء على من يفد عليهم من أهل البادية.

(٢) العصبية العربية قبل الإسلام

قلنا: إن العرب جمهورهم من البدو، والعصبية ضرورية لأهل البادية؛ لأن الناس مفطورون على المطامع، ودأبهم التخاصم والتنازع، فأهل المدن يدفع عدوانهم الحكام وأهل الدولة من أن يظلم بعضهم بعضًا، وهي أيضًا تدفع غارات الأعداء بما تقيمه من الأسوار وتعده من الجند والسلاح. وأما البدو فيحكم بينهم مشايخهم وكبراؤهم، بما وقر في نفوس أهل القبيلة أو الحي من الوقار لهم ... وإكرام السن من تقاليد البدو. وإذا سطا عليهم عدو في منازلهم قام بالدفاع عنها فتيانهم وشجعانهم، وهؤلاء لا يصدق دفاعهم إلا إذا كانوا عصبية تشتد بها شوكتهم ويُخشى جانبهم.

وأهل البلد الواحد، أو المصلحة الواحدة، لا بد لهم من جامعة تجمع بين أفرادهم. والجامعة تختلف في الأمم باختلاف أحوالهم، فبعض الأمم يجمعهم الوطن، وآخرون يجمعهم الدين، وغيرهم يجمعهم النسب أو اللغة. وقد رأيت أن البدو لا وطن لهم، وكانوا قبل الإسلام لا دين لهم، فلم يكن لهم ما يجمعهم غير العصبية واللغة، وهما متلازمتان خصوصًا في البداوة؛ لذلك عني العرب بحفظ أنسابهم وضبطها، وتفاخروا بها، وبالغوا في استقصائها، حتى ردوها إلى الآباء الأولين.

فأقرب أسباب العصبية عندهم الأخوة والأبوة والعمومة، ومنها تتألف العائلة أو الأسرة، ومن العائلات تتألف الفصيلة، كآل أبي طالب وآل العباس مثلًا، فإن كلًّا منهما فصيلة مؤلفة من عائلات، وكلاهما من بني هاشم. ومن الفصائل تتألف الأفخاذ، مثل بني هاشم وبني أمية، وكلاهما من بني عبد مناف. ومن الأفخاذ تتألف البطون، مثل بني عبد مناف وبني مخزوم، وكلاهما من قريش. ومن البطون تتألف العمائر (جمع عمارة) مثل بني قريش وبني كنانة، وكلاهما من مضر. ومن العمائر تتألف القبائل، مثل ربيعة ومضر، وكلاهما من عدنان. ومن القبائل يتألف الشعب، وهو النسب الأبعد، مثل عدنان وقحطان.

(٣) أنساب العرب

والذي عليه النسابون أن سكان جزيرة العرب قبل الإسلام يرجعون في أصولهم إلى قسمين: العرب البائدة، والعرب الباقية. فالقبائل البائدة هي التي بادت وضاعت أخبارها قبل ظهور الإسلام، مثل عاد وثمود وطسم وجديس وعمليق وجرهم وجاسم. وقد بحثنا بحثًا تحليليًّا في نسب هذه القبائل وأماكنها في مقالة نشرت في الهلال العشرين من السنة الخامسة لا محل لها هنا. وأما العرب الباقية فهي القبائل التي ظهر الإسلام وهي موجودة، فقامت به ونشرته وأنشأت الدولة الإسلامية. والقبائل الباقية فرقتان، ترجع كل منهما إلى أب واحد يضمها ووطن تنسب إليه: الفرقة الأولى القحطانية، وترجع في أنسابها إلى قحطان وهو يقطان الذي ينتهي نسبه إلى أرفكشاد (أبو أرفخشد) من آباء التوراة، ومقر القبائل القحطانية في اليمن؛ ولذلك عُرفت أيضًا بالقبائل اليمنية أو عرب اليمن. والفرقة الثانية العدنانية، نسبة إلى عدنان من بعض أعقاب إسماعيل بن إبراهيم الخليل وتعرف أيضًا بالإسماعيلية، ولما كان مقر أكثرها في الحجاز ونجد عُرفت بالقبائل الحجازية، أو بعرب الحجاز ونجد أو عرب الشمال.

ولكل من القحطانية والعدنانية فروع من القبائل والعمائر والبطون والأفخاذ والفصائل لا يحصيها عدٌّ ولا محل لذكرها، ولكننا نأتي بما يهمنا منها في هذا المقام — فالعرب القحطانية أقدم من العدنانية، أو تمدنت قبلها على الأقل، ومنها بنو حمير الذين أنشأوا تمدنا في اليمن، ومنهم الملوك التبابعة وآثارهم في حضر موت وخرائب اليمن، لا يزال أكثرها مدفونًا في الرمال وعليه نقوش بالقلم المسند. وقد تفقد آثار ذلك التمدن غير واحد من المستشرقين، ولكنهم لم يتمكنوا من الاطلاع على شيء كثير لصعوبة السلوك في تلك القفار. على أن بعضهم ألف الكتب في هذا الموضوع، وذهب إلى أن التمدن اليمني أقدم من التمدن المصري، وأن الفراعنة أخذوا أصول تمدنهم عن أولئك العرب القحطانية. والمظنون أن ملكة سبأ التي زارت سليمان الحكيم نحو القرن العاشر قبل الميلاد إنما هي من ملوك هذه الدولة.

وما زال اليمنية في بلاد اليمن وحضرموت، حتى كان سيل العرم أو انبثاق السد المعروف بسد مأرب. وهو عبارة عن حائط كان موصلًا بين جبلين، يحجز الماء الذي كان يسيل بينهما، فيرتفع ويروي السفحين إلى أعلاهما. بناه بعض ملوك تلك الدولة بناءً متينًا، فصبر على صدمات الماء وتأثير الهواء عدة قرون. فلما دنا القرن الثاني للميلاد (تقريبًا) وكانت الدولة قد شاخت، أحسوا بقرب سقوط السد، فخافوا الطوفان والقحط، فنزحوا من ذلك المكان وتفرقوا في البلاد، بحسب قبائلهم وبطونهم، ومنهم بنو غسان في الشام، وبنو لخم في العراق، وبنو الأوس والخزرج في المدينة، والأزد في منى، وخزاعة بجوار مكة. ثم انفجر السد فهاجر من بقي هناك من القبائل اليمنية. وفي نحو القرن الخامس للميلاد استولى الأحباش على بلاد اليمن، ثم جاء الفرس فأخرجوا الأحباش وضموا اليمن إلى مملكتهم. وجاء الإسلام واليمن من أعمال مملكة الفرس.

فلما ظهر الإسلام، كانت دولة العرب القحطانية قد دالت، وهم الحضر وسكان المدن. وأما البدو القحطانية فكانوا لا يزالون كثيرين، غير من بقي من القحطانية الحضر في يثرب وغيرها من مدن الحجاز واليمن. وإليك أشهر القبائل القحطانية عند ظهور الإسلام وهي: سبأ وحمير وكهلان والأزد ومازن وغسان والأوس والخزرج وخزاعة وبجيلة وخثعم وهمدان وطيء ولخم وكندة وقضاعة وكلب وتنوخ ومراد والأشعر وغيرها.

وأما القبائل العدنانية، أو عرب الحجاز ونجد أو عرب الشمال، فلم يظهروا قبل الإسلام إلا قليلًا، ولم ينشؤوا دولة إلا بعد الإسلام. وهم قبائل عديدة، مواطنهم غالبًا في نجد

والحجاز والعراق وتهامة، وكلها بادية رحالة إلا قريشًا فقد كانوا حضرًا يقيمون في مكة، وبعض أهل الطائف. وأعظم القبائل العدنانية قبيلة «معد»، ومنها تسلسلت قبائل عدنان كلها، ويقال: أنه كان معاصرًا لأرميا النبي.[1] وتفرع من معد إياد ونزار، وسكنت إياد العراق وتشعبت إلى بطون وأفخاذ. وأما نزار ففيها العظمة والقوة، ولها الفضل الأعظم على العرب؛ لأن منها جاءهم النبي ﷺ. وانقسمت نزار إلى قبيلتي ربيعة ومضر، فسكنت ربيعة في جزيرة العراق، ومن بطونها ضبيعة وأسد وعنزة وجديلة والنمر وتغلب وبكر بن وائل وغيرهم. وأما مضر بن نزار فهم أهل الكثرة والغلب بالحجاز، أكثر من سائر بني عدنان، وكانت لهم الرياسة بمكة. ومن مضر تشعبت عدة عمائر من جملتها قريش، وتشعبت قريش إلى ٢٥ بطنًا من جملتها بنو عبد مناف، ومنهم بنو هاشم رهط النبي ﷺ، وبه شرفت مضر بعد الإسلام على سائر العرب قحطانيها وعدنانيها.

وأشهر القبائل العدنانية، غير ما تقدم، خزيمة وكنانة والنضر وشيبان وقيس وهوازن وسليم وغطفان وذبيان وثقيف وكلاب وعقيل وتميم وهلال وباهلة ومخزوم وأمية وعبد القيس وغيرها، وبعضها فروع للبعض الآخر. ولكل قبيلة أو عمارة شؤون خاصة وحكومة خاصة وشارة خاصة. ولكل منها سمة خاصة تمتاز بها عن سائر القبائل، تعرف بها رايتها وتسم بها أبلها، أي: تنقش عليها علامة خاصة بها كيًّا بالنار يقال لها: الميسم[2] وكانت القبيلة تمتاز بشيء تُعرف به ويذاع بين القبائل خبره، وتفاخر به سواها. فكانت مضر مثلًا تفتخر بفصاحتها، وربيعة تفتخر بفروسيتها ونجدتها[3] واشتهر بعض القبائل بالعز والمنعة دون سواها، كقبيلة بهدلة من العدنانية، فقد ذكروا أن العز والقوة تسلسلًا إليها من معد إلى نزار فمضر فخندف فتميم فسعد فكعب فعوف فبهدلة.

[1] ابن خلدون ٣٠٠ ج١.

[2] الأغاني ٤ ج١٩.

[3] المسعودي ٢١١ ج١.

(٣-١) عصبية النسب

وبين القبائل، أو أفخاذها أو بطونها أو عمائرها، عصبية النسب تجمعها بعضها على بعض — الأقرب فالأقرب إلى الأبعد فالأبعد. فتجتمع الفصيلتان من الفخذ الواحد على فخذ آخر ولو كانوا جميعًا من بطن واحدة، وتجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة أخرى ولو كانوا جميعًا من قبيلة واحدة، على حد قول المثل: «أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب»، فالقحطاني يتعصَّب على العدناني وهذه أوسع العصبيات، ثم إن القبائل يتعصب بعضها على بعض. والعمائر من قبيلة واحدة تتعصب بعضها على بعض، ويقال نحو ذلك في البطون من عمارة واحدة، أو الأفخاذ من بطن واحدة، حتى تصل إلى الفصائل والعائلات. فبنو العباس وبنو أبي طالب مثلًا تخاصما، وكلاهما من بني هاشم، وبنو هاشم وبنو أمية تخاصما، وكلاهما من بني عبد مناف، وقِسْ على ذلك.

وكل من القبائل أو البطون أو الأفخاذ يفاخر سواه بحسنات قومه ويذكر مثالب الآخرين. ولهم في ذلك مفاخرات يطول بنا شرحها. على أن أشهر حوادث المنافسة بين العرب إنما هو بين القبائل القحطانية (أو اليمنية) والقبائل العدنانية، وقد يرد ذكر ذلك في التاريخ ولا ينتبه له القارئ؛ لأنهم قلما يذكرون انتساب القبائل إلى إحدى هاتين العصبيتين فيقولون مثلًا: «انتشبت الحرب بين قيس وكلب»، ولا يذكرون أن قيسًا من العدنانية وكلبًا من القحطانية، لاعتقادهم أن القارئ يعرف ذلك. وقِسْ عليه قولهم: تفاخرت قحطان ونزار، أو معد واليمن، أو مضر وحمير، أو هوازن وكهلان، أو قيس وهمدان، أو نحو ذلك.

(٤) العرب والعجم قبل الإسلام

على أن العرب القحطانية والعدنانية يجتمعون على غير العرب من الفرس أو الترك ويسمونهم «العجم»، ويفاخرونهم بالأنساب واللغة ويحتقرونهم، وقد شقوا من اسمهم لفظ الأعجم للدلالة على الخرس، أو أن العجم مشتق من العجمة، فالعجمي عندهم غير العربي، والأعجم الأخرس[٤] والأخزر عندهم الذي في عينه ضيق، وهذا وصف العجم وهو

[٤] العقد الفريد ٢٢٩ ج٣.

عند العرب من النقائص، فإذا قيل للعربي: يا أخزر عُدَّ ذلك القول إهانة؛ لأنه أخرجه من العرب. على أن العجمي في الأصل الفارسي، والعجم الفرس؛ لأن الفرس أقدم من خالط العرب من الأمم الغريبة عن لسانهم، ثم أطلقوا لفظ العجم على كل أجنبي غير عربي.

والمنافسة بين العرب والعجم قديمة، فإن الفرس في أيام دولتهم كثيرًا ما كانوا يُخرجون العرب من بلادهم بالسيف، والعرب كانوا يسطون على مدن الفرس حتى في أيام سابور قبل الإسلام ببضعة قرون، وكان هذا قد تعمد أذى العرب وإخراجهم من بلاده، وخصوصًا قبيلة إياد، وفيه يقول الشاعر:

على رغم سابور بن سابور أصبحت قباب إياد حولها الخيل والنعم

ولكنه تمكن منهم بالقوة والجند، فقتل منهم خلقًا كثيرًا، ومن أفلت لحق بأرض الروم. وفعل نحو ذلك ببني تميم في البحرين. وما زالت الضغائن بين العرب والفرس، حتى اضطر عرب اليمن إلى استنجاد كسرى على الأحباش في القرن الخامس للميلاد، فأرسل جندًا أخرجوا الأحباش واحتلوا مكانهم وحكموا العرب، إلى أن جاء الإسلام وتحول السلطان إلى العرب فتسلطوا على العجم، فكبر ذلك عليهم وخصوصًا في أيام بني أمية لتعصبهم على غير العرب. ونشأت فرقة الشعوبية للطعن في العرب وسيأتي بيان ذلك.

(٥) الأمومة والخؤولة

الأصل في العصبية عند العرب الأبوة أو الانتساب إلى الأب، مثل سائر الأمم الراقية، على أن الأمومة كان لها شأن كبير عندهم، وكثيرًا ما كانت المزاوجة أو المصاهرة سببًا كبيرًا للعصبية، ليس ذلك لعلو منزلة المرأة على الإجمال، وإنما الفضل فيه للأمومة، فإن المرأة كانت لا تزال محتقرة حتى تصير أمًّا ... فتعلو منزلتها وتشتد عرى الاتحاد بها. فالرجل منهم يفضل أمه على امرأته؛ لأن الأم في اعتقاده أبقى له من امرأته. ومن أمثلة ذلك أن صخر بن عمرو بن الشريد — أخا الخنساء — لما حضر محاربة بني أسد، طعنه ربيعة بن ثور الأسدي فأدخل بعض حلقات الدرع في جنبه، وبقي صخر مدة في أشد

ما يكون من المرض، وأمه وزوجته سليمى تمرضانه، فضجرت زوجته منه، فمرت بها امرأة فسألتها عنه فقالت: «لا هو حي فيرجى ولا ميت فينسى»، فسمعها صخر فأنشد قصيدة قال منها:

أرى أم صخر لا تمل عيادتي وملت سليمى مضجعي ومكاني
وأي امرئ ساوى بأم حليلة فلا عاش إلا في شقا وهوان[٥]

وكانت العرب من أجل ذلك لا يعزون في المرأة إلا أن تكون أمًّا[٦] ولم يكن ذلك خاصًّا بحال المرأة عند العرب، فقد كان هذا شأنها أيضًا عند اليونان، لأنهم كانوا يعدون المرأة أمة يحجبونها قبل الزواج وبعده، وتشتغل بأشغال البيت من الحياكة والغزل وتمريض المرضى. وكذلك كان يفعل الفرس بنسائهم، فإذا صارت المرأة أمًّا علت منزلتها وصار إليها الأمر والنهي في بيتها، ولا يزال هذا دأب أهل البادية إلى اليوم. ونشأت من ذلك عصبية الخؤولة عند العرب، وهي نصرة عشيرة الأم لأولادها، وبعبارة أخرى لعشيرة زوجها، ولو كان الأب من قبيلة يمنية والأم من قبيلة عدنانية، أو بالعكس.

وكان للخؤولة شأن عظيم عند العرب قبل الإسلام، وأقرب الشواهد عليها نصرة أهل المدينة للنبي ﷺ في هجرته إليهم، فإن الخؤولة كانت من أهم أسباب نصرتهم؛ لأن أم النبي من بني النجار من الخزرج وهي قبيلة قحطانية، وأبوه من قريش وهي قبيلة مضرية. فلما توفي والده ذهبت به أمه إلى المدينة؛ لكي تلتجئ إلى أخواله بني النجار وهم كثيرون، وكانوا من أقرب أهلها إلى التدين، وقد ترهب أحدهم في الجاهلية، ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة، وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها، واتخذ بيته مسجدًا. فأقامت عندهم على الرحب والسعة، ثم ذهبت به إلى أعمامه في مكة وماتت على الطريق. فلما قام بدعوته وقاسى ما قاساه من اضطهاد أعمامه، هاجر إلى أخواله في المدينة، وأهلها يعرفون ذلك فيه؛ لأن خؤولة بني النجار جعلت الخزرج كلهم أخواله، فلما نزل المدينة رحب به أهلها، وكان أول من تابعه منهم أخواله أو من يمت إليهم

[٥] ابن خلكان ١٣٢ ج١.
[٦] العقد الفريد ٢٦٤ ج٢.

بقرابة. وكانوا أشد أهل المدينة غيرة عليه ودفاعًا عنه[٧] ثم تهافت أهل المدينة إلى مبايعته. وكان في أثناء غزواته إذا اشتد القتال جلس تحت راية الأنصار[٨] وهم يستهلكون في سبيل نصرته؛ ولا سيما آل النجار. وكان أعداء الأنصار إذا هجوهم خصوا بني النجار منهم بالذكر، لتصدرهم في ذلك أكثر من سائر أهل المدينة. فمن قصيدة قالها عمرو بن العاص يوم أحد وهو لم يُسلم بعد:

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا ... مع الصبح في رضوى الحبيك المنطق
تمنت بنو النجار جهلًا لقاءنا ... لدى جنب سلع والأماني تصدق
فما راعهم بالشر إلا فجاءة ... كراديس خيل في الأزقة تمرق[٩]

وظلت الخؤولة مرعية عند العرب بعد الإسلام، وكان لها تأثير كبير في العصبية وسياسة الدولة. فلما طلب معاوية الخلافة، بحجة المطالبة بدم عثمان بن عفان، نصره بنو كلب وهم يمنية؛ لأن نائلة امرأة عثمان منهم وقد تلطخت أصابعها بالدم. وكان لنصرتهم دخل كبير في قيامه، وتزوج هو واحدة منهن ولدت له ابنه يزيد. ولما أفضت الخلافة إلى يزيد، كان الكلبية من حزبه؛ لأنهم أخواله، وأمثال هذه الشواهد كثيرة في تاريخ الإسلام، منها أن المأمون نصره الفرس؛ لأن أمه منهم، وكان أخوه الأمين ضده وحزبه عربي؛ لأن أمه عربية، فلجأ المأمون إلى خراسان وأقام بمرو عند أخواله، فأخرجوا الخلافة من يد الأمين وسلموها إليه. والمعتصم كانت أمه تركية وكان ميله إلى الأتراك كثيرًا، وقد جندهم فنصروه على الفرس. وقس على ذلك تأثير الأم في الدولة، مما سيأتي تفصيله. وكان رجال السياسة والتدبير من الملوك والقواد يقوون أحزابهم بالتزوج من القبائل المختلفة، فيكتسبون عصبية قبائل نسائهم.

---

[٧] ابن هشام ١٨٩ ج١.
[٨] ابن هشام ٨١ ج٢.
[٩] ابن هشام ١١٠ ج٢.

(٦) توابع العصبية العربية

(٦-١) الحلف

فعمدة العرب في العصبية جامعة النسب من الأب، ثم الأم. على أنهم كانوا يجتمعون بأسباب أخرى، كالحلف بين القبائل وهو يشبه المحالفات أو المعاهدات الدولية في هذه الأيام. وأشهر أحلاف الجاهلية حلف المطيبين، وحلف الفضول. فالحلف يجمع بين القبائل ولو تباعدت أنسابها من القحطانية والعدنانية. وقد يكون التحالف بين العرب وغير العرب ممن ينزلون بينهم، وهو من قبيل الولاء، كاليهود الذين نزلوا المدينة من بني النضير وبني قينقاع وغيرهم، ومنهم حلفاء الأوس والخزرج، وكان أهل وادي القرى حلفاء بني هاشم، وسيأتي ذكرهم في الموالي.

وللتحالف أو الحلف عندهم شروط وأسباب، منها أن يكون الحليف أسيرًا لا يستطيع فداء نفسه، فيسمونه بسمة تلك القبيلة فيعد حليفًا لها[١٠] والحليف يرث من القبيلة كما يرث الصريح من أبنائها،[١١] أما إذا قتل فديته نصف دية الصريح.[١٢]

(٦-٢) الاستلحاق

ومن توابع العصبية العربية قبل الإسلام الاستلحاق، وهو أن يدعي الرجل رجلًا يلحقه بنسبه، وقد يكون عبدًا أو أسيرًا أو مولى، فيسميه مولاه وينسبه إليه. ومن أشهر حوادث الاستلحاق في الجاهلية، أن أمية جد بني أمية كان له عبد اسمه ذكوان، استلحقه بنسبه وكناه أبا عمرو، فصار اسمه عندهم أبا عمرو بن أمية، ومن نسله جاء الوليد بن عقبه أخو عثمان بن عفان لأمه، وكان من جلة الصحابة.

وأشهر حوادث الاستلحاق في الإسلام استلحاق زياد بن أبيه بأبي سفيان والد معاوية داهية العرب، وقصة استلحاقه مشهورة في كتب التاريخ. وكان زياد هذا ابن امرأة اسمها سمية، وكانت جارية، فولدت زيادًا من غلام رومي من موالي ثقيف اسمه

---

[١٠] الأغاني ١١٠ ج٧.

[١١] تاريخ الوزراء ٢٥١.

[١٢] الأغاني ١٦٧ ج٢.

عبيد، ولم يكن ذلك مشهورًا عند العرب، فكانوا يعتبرون زيادًا مجهول الأب فسموه «زياد بن أبيه»، فلما طلب معاوية الخلافة واحتاج إلى من ينصره، قرب إليه جماعة من دهاة العرب ومنهم زياد المذكور، واختص زيادًا بالاستلحاق، فاستشهد خمارًا من أهل الطائف اسمه أبو مريم السلولي، فشهد أن أبا سفيان جاءه والتمس منه بغيًا فأتاه بسمية فحملت منه بزياد، وثقات المؤرخين ينكرون ذلك ويعتقدون أن معاوية اختلق هذه القصة ليكتسب نصرة زياد، وقد تم له ما أراد. فسمى زياد من حينئذ «زياد بن أبي سفيان» بعد أن كان يعرف بزياد بن أبيه أو ابن سمية[١٣] وما زال آل زياد معدودين من قريش، حتى ردهم المهدي سنة ١٦٠هـ إلى نسب عبيد المذكور، وصاروا من موالي ثقيف[١٤] ومثل هؤلاء آل أبي بكرة، فقد كانوا من موالى النبي ﷺ وألحقوا بثقيف، فردهم المهدي إلى أصلهم.

وكانوا يسمون المستلحق «دعيًّا»، وقد يكون الرجل دعيَّ أدعياء فيكون هو دعيًّا في رهطه ورهطه دعي في قبيلة مثل ابن هرمة، فقد كان دعيًّا في الخلج والخلج أدعياء في قريش، وكثيرًا ما كانوا يستلحقون الرهط أو العشيرة دفعة واحدة، لنزولهم فيهم أو لنصرتهم إياهم، كما أصاب بني العم من أهل البصرة، فإنهم نزلوا ببني تميم في أيام عمر بن الخطاب، فأسلموا وغزوا مع المسلمين فقالوا لهم: «أنتم وإن لم تكونوا من العرب إخواننا وأهلنا، وأنتم الأنصار وبنو العم»، فلُقِّبوا بذلك وصاروا من جملة العرب.[١٥]

وكانوا يعدون الدعي من أنفسهم، ويورثونه كما يورثون الابن الصريح[١٦] ويرثونه، وكثيرًا ما كان العرب يرغبون في استلحاق مواليهم، رغبة منهم في أن يرثوهم، وقد يأبى المولى أن يلحقوه إذا عرف غرضهم، كما أصاب نصيبًا المغني المشهور، إذ أراد مواليه أن يلحقوه بنسبهم فأبى وقال لهم: «والله لأن أكون مولى لائقًا أحب إليَّ من أن أكون دعيًّا لاحقًا، وقد علمت أنكم تريدون مالي».[١٧]

[١٣] ابن الأثير ٢٢٥ ج٣.

[١٤] ابن الأثير ٢٠ ج٦.

[١٥] الأغاني ٧٦ ج٣.

[١٦] الأغاني ٩٤ ج١٧.

[١٧] الأغاني ١٣٤ ج١.

ومن أسباب العصبية عندهم مما يشبه الحلف «المؤاخاة»، وقد تكون بين القبائل أو بين الأفراد، ولا تزال هذه العادة شائعة بين البدو إلى الآن، فإذا آخيت العربي أخذ بناصرك وحماك ودافع عنك كأنك أخوه.

(٦-٣) الخلع

وضد الاستلحاق عندهم «الخلع»، فكان الرجل إذا ساءه أمر من ابنه، سواء كان صريحًا أو دعيًّا خلعه، أي: نفاه عن نفسه فيتخلص من تبعة ما قد يرتكبه الولد من المكروه، وقد تفعل ذلك القبيلة أو العشيرة، فيذهب جماعة منها إلى سوق عكاظ ومعهم المراد خلعه، ويشهدون على أنفسهم أنهم خلعوه، ويبعثون مناديًا بذلك فلا تحتمل القبيلة جريرة له، ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه. كما فعلت خزاعة بقيس بن الحدادية الشاعر الجاهلي[18] وقد يكتبون بالخلع كتابًا.

ومن أشهر حوادث الخلع قبل الإسلام خلع عمرو بن العاص من عشيرته، وكان قد ذهب إلى الحبشة بتجارة في الجاهلية مع عمارة بن الوليد المخزومي واختصما في الطريق، فأساء عمارة إلى عمرو فأضمر له الشر، وعمرو من بني سهم فكتب إلى أبيه أن يخلعه ويتبرأ من جريرته إذا أذى عمارة ففعل، فخلعت كل من العشيرتين صاحبها وأرسلوا بذلك مناديًا إلى مكة.[19]

وكان الخلعاء في البادية كثيرين، يجتمعون ويؤلفون عصابات من الصعاليك يقطعون السبل ويتمردون على القبيلة. فلما جاء الإسلام أصبح تمردهم على الحكومة. فقد كان يعلي الأحول من شعراء الدولة الأموية خليعًا، يجمع صعاليك الأزد وخلعاءها فيُغير بهم على أحياء العرب ويقطع الطريق على السابلة. وكان بين تجار الرقيق من يبتاع الخلعاء ويذهب بهم إلى بلاد الروم.

---

[18] الأغاني ٢ ج١٣.

[19] الأغاني ٥٢ ج٨.

(٧) العبيد في الجاهلية

(٧-١) الاسترقاق

الاسترقاق قديم مثل قدم الإنسان؛ لأن الإنسان مفطور على الاستبداد، والقوي يستعبد الضعيف. وكان الإنسان في أول عهد العمران إذا غلب عدوه وقبض عليه لا يستعبده بل يقتله، إلا النساء فقد كانوا يستبقونهن للاستمتاع بهن. ثم صاروا يستعبدون الأسرى ويستخدمونهم في حرث الأرض ورعاية الماشية، أو نحو ذلك من الصناعات، أو يبيعونهم بيع المتاع. ذلك كان شأنهم في عهد التمدن القديم في مصر وأشور وبابل. وكان للاسترقاق سوق رائجة في الدولة الرومانية، فكانوا يأتون بالأسرى بالمئات والألوف، ويبيعونهم بيع الأغنام ويعاملونهم معاملة الحيوانات. ولما انتظم حال تلك الدولة، صاروا يتزوجون بالجواري، وبعد أن كان الروماني يتصرف بعبيده كما يشاء من قتل أو جلد، أصبح قصاصه منوطًا برأي القضاة، وإذا بالغ السيد في ظلم عبده حكم القضاة عليه.

على أن العبيد ما زالوا كثيرين في المملكة الرومانية، لا يخلو منهم بيت، وأكثرهم من الأسرى أو أبنائهم، يستخدمونهم في المنازل ويعلمونهم الصناعات على اختلاف ضروبها، ويبيعونهم في أسواق خاصة بالرقيق. ويختلف ثمن العبد عندهم من عشرين ريالًا رومانيًّا إلى أربعة آلاف ريال، ويقال نحو ذلك في سائر الممالك القديمة. فالفرس مثلًا كانوا يستعبدون الأتراك في الحرب ويتهادونهم، وقد يتهادون أبناء الأمراء منهم. ومما ذكره التاريخ من ذلك أن أبرويز ملك الفرس أهدى إلى موريقس Mouricius ملك الروم مائة غلام من أبناء أراكنة الترك في غاية الحسن والجمال، في آذانهم أقراط من الذهب فيها الدر واللؤلؤ، في جملة هدايا أخرى. فأهداه ملك الروم هدية فاخرة، في جملتها عشرون جارية من بنات ملوك برجان Burgundians والجلالقة Gallicians والصقالبة Sclavs والوشكنس Gascons من الأجناس المجاورة لبلاده على رؤوسهن أكاليل الجوهر.[٢٠]

[٢٠] المسعودي ١١٩ ج١.

(٧-٢) العبيد عند العرب

والعرب أيضًا كانوا يستخدمون العبيد من أسرى الحرب، أو ممن يبتاعونهم من الأمم المجاورة لجزيرتهم، كالحبشة وما حولها من الأمم المتوحشة. فكان النخاسون يحملون العبيد والإماء من تلك البلاد وغيرها إلى جزيرة العرب، يبيعونهم في أسواقها في المواسم، وكانت قريش تتجر بالرقيق مثل اتِّجارها بسائر السلع. ومن أشهر النخاسين في الجاهلية عبد الله بن جدعان التيمي رئيس قريش في حرب الفجار،[٢١] فإذا اشترى أحدهم عبدًا وضع في عنقه حبلًا وقاده إلى منزله[٢٢] كما تقاد الدابة. وإذا كان العبد أسير حرب جزوا ناصيته وجعلوها في كنانتهم حتى يفتدي نفسه. وكانوا يبتاعون الأرقاء ويتهادونهم ويتوارثونهم مثل سائر الأمتعة، إلا إذا دبر المولى عبده أي: قال له: «أنت حر بعد موتي» فإنه يكون حرًّا. وقد يخرجون العبيد في جملة صداق العرائس، وممن أخرج في الصداق بشار بن برد الشاعر الإسلامي الشهير، فإنه كان هو وأمه لرجل من الأزد تزوج امرأة من بني عقيل فساق إليها بشارًا وأمه في صداقها.[٢٣]

وذلك يدل على كثرتهم، ولا سيما عند الأمراء والملوك حتى ليزيدون على المئات والألوف. فقد وفد ذو الكلاع ملك حمير على أبي بكر ومعه ألف عبد غير من كان معه من عشيرته.[٢٤] ولم يكن شريف من أشراف العرب يخلو منزله من عبيد يستخدمهم في قضاء حاجات منزله، فعبد الله بن أبي ربيعة كان له عبيد من الحبشة يقومون بجميع المهن، وكان عددهم كثيرًا وفيهم من يخرج للحرب. وقلما كانوا يثقون بأمانتهم[٢٥] على أنهم كانوا يستعينون بهم في القتال، وكان لذلك شأن بعد الإسلام. وكانوا يجعلون الحد على العبد نصف ما على الحر[٢٦] وإذا شهد حربًا لا يضرب لهم بسهم[٢٧] بل يكون سهمه لسيده.

[٢١] المسعودي ٢٨٢ ج١.

[٢٢] المعارف لابن قتيبة ١١٢.

[٢٣] الأغاني ٢٠ ج٣.

[٢٤] المسعودي ٢٨٧ ج١.

[٢٥] الأغاني ٣٢ ج١.

[٢٦] الأغاني ١٢٤ ج١٤.

[٢٧] المعارف لابن قتيبة ١١٠.

وكان من أصناف العبيد عندهم «القن»، وهو العبد الذي يعمل في الأرض ويباع معها ويشبه ما يعرف باسم Cerf في المملكة الرومانية. ومن العبيد من يدخل الرق بالمقامرة، كما اتفق لأبي لهب مع العاصي بن هشام، فإنهما تقامرا على أن من قمر كان عبدًا لصاحبه، فقمره أبو لهب فاسترقه واسترعاه إبله[٢٨] وكانوا يسترقون المدينين أيضًا.

وكانت العرب تتزوج الإماء، فإذا ولد لهم منهن أولاد استعبدوهم، فإذا أنجب أحدهم ألحقوه بأنسابهم واعترفوا به وإلا بقي عبدًا. وأشهر حوادث الاستلحاق على هذه الصورة إلحاق عنترة العبسي بأبيه شداد، وهو ابن جاريته زبيبة. وكان شداد نفاه فلما أنجب ألحقه بنسبه[٢٩] وقصته مشهورة. وكان العرب قبل الإسلام لا يعتقون عبيدهم إلا لسبب هام. وإذا أحب العبد العتق، استباع أي: طلب البيع، فإذا رضي صاحبه باعه لسواه. أما بعد الإسلام فقد كثر الإعتاق لحكمة سياسية دينية سيأتي ذكرها.

(٨) الموالي في الجاهلية

المولى عند العرب وسط بين العبد والحر، والغالب فيه أن يكون عبدًا معتقًا، فكل عبد أعتق صار مولى، وهو يشبه ما كان في الدولة الرومانية من العبيد المحررين ويسمونهم Libertines وكل عبد أو أسير أعتقه صاحبه فهو مولى له، وينسب إليه أو إلى قبيلته أو رهطه. فمولى العباس مثلًا هو مولى بني هاشم، وهو أيضًا مولى قريش ومولى مضر. وقد ينسب المولى إلى بلد معتقه، فيقال: فلان مولى أهل المدينة، أو مولى أهل مكة. والمولى عندهم كالقريب، ولكنهم يسمون قرابة الأهل صريحة وقرابة المولى غير صريحة. ويطلق المولى على الصاحب والقريب وابن العم والجار والحليف والابن والعم والنزيل والمحب والتابع والصهر وغير ذلك، وأكثرها يطلق على المولى بسبيل المجاز. وأما عند التحقيق فالموالي ثلاثة أنواع: مولى عتاقة، ومولى عقد، ومولى رحم.

---

[٢٨] الأغاني ١٠٠ ج٣.

[٢٩] الأغاني ١٤٨ ج٧.

(٨-١) مولى العتاقة

فمولى العتاقة هو الذي كان أسيرًا أو عبدًا وأعتق، وكانوا يعتقون الأسير مكافأة على إحسان، فيشترط الرجل على عبده مثلًا إذا فعل كذا وكذا فهو حر، ويكون مولى لمعتقه، وكان لذلك تأثير كبير في صدر الإسلام؛ لأن المسلمين كثيرًا ما كانوا يستعينون بالعبيد على أسيادهم بطريق الإعتاق. ومن أمثلة ذلك أن المسلمين لما حاصروا الطائف في السنة الثامنة للهجرة وكادت تمتنع عليهم، أمر النبي ﷺ مناديًا فنادى: «أيما عبد نزل فهو حر وولاؤه لله ورسوله»، فنزل جماعة كبيرة[٣٠] وقد يكون الإعتاق لسبب آخر.

إذا كان العبد من أسرى الحرب وأرادوا إعتاقه جزوا ناصيته وخلوا سبيله، فيصير مولى لمالك تلك الناصية. ومن قول حسان بن ثابت شاعر النبي ﷺ بعد واقعة أحد جوابًا على قول هبيرة بن أبي وهب:

ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت   أهل القليب ومن ألفينة فيها
كم من أسير فككناه بلا ثمن   وجز ناصية كنا مواليها[٣١]

(٨-٢) المكاتبة

وقد يقع العتاق باتفاق بين العبد وصاحبه بالبيع، وهو ما يعبرون عنه بالمكاتبة، وذلك أن يكتب العبد على نفسه صكًّا بثمن إذا سعى وأداه عُتق، وقد يجعل الدفع أنجما «تقسيطًا»، فأبو سعيد المقري أحد كبار التابعين كان عبدًا لرجل من جندع، وكاتبه على أربعين ألفًا وشاة لكل أضحى فأداها.[٣٢]

قلنا: أن من أعتق عبدًا كان ولاؤه له، ومعنى ذلك أنه يكون هو صاحب ولائه، فينسب إليه، وإذا مات كان هو وارثه. على أنهم كانوا يشترطون أحيانًا ألا يكون ولاؤه لمعتقه، بل يكون لمن يؤدي ثمن المكاتبة. وقد تكون العتاقة «سائبة»، وهي أن يعتق العبد

[٣٠] العقد الفريد ٢ ج٣.
[٣١] ابن هشام ١٠٥ ج٢.
[٣٢] المعارف لابن قتيبة ١٥٤.

ولا ولاء له. فكان الرجل إذا قال لعبده: «أنت سائبة» يعتق ولا يكون ولاؤه لمعتقه، ويضع ماله حيث شاء. ومن أشهر المعتقين سائبة سالم مولى أبي حذيفة بن عتبة، وأصله من اصطخر وكان مملوكًا لبثينة امرأة أبي حذيفة، فأعتقته سائبة[٣٣] على أن الإسلام نهى عن أن يكون الولاء لغير المعتق، فبريرة بنت سعود الثقفية دخلت على عائشة أم المؤمنين تستعينها في كتابتها وعليها خمس أواق نجمت عليها في خمس سنين، فقالت لها عائشة: «أرأيت إن عددت لهم عدة واحدة أيبيعك أهلك فأعتقك فيكون ولاؤك لي؟» فذهبت بريرة إلى أهلها فعرضت ذلك عليهم، فقالوا: «لا، إلا أن يكون لنا الولاء». قالت عائشة: «فدخلت على رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال: اشتريها فاعتقيها فإنما الولاء لمن أعتق»[٣٤] إلا أن يشتري أحد ذلك الولاء من صاحبه فيصير الولاء إلى المشتري، كما أصاب أبا معشر أحد أصحاب الحديث، فقد كان مكاتبًا لامرأة من بني مخزوم، فأدى وعتق ثم اشترت أم موسى بنت منصور الحميرية ولاءه.[٣٥]

ومن أسباب العتاقة عندهم التدبير، وذلك أن يقول الرجل لعبده: أنت حر بعد موتي فلا يرثه أهله.

(٨-٣) مولى العقد

ويقال له أيضًا: مولى حلف أو اصطناع، وذلك أن ينتمي الرجل إلى رجل بالخدمة على اختلاف ضروبها، أو بالمحالفة أو المخالطة أو الملازمة على أن يتعاقب ذلك أجيالًا. ومن أمثلة الموالي بالمحالفة أو المخالطة اليهود في يثرب (المدينة) فقد جاء الإسلام وهم يعدون من موالي الأوس والخزرج، فولاؤهم من قبيل الحلف، ولولاء اليهود في يثرب تاريخ يطول شرحه، خلاصته أن اليهود نزلوا قبل الميلاد ببضعة قرون وتوطنوها قبل أن ينتقل إليها الأوس والخزرج من عرب اليمن، فلما جاءوا إليها رأوا اليهود مستأثرين بالأرض والماشية فأقاموا في ضيق، حتى اتفق أن أميرًا منهم اسمه مالك بن عجلان استشار ملك غسان بالشام في شأنهم، وكأنه استعانه عليهم فاتفقا على الكيد لهم. فجاء المدينة وفعل ذلك

[٣٣] المعارف ٩٢.

[٣٤] البخاري ٦٠ ج٢.

[٣٥] المعارف ١٧٢.

فذل اليهود وخافوا، وأصبحوا إذا داهمهم أحد من الأوس أو الخزرج بشيء يكرهونه، لا يمشون بعضهم إلى بعض كما كانوا يفعلون من قبل، بل يذهب كل منهم إلى جيرانه الذين هو بين أظهرهم فيستجير بهم، فلجأ كل قوم من اليهود إلى بطن من الأوس أو الخزرج يتعززون بهم[٣٦] ويحالفونهم على أنهم مواليهم، وفيهم من ينسب ولاءه إلى رهط خاص كموالي بني النجار أخوال النبي ﷺ أو موالي غيرهم من عرب المدينة.

ومن هذا القبيل أكثر موالي العرب بعد الإسلام، فقد كان العرب أهل السيادة والشوكة، وأهل البلاد يلازمونهم بالخدمة أو المخالطة أو المعاشرة، فينسبون إليهم، ويسمون ذلك ولاء الموالاة، وهي أن يقول شخص لآخر: «أنت مولاي ترثني إذا مت، وتعقل عني إذا حييت»، فيقول الآخر: «قبلت». ولكل طبقة من العرب طبقة من الموالي، فقد كان البرامكة مثلًا من موالي الرشيد، ومن هم دونهم من العجم موالي الأمراء، وهكذا.

وكان المولى في الجاهلية ربما كان نصرانيًّا أو يهوديًّا أو مجوسيًّا، لا فرق في ذلك عندهم، فموالي النبي ﷺ كان أحدهم حبشي الأصل والآخر يوناني الأصل والآخر قبطي الأصل والآخر فارسي الأصل[٣٧] وعدس مولى عتبة بن أبي ربيعة كان من أهالي نينوى وقتل يوم بدر على النصرانية[٣٨] أما بعد ظهور الإسلام فأصبح الولاء خاصًّا بالمسلمين؛ لأن القرآن نهى عن تولي اليهود والنصارى بالآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ إلخ، وصاروا يعدون بعد الإسلام من أهل الذمة.

(٤-٨) مولى الرحم

وأما مولى الرحم فيكتسب الولاء بالزواج من موالي بعض القبائل، فينسب إلى القبيلة التي تزوج من مواليها. ومن أمثلة ذلك سديف الشاعر، فقد كان مولى خزاعة، ثم ادعى ولاء بني هاشم؛ لأنه تزوج مولاة لآل أبي لهب (من بني هاشم).[٣٩]

وللموالي عند العرب أحكام عامة وأحكام خاصة، فأحاكمهم العامة أن المولى أحط منزلة من الحر وأرفع من العبد، فهو حر لا يباع كالعبد لكنه لا يعامل معاملة الحر في

[٣٦] الأغاني ٩٧ ج١٩.
[٣٧] ابن الأثير ١٥١ ج٢.
[٣٨] المسعودي ٣١ ج١.
[٣٩] الأغاني ١٦٢ ج١٤.

الزواج والميراث. فالمولى لا يتزوج حرة، ودية المولى نصف دية الحر[40] كأنه عبد. ويعامل نحو ذلك فيما يقع عليه من القصاص، فيجلد نصف حد الحر.

وأما أحكامهم الخاصة فتختلف باختلاف نوع الولاء، وأهمها الإرث، فمولى العتاقة يورث ولا يرث، ومولى العقد لا يرث ولا يورث، ومولى الرحم يرث ويورث[41] فمن أعتق عبدًا كان الولاء له وهو يرثه؛ ولذلك يسمونه مولى النعمة. وكان الرومانيون يرثون ثلث ما يملكه مواليهم، أو يكتسبونه بالعمل أو غيره، وإذا لم يكن لهم من يرثهم من نسلهم ورثوا كل أموالهم.[42]

وكان للموالي شأن في عصبية العرب قبل الإسلام، وقد عظم شأنهم في الإسلام، حتى كانوا سببًا في قلب الممالك ونقل السلطة من دولة إلى دولة.

(٩) النزالة الأجانب في الجاهلية

كان معظم سكان جزيرة العرب من القبائل العدنانية والقحطانية ومن يتبعهم من العبيد والموالي والخلفاء ونحوهم، وفيها أيضًا جماعة من النزالة نزحوا إليها من الحبشة والشام والعراق ومصر وفارس والهند، وفيهم الأحباش واليهود والروم والكلدان والعجم والهنود وغيرهم. وكان بعضهم يتوالدون فيها ويتزوجون بأهلها، فيختلطون بهم وتضيع أنسابهم فيهم، كالكلدان والسريان وغيرهم. وفيهم من يحالفونهم وينتمون إليهم كاليهود والنصارى، ومنهم من يدخلون في جملة عبيدهم ومواليهم كالأحباش والفرس والهنود، فتضيع أصولهم؛ ولذلك كان سكان جزيرة العرب عند ظهور الإسلام عربًا صرفًا، إلا بعض اليهود كبني قينقاع والنضير وغيرهم، وشرذمات من نصارى الروم، وطائفة من الفرس الأحرار يعرفون بالأبناء.

---

[40] الأغاني ١٧٦ ج٢.

[41] العقد الفريد ٢٦٢ ج٢.

[42] Gibbon's Romcin Empire, II.

(٩-١) الأبناء

هم طائفة من الفرس كانوا يقيمون في بلاد اليمن، ويعرفون بأبناء الفرس الأحرار أو «الأبناء» تمييزًا لهم عن الفرس الموالي. وأبناء الفرس الأحرار هم أبناء الجند الفارسي الذي جاء بلاد اليمن لنصرة سيف بن ذي يزن الحميري على الأحباش، وكان الأحباش قد فتحوا اليمن واستولوا عليها، ففزع سيف المذكور إلى كسرى ملك الفرس واستنجده في حديث طويل، فسير كسرى معه بضعة آلاف من جند الفرس ومعهم قائد اسمه وهرز. فلما وصل الجيش إلى اليمن جرت الواقعة بينهم وبين الأحباش، فاستظهر الفرس عليهم وأخرجوهم من البلاد، وملك سيف بن ذي يزن ووهرز أربع سنين. وكان سيف قد اتخذ من الأحباش خدمًا، فخلوا به يومًا وهو في الصيد وقتلوه وهربوا في رؤوس الجبال، وطلبهم أصحابه فقتلوهم جميعًا، وتضعضع أمر اليمن ولم يولوا عليهم أحدًا من العرب، فظلت سيادة الفرس عليها حتى ظهر الإسلام، وفيها عاملان من قواد الفرس أحدهما اسمه فيروز الديلمي والآخر راذويه فأسلما.

فالجيش الفارسي لما استوطن اليمن تزوج رجاله فيها وتناسلوا، ورزقوا الأولاد والأحفاد وعرفوا بالأبناء. واشتهر منهم في صدر الإسلام طاوس بن كيسان أحد أعلام التابعين، ووهب بن منبه صاحب الأخبار والقصص، ووضاح اليمن الشاعر وغيرهم.

وكان مثل هؤلاء الفرس أيضًا في الشام والعراق والجزيرة، واختلفت أسماؤهم باختلاف أماكنهم بعد الإسلام، فهم يسمون في اليمن الأبناء كما رأيت، وفي صنعاء خاصة يسمون بني الأحرار، وفي الكوفة الأحامرة، وبالبصرة الأساورة، وبالجزيرة الحضارمة، وبالشام الجراجمة.[٤٣] وكان للأبناء شأن عند ظهور الإسلام، فتجندوا للمسلمين ونصروهم، وظلوا مميزين عن سائر المسلمين غير العرب بأنهم غير الموالي.

[٤٣] الأغاني ٧٦ ج١٦.

(١٠) سياسة الدولة في الجاهلية

لم يكن للعرب دولة في جاهليتهم، إلا ما كان في اليمن من دول التبابعة مما لا يدخل في بحثنا. وإنما نريد بسياسة الدولة عندهم القواعد التي كانت تدور عليها أحكامهم ومعاملاتهم لحفظ علاقاتهم السياسية وآدابهم الاجتماعية، مما يقوم مقام القوانين الإدارية والسياسية الدولية في الأمم المتمدنة.

فالرياسة عندهم أو الإمارة إنما ينالها أهل العصبية والجاه، وإذا تساوت العصبية في جماعة قدموا أكبرهم سنًّا؛ ولذلك كان لفظ «الشيخ» عندهم يدل على الشيخوخة والرياسة معًا، وإذا أشكل عليهم الانتخاب لأي سبب عمدوا إلى الاقتراع. وكذلك إذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب، واحتاجوا إلى من يرأسهم جميعًا فإنهم يقترعون بين أهل الرياسة، فمن وقعت عليه القرعة أسندوا إليه الرياسة ... ذلك هو شأن بدو العرب وهم معظمهم. وأما حضرهم في مكة فالرياسة فيهم لسادن الكعبة، وقد تقدم ذكر مصالح الحكومة عندهم في الجزء الأول من هذا الكتاب.

وكان في كل قبيلة بالجاهلية بيوتات تشتهر بالرياسة والشرف، فتمتاز عن سائر القبيلة وتكون الرياسة فيها، كبيت هاشم بن عبد مناف من قبيلة قريش، وبيت آل حذيفة بن بدر الفزاري من قيس، وبيت آل زرارة بن عدي من تميم، وبيت آل ذي الجدين بن عبد الله بن همام من شيبان، وبيت بني الريان من بني الحرث بن كعب من اليمن. وقد امتازت هذه البيوتات على قبائلها بالشرف؛ لتوالي ثلاثة آباء منها في الرياسة على الأقل. ولأهل البيوتات نفوذ على سائر القبيلة: وكان أهل السياسة من رجال المسلمين يلاحظون ذلك في تولية الحكام. ومن هذا القبيل وصية ابن عباس للحسن بن علي: «ول أهل البيوتات تستصلح بهم عشائرهم».

والأمير البدوي مع سلطته المطلقة قلما يستبد في أحكامه، ويغلب أن يستشير أهل بطانته وخاصته، على أنه لم يكن يحتجب عن أحد ولا يمتهن أحدًا. يجالس جميع الناس ويخالطهم، رفيعهم ووضيعهم. وهم لا يعرفون ألقاب التفخيم ولا نعوت التملق، فإذا خاطب البدوي أميره ناداه باسمه وطالبه بحقه، بعبارات تشف عن عزة النفس وإباء الضيم، أو هي أنفة البداوة، على أنهم كانوا يتكلمون على الأسنان، والأمير يخاطب رعاياه بألقاب الوقار، كالأب والعم والخال والابن أو ابن الأخ، على ما تقتضيه الأسنان والأنساب. وظل ذلك شأنهم في صدر الإسلام، ينادون الخليفة باسمه ويحاجونه في شؤونه، حتى إذا تحضروا احتجبوا وتكبروا، فاتسع الفاصل بين المحكوم والحاكم.

(١١) مناقب العرب في الجاهلية

(١١-١) الوفاء

على أن العرب قلما كانوا يحتاجون إلى حاكم يفصل في الخصومة بينهم، لما فطروا عليه من المناقب الجميلة التي تقوم فيهم مقام الحاكم الصارم، وتنزههم عن ارتكاب الدنايا مما يغنيهم عن القضاء. وسيد هذه المناقب «الوفاء»؛ لأنه إذا تأصل في أمة أغناها عن القضاء — والحكومة إنما تقضي بين الذين لا يعرفون الوفاء. وكان الوفاء متمكنًا في خلق العربي، ويزيد تمكنا فيه كلما بعُد عن المدن وأوغل في الصحراء؛ لأن الغدر والنكث لا يعيشان إلا في القصور الشماء في ظل الحدائق الغناء.

وترى الوفاء مطبوعًا في أقوال أهل البادية وأشعارهم وأمثالهم، ويتجلى في عاداتهم وأخلاقهم وفي سائر أعمالهم، وهو فيهم سجية وفي سواهم صناعة وتكلف. وحكاية حنظلة الطائلي والنعمان بن المنذر تمثل هذه الخلة أحسن تمثيل، فإن حنظلة وعد النعمان بالرجوع بعد عام لاستقبال الموت، فطلب النعمان من يضمنه فضمنه شريك بن عدي، ولم يقدم شريك على ذلك إلا وهو يعتقد صدق البدو لاشتهارهم به. وقد وفى حنظلة فجاء في الوقت المعين، لا جند يقوده ولا حراس تخفره، مما حمل النعمان على العفو عنه وقصته مشهورة.[٤٤]

وأغرب من ذلك وفاء السموأل (صموئيل) بن عادياء، وكان امرؤ القيس الكندي قد استودعه سلاحًا وأمتعة تساوي مالًا كثيرًا، وسافر إلى بلاد الروم ومات قبل رجوعه، فبعث ملك كندة يطلب الأسلحة والأمتعة المودعة عند السموأل، فلم يسلمها. ولما ألح عليه أجابه: «لا أغدر بذمتي ولا أخون أمانتي ولا أترك الوفاء الواجب علي». فجرد الملك عليه جيشًا وحاصره في حصنه، فوقع ابن السموأل أسيرًا عند الملك، فهدد السموأل بقتل ابنه أن لم يسلم الوديعة، فأبى التسليم وقال: «ما كنت لأخفر ذمامي وأبطل وفائي فافعل ما شئت». فذبح ولده و السموأل ينظر. فلما امتنع الحصن على ملك كندة عاد خائبًا، وأما السموأل فصبر على ما تحمله من الثكل محافظة على الوفاء، ولم يسلم الوديعة إلا إلى ورثة امرئ القيس.

---

[٤٤] المستطرف ١٦١ ج١.

فمن كانت هذه مناقبهم قلت حاجتهم إلى القوانين، واستغنوا عن الجند والحرس وخصوصًا إذا أضفنا إليها علو الهمة وطيب النفس، وقلة احتمال الذل والسماحة والكرم والنزاهة عن الدنايا ... فهذه كلها مناقب العرب أهل البادية.

(١١-٢) الجوار

ومن قبيل الوفاء بالعهد وحفظ الذمام أيضًا «الجوار»، فإن البدوي يحافظ على جاره محافظته على نفسه. والمقصود بالجوار في الأصل أن يحافظ الرجل على جاره القريب، وهو من قبيل التعاون الطبيعي حتى قيل: «جارك القريب ولا أخوك البعيد». ولكن العرب توسعوا في ذلك حتى شقوا منه الإجارة والاستجارة والجوار، وكلها بمعنى الحماية والحفاظ، مع أن أصل المادة «جار» يفيد عكس ذلك. واستعاروا الجوار للحماية على الإطلاق، فإذا خاف أحدهم سوءًا جاء إلى رجل يحميه، ويكفي أن يقول له: «أجرني» فيجيره بقدر طاقته، وقد يفرط في أهله ولا يفرط في جاره.

ومن أمثلة ذلك أن الأعشى امتدح الأسود العنسي فأعطاه جائزة من الحلل والعنبر، فرجع وطريقه على بني عامر فخافهم على ما معه من المال، فأتى علقمة بن علاثة فقال له: «أجرني ...»، فقال: «قد أجرتك ...»، قال: «من الجن والإنس ...»، قال: «نعم ...»، قال: «ومن الموت ...» قال: «لا ...»، فتركه وأتى عامر بن الطفيل فقال له: «أجرني ...»، قال: «قد أجرتك ...»، قال: «من الإنس والجن ...»، قال: «نعم ...»، قال: «ومن الموت ...»، قال: «نعم ...»، قال: «وكيف تجيرني من الموت؟» قال: «إذا مت وأنت جاري بعثت إلى أهلك الدية»، فقال: «الآن علمت أنك تجيرني».[٤٥]

وقد يجئ بعضهم ليستجير برجل فلا يجده في بيته، فيكفي أن يعقد طرف ثوبه إلى جانب طنب البيت، فإذا فعل ذلك صار جارًا ووجب على المعقود بطنب بيته للمستجير به أن يجيره وأن يطلب له بظلامته.[٤٦]

[٤٥] الأغاني ٨٣ ج٨.

[٤٦] الأغاني ١٨٤ ج٢.

ومن قبيل تعظيم الجوار والمحافظة عليه أن عامر بن الطفيل لما مات نصبت بنو عامر أنصابًا ميلًا في ميل على قبره، لا ينشر فيه ماشية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماشٍ، إشارة إلى ما كان عليه من المحافظة على الجوار في حياته.[٤٧]

وما زال الجوار مرعيًّا عند العرب بعد الإسلام، إلا من خالط الأمم الأخرى في البلاد المفتوحة. على أن تأييد الدولة اقتضى ضعف الجوار؛ لأن أهل الوجاهة أصبحوا من أهل الدولة، والرجل يومئذ إنما يستجير من حاكم يطلبه، فإذا استجار به مظلوم قالوا: «إنما يجير الرجل على عشيرته، وأما على سلطانه فلا» خوفًا على مناصبهم، كما أصاب ابن مفرغ لما هجا بني زياد واستجار بالأحنف بن قيس على عبيد الله بن زياد، وهو يومئذ أمير البصرة فأبى الأحنف خوف العزل، وقال له: «إذا شئت أن أجيرك من بني سعد فعلت»، فذهب إلى غيره من وجهاء العرب فأبوا إجارته لنفس هذا السبب.[٤٨]

(١١-٣) الأريحية

ومن المناقب التي تغني العرب عن الوازع القهري أو القوة الحاكم «الأريحية»، وهي من مقتضيات العصور الجاهلية البدوية، أو ما يجري مجراها من أحوال الفروسية التي يعبر عنها الإفرنج بقولهم: Chevalerie، ومرجع ذلك إلى التفاخر بالشجاعة والكرم وحسن الأحدوثة. وكان للأريحية شأن عظيم عند العرب، لدقة شعورهم وسرعة تأثرهم؛ لأنهم أهل خيال وذوو نفوس حساسة، يقيمهم البيت من الشعر ويقعدهم، وقد يسمعون الكلمة فتطير لها نفوسهم، وربما بذل العربي حياته في سبيل كلمة يقولها، أو فرارًا من كلمة يسمعها؛ ولذلك كثرت عندهم ضروب المفاخرة، والمباهاة في المواسم والأندية، مما يرغب في الفضائل ويغني عن زجر الحكام.

ومناقب العرب كثيرة، كالكرم والضيافة وعلو الهمة، مما لا دخل له في موضوعنا.

---

[٤٧] الأغاني ١٣٩ ج١٥.

[٤٨] الأغاني ٥٦ ج١٧.

سياسة العرب في عصر الراشدين

من سنة ١١–٤١هـ

(١) الجامعة الإسلامية

قد رأيت أن العرب إنما كانوا يتفاضلون بالعصبة ويتفاخرون بالأنساب، فلما جاء الإسلام كان في جملة ما بدله من أحوالهم أنه جمع كلمتهم وصاروا يدًا واحدة على اختلاف أنسابهم ومواطنهم. وبعد أن كان اليمني يفاخر الحجازي، والمضري يفاخر الحميري، ونحو ذلك من مفاخرات القبائل والبطون والأفخاذ، جاء الإسلام فجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد هو «الإسلام»، فقال النبي: «المسلمون إخوة»، وقال في خطبة ألقاها يوم فتح مكة: «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب»،[١] وقال من خطبة في حجة الوداع: «أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، وأكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى».[٢]

واقتدى بالنبي خلفاؤه الأولون، لا سيما عمر بن الخطاب، فإن جبلة بن الأيهم ملك غسان بعد أن أسلم، اتفق وهو يطوف بالكعبة أن فزاريًّا وطئ إزاره فانحلَّ، فرفع

[١] ابن هشام ٢١٩ ج٢.

[٢] البيان والتبيين للجاحظ ١٦٤ ج١.

جبلة يده وهشم الفزاري، فشكاه إلى عمر فأراد أن يهشم أنف جبلة، فقال: «وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك؟» فأجابه عمر: «إن الإسلام جمعك وإياه، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية»، فلم يحتمل جبلة ذلك فعمد إلى الفرار.[3]

فيؤخذ من ذلك أن الجامعة الكبرى إنما هي الإسلام، ولكنهم كانوا يجعلون للعرب مزية على سواهم من الأمم؛ لأنهم قوام الإسلام، وأوصى عمر بن الخطاب بأهل البادية خيرًا؛ لأنهم أصل العرب ومادة الإسلام[4] وقال: «إياكم وأخلاق العجم»، والإسلام نهضة عربية جمعت العرب على العجم. وعمر أول خليفة فضل العرب وجعل لهم مزية على سواهم ومنع من سبيهم، ومن أقواله: «قبيح بالعرب أن يملك بعضهم بعضًا، وقد وسع الله — عز وجل — وفتح الأعاجم»، وفدى سبايا العرب من الجاهلية والإسلام إلى أيامه[5] عملًا بالحديث: «لا سبأ في الإسلام».

وكان عمر لا يدع أحدًا من العجم يدخل المدينة[6] وهو الذي قسم خيبر بين المسلمين وأخرج اليهود منها، وقسم وادي القرى وأجلى يهود نجران إلى الكوفة[7] لتخلو جزيرة العرب من غير العرب. وكان كثير العناية بالجامعة العربية يوصي العرب بحفظ أنسابهم لئلا تضيع عصبيتهم، ومن وصاياه: «تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدكم عن أصله قال: من قرية كذا ...».[8]

(٢) الجامعة العربية

ثم إن عمر، مع حرصه على الجامعة العربية واختصاص جزيرة العرب بها، قد حرض العرب المسلمين على سكنى العراق والشام فقال: «ليست الحجاز لكم بدار إلا على النجعة ... سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها»[9] لعلمه أن في

[3] الأغاني ٤ ج١٤.

[4] ابن الأثير ٢٥ ج٣.

[5] ابن الأثير ١٨٦ ج٢.

[6] المسعودي ٢٩ ج١.

[7] ابن الأثير ٢٨٠ ج٢.

[8] ابن خلدون ١٠٩ ج١.

[9] ابن خلدون ١٢٢ ج١.

العراق والشام عربًا يتحدون معهم وينصرونهم. وكان عرب العراق ناقمين على الفرس من أيام دولتهم، لما كانوا يسومونهم إياه من الاضطهاد. وكانت ديانة بعض عرب العراق والشام النصرانية، ولكنهم فرحوا بالمسلمين وكانوا ينصرونهم للعصبية العربية وليس للدين. وخصوصًا عرب العراق فإنهم حاربوا مع المسلمين ودلوهم على عورات الفرس — فأبو زبيد الطائي حارب مع المسلمين في واقعة الجسر حتى قتل وهو نصراني، وإنما حارب حمية للعرب. وجاء المسلمين يوم واقعة البويب أنس بن هلال النمري في جمع عظيم من النمر — وهم نصارى — وقالوا: «نقاتل مع قومنا»،[١٠] وكذلك فعل جماعة من تغلب وغيرهم حمية للجامعة العربية، بقطع النظر عن الدين.

وكثيرًا ما كان عرب الشام والعراق عونًا للمسلمين في حروبهم، يرشدونهم وينصحونهم ويحملون إليهم أخبار أعدائهم. فلما خرج الوليد بن عقبة غازيًا لقيه الروم فقاتلوه، فجاءه رجل من العرب نصراني وقال له: «إني لست من دينكم ولكنني أنصحكم للنسب، فالقوم مقاتلوكم إلى نصف النهار، فإن رأوكم ضعفاء أفنوكم وإن صبرتم هربوا وتركوكم»[١١] وقد نفعته هذه النصيحة.

ولم يكن عمر يجهل تلك الرابطة، فحرض المسلمين على فتح الشام والعراق. ولما رأى ما كان من نصرة عرب العراق لهم عرف فضلهم، فلما هم المسلمون بوضع الجزية على أهل الذمة وفي جملتهم عرب تغلب وإياد والنمر — وهم نصارى — أبى هؤلاء الجزية، وبلغ عمر ذلك فاستشار أصحابه فقال له بعضهم: «إنهم عرب يأنفون من الجزية، وهم قوم لهم نكاية فلا تعن عدوك عليك»، فوافق ذلك ما في نفسه ففرض عليهم الصدقة كما تفرض على المسلمين، ولكنه شرط عليهم أن لا ينصروا أولادهم.[١٢]

كل ذلك محافظة على الجامعة العربية، وكان يُعدُّ ذلك حقًّا واجبًا. فلما سار الوليد بن عقبة لفتح العراق والجزيرة، انضمت إليه عربها النصارى، إلا قبيلة إياد، فإنهم تحملوا إلى بلاد الروم، فكتب الوليد إلى عمر بذلك، فكتب عمر إلى ملك الروم: «بلغني أن حيًّا من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك، فوالله لتخرجنه إلينا أو لنخرجن النصارى إليك» فأخرجهم ملك الروم.[١٣]

[١٠] ابن الأثير ٢١٥ ج٢.

[١١] الأغاني ١٨٧ ج٤.

[١٢] المعارف ١٩٣.

[١٣] ابن الأثير ٢٦٢ ج٢.

(٣) الانسياح في الأرض

فعمر حرض العرب على فتح الشام والعراق توسيعًا للجامعة العربية، والاستعانة بها على الروم والفرس، ولكنه لم يأذن لهم بفتح ما وراءهما إلا في السنة السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، وهو ما يعبرون عنه بالانسياح في الأرض. فكانوا يتطلبون الفتح وقد طابت لهم الغنائم واستلذوا النصر، فإذا استأذنوه في فتح بلد مما وراء ذلك لم يأذن لهم، كما وقع لعمر بن العاص لما أراد فتح مصر، وكان قد عرفها من أيام الجاهلية، فلما فتحت الشام والعراق جاء إلى الخليفة عمر ورغَّبه في فتحها وقال له: «إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم، وهي أكثر الأرض أموالًا وأعجز عن القتال والحرب» فلم يجبه عمر، ولما ألح عليه أطاعه وهو يتردد وقال له: «سر … إني مستخير الله في سيرك، وسيأتيك كتابي إن شاء الله تعالى، فإذا أدرك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئًا من أرضها فانصرف، وإلا أن دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره». فسار عمرو بجنده مسرعًا خوفًا من أن يأتيه كتاب الخليفة بالرجوع. فوصله كتابه في بلد قرب العريش خارج حدود مصر، فلم يفتح الكتاب حتى نزل العريش وهي من مصر، ففضَّ الكتاب وإذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته، أما بعد فإن أدركك كتابي هذا وأنت لم تدخل مصر فارجع عنها، وأما إذا أدركك، وقد دخلتها أو شيئًا في أرضها فامضِ واعلم أني ممدُّك»، فمضى حتى فتح مصر.

ولما فتح المسلمون الأهواز قال عمر: «ليت بيننا وبين فارس جبلًا من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم». ومن هذا القبيل نهيه المسلمين عن اجتياز البحر. وكان إذا هم المسلمون بالنزول في بلد أو إنشاء معسكر في البلاد المفتوحة أوصاهم أن لا يقيموا في مكان يفصل بينه وبين المدينة (مركز الخلافة) ماء، حتى إذا أراد أن يأتيهم أتاهم على راحلته، مما يدل على رغبته في العصبية العربية على أن يكون مركزها في بلاد العرب. ومع ذلك فلما لم ير بدًّا من الانسياح في الأرض أذِنَ لقواده بالفتح، ولكنه ظلَّ على رأيه في القرشيين على الخصوص، فحصرهم في المدينة ومنعهم من الخروج وقال: «أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد»، فإذا جاء الرجل منهم يستأذنه في الغزو أجابه: «قد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك، وخير لك من غزوك اليوم أن لا

ترى الدنيا ولا تراك». كان يفعل ذلك بالمهاجرين من قريش فقط، فلما ولي عثمان خلي عنهم، فلحق معظمهم بمعاوية في الشام وانتشروا في البلاد.[١٤]

فسياسة عمر بن الخطاب في أوائل دولته كانت تقضي ببقاء العرب محصورين في جزيرة العرب وما يليها من الشام والعراق، وأن يختص قريشًا بالإقامة في المدينة؛ لأنها مركز الإسلام وهم أساسه ومنشأه، على أنه لم يستطع وقف تيار الفتح فلم ير بدًّا من الإذن في الانسياح.

فالعصبية التي قام بها الإسلام هي الجامعة العربية؛ ولذلك كان اللفظان مترادفين في ذلك الحين، وخصوصًا عند الأمم التي خضعت لسلطان المسلمين، فكانوا إذا قالوا: «العرب» أرادوا «المسلمين»، وبالعكس. ولفظ «طيبوتا» عند السريان يدل على العرب والمسلمين على السواء، والفرق بين هذه الجامعة قبل الإسلام وبعده أن العرب كانوا في الجاهلية عصبيات عديدة تختلف باختلاف الأنساب، فأصبحوا بالإسلام عصبية واحدة تجمعها كلمة العرب، وتركوا ذكر الآباء والأجداد عملًا بما يقتضيه روح الإسلام. وكانوا في جاهليتهم يتفاضلون بالأنساب، فأصبحوا في الإسلام يتفاضلون بالتقوى والجهاد في سبيل الدين، فنشأت فيهم جامعات إسلامية فرعية لم يكن لها ذكر من قبل.

(٤) طبقات عربية إسلامية

لما قام النبي ﷺ بالدعوة الإسلامية، احتاج إلى من يسمع دعوته وينصره، فاجتمع حوله جماعة من قبيلته صدقوه ونصروه، وهاجر بعضهم إلى الحبشة وهاجر الآخرون إلى المدينة معه فعُرفوا بالمهاجرين، وهم أقدم الطبقات الإسلامية. ولما جاء المدينة وأقام فيها نصره أهلها وآمنوا بدعوته فسماهم «الأنصار» وهم طبقة أخرى، والطبقتان معًا تسميان «الصحابة» أي: الذين صحبوا النبي أو عرفوه. وتفرع من الصحابة جماعات تعرف كل منها بجامعة خاصة لأحوال خاصة كان لها تأثير في نصرة الإسلام أو نشره. فواقعة بدر كان لها شأن عظيم في تأييد الإسلام، فامتاز الصحابة الذين شهدوها عن سائر المسلمين، ونسبوا إليها فسموا «البدريين» أو «أهل بدر»، وكذلك واقعة القادسية التي كانت عنوان فتح العراق وفارس، فإن الذين شهدوها عرفوا بأهل القادسية. وقد

---

[١٤] ابن الأثير ٩٠ ج٣.

جعل المسلمون لكل من هذه الطبقات أو الجماعات امتيازات خاصة، وفضلوا أهل بدر وأهل القادسية بالعطاء على سائر المسلمين.

ويقال نحو ذلك في من شهد فتح مكة أو سواها من الوقائع الأخرى التي كان لها شأن في الأحزاب الإسلامية، كواقعة الجمل وواقعة صفين، فإن شيعة علي يفضلون من رجالهم الذين شهدوا واقعة الجمل؛ لأنهم انتصروا فيها ويسمونهم «أصحاب الجمل»، وشيعة بني أمية يفضلون «أصحاب صفين» لمثل هذا السبب، وقد زاد معاوية عطاء هؤلاء عن سائر أصحابه.

على أن الصحابة يتفاضلون أيضًا في السبق إلى الهجرة، أو إلى البيعة، ومنهم أصحاب بيعة العقبة وأصحاب الغار. والذين لهم صحبة قبل بيعة الرضوان يفرقون عمن صاحب بعدها، ونحو ذلك مما يطول شرحه. ناهيك بالمناصب التي اقتضتها الأحوال الدينية أو الإدارية، كالحفاظ والقراء والمؤلفة قلوبهم والعمال والقضاة والتابعين وتابعي التابعين وغيرهم.

على أن عصبية النسب لم تذهب بعد الإسلام ذهابًا تامًّا، ولكنها تحولت إلى وجهة دينية، فأصبح أشرف الأنساب عندهم، أقربها إلى قبيلة النبي «قريش» فالنسب القرشي أشرف الأنساب، وللقرشيين التقدم في المناصب والمراتب والعطاء وخصوصًا بعد اشتهار الحديث: «الأئمة من قريش»[١٥] فاعتقدوا الفضل للقرشيين على الناس كافة في كل شيء، حتى في أحوال الحياة والولادة فقالوا: «لا تحمل لستين إلا قرشية، ولا تحمل لخمسين إلا عربية»[١٦] وإنه لا تكون بنت امرأة قرشية أمة[١٧] وأن القرشي لا يتزندق[١٨] وأنه لا ينبغي للقرشي أن يستغرق في شيء من العلم غير الأخبار[١٩] وظلت الرياسة في قريش لا ينازعهم فيها منازع إلى عهد غير بعيد.

وكان لكل من طبقات الصحابة المهاجرين والأنصار شأن خاص وحزب خاص، ولا سيما في أيام بني أمية، إذ ذهبت دهشة النبوة وعاد الناس إلى عصبية الجاهلية،

---

[١٥] العقد الفريد ٤٠ ج٢.
[١٦] الأغاني ٨٨ ج١٥.
[١٧] الأغاني ١١٠ ج١٤.
[١٨] الأغاني ٦٠ ج١٤.
[١٩] البيان والتبيين للجاحظ ١٥١ ج١.

فاختصم المهاجرون والأنصار وتذكروا ما كان بين العدنانية والقحطانية من التفاخر — والمهاجرون من العدنانية (مضر) والأنصار من القحطانية (الأوس والخزرج) — فعادوا إلى المنافسة وغلب انحياز كل من الطائفتين إلى أحد الأحزاب التي نشأت في ذلك العهد، فكان الأنصار مع علي ومعظم المهاجرين مع معاوية، وعادوا إلى المهاجرة والمفاخرة بالأشعار وغيرها.

وكان الأنصار أهل المدينة من أشجع الناس وهم أهل الشورى، يعقدون الإمامة، وحكمهم جائز على الأمة وهم شيعة علي وسائر أهل البيت. فلما قام معاوية يطلب الخلافة لنفسه كانوا من أقوى مقاوميه، فكان رجاله يكرهونهم ويسعون إلى إذلالهم، وكثيرًا ما كانوا ينكرون عليهم هذا اللقب — يروى أن بعض الأنصار استأذنوا للدخول على معاوية في إبان خلافته، فدخل الحاجب وقال: «هل تأذن للأنصار؟»، وكان عمرو بن العاص حاضرًا فقال: «ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين؟ أردد الناس إلى أنسابهم».

(٥) سياسة الخلفاء الراشدين

لم يكن للإسلام في عصر الراشدين دولة سياسية، بل هي خلافة دينية أساس أحكامها التقوى والرفق والعدل، مما لم يسمع بمثله في عصر من العصور. ورجل هذا العصر، بل رجل الإسلام على الإطلاق «عمر بن الخطاب»، فإن ما يروونه من أعماله وأحكامه يندر اجتماعه في البشر، ومناقبه مدونة في الكتب ومشهورة. وأما أبو بكر فلا يقل عظمة عنه، لولا قصر مدة حكمه، ويكفيه من الأثر في الإسلام قتاله أهل الردة؛ إذ رجع بعض الناس عن الإسلام بعد موت النبي، فخاف المسلمون ذهاب دولتهم وهي لا تزال في طفولتها، فشمر أبو بكر عن ساعد الجد وقاتل المرتدين وأيَّد الدين، وكذلك يقال عن علي وعثمان.

(٥-١) أبو بكر

وعصر الراشدين هو في الحقيقة عصر الإسلام الذهبي، ومناقب الخلفاء الراشدين مشهورة بالزهد والتقوى والعدل. فقد أسلم أبو بكر وعنده من ماله أربعون ألفًا، وهي ثروة طائلة يومئذ، أنفقها كلها في سبيل الإسلام مع ما اكتسبه من التجارة. وكان له في خلافته بيت مال ينفق كل ما فيه على المسلمين، ولما مات لم يجدوا فيه غير دينار. وكان منزله في السنح بضواحي المدينة يغدو إليه على رجليه، ويندر أن يركب فرسه. فإذا جاء

المدينة صلى في الناس، فإذا جاء العشاء عاد إلى السنح. وكان مع ذلك يغدو كل يوم إلى السوق يبيع ويبتاع، وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج بنفسه فيها. وكان قبل الخلافة يحلب للحي أغنامهم، فلما صار خليفة سمع جارية تقول: «الآن لا يحلب لنا منائح دارنا» فقال: «بلى لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه». وبعد خلافته بستة أشهر تحول إلى المدينة وقال: «ما تصلح أمور المسلمين مع التجارة، وما يصلح إلا التفرغ لهم والنظر في شؤونهم». فترك التجارة، فصار ينفق من مال المسلمين ما فرضوه له: ٦٠٠٠ درهم في السنة. فلما حضرته الوفاة وصى بقطعة أرض كانت له، أن تباع ويصرف ثمنها عوض ما أخذه من مال المسلمين.

(٥-٢) عمر بن الخطاب

أما عمر بن الخطاب، ففي أيامه فتحت البلاد وكثرت الغنائم، وانصبت خزائن كسرى وقيصر بين يدي رجاله، ومع ذلك فإنه كان من الزهد والتقشف بما ليس بعده غاية، حتى قيل: إنه كان يقف للخطابة وعليه إزار مرقع بجلد. وإذا أنفق عطاءه واحتاج إلى المال أتى صاحب بيت المال فاستقرضه على أن يؤديه من عطائه. وكان شديد الحرص على أموال المسلمين، لا ينفقها إلا في مصالحهم، ويتولى أمورهم بنفسه دينًا وسياسة، فيسعى في نشر الإسلام، ويعلم العرب قواعد الدين، فيطوف الأسواق ويقرأ القرآن ويحرض الناس على التقوى، وإذا حرضهم على شيء بدأ بنفسه. ووضع على من يشرب الخمر ثمانين ضربة، وكان يبعث أناسًا من القراء يعلمون أهل البادية القرآن، ثم يبعث من يمتحنهم فمن لم يقرأ شيئًا منه عاقبه بالضرب، وربما فرط الضارب حتى يقتل المضروب[٢٠] وكان شديدًا على عماله وقواده، يحاسبهم ويدقق في استطلاع أحوالهم، فمن رأى فيه اعوجاجًا قومه، لا يبالي من هو حتى خالد بن الوليد القائد الإسلامي الشهير، فإن عمر نقم عليه لأمر يخالف قواعد التقوى، فاستقدمه إليه ووبخه وهدده كأنه غلام وخالد لا يجيبه[٢١] وقد يضرب عامله بالدرة أو يوبخه، وليس فيهم من يرد في وجهه أو يعترضه، وكان شديد العقاب على من يشرب الخمر، أو يطمع في أموال المسلمين. ومع

[٢٠] الأغاني ٥٨ ج١٦.

[٢١] ابن الأثير ١٧٤ ج٢.

ذلك فقد كان يعامل الناس معاملة الأب لبنيه، فيطعمهم على موائد يجفن لهم فيها عشرة عشرة، وإذا غاب قواده تفقد بيوتهم وتعهد أهلهم بما يحتاجون إليه[٢٢] وكان عادلًا في الناس رفيقًا بغير المسلمين. وكانت الدنيا في أيامه مجمعة على الطاعة، والناس يدخلون في الإسلام أو يبقون تحت راية المسلمين عن رضى وراحة، كأنه كان قابضًا على شؤون الدولة وأعنة الحكومة بيد من حديد. فلما قتل تزعزعت أركانها، ونقض كثير من أهل الأمصار وخصوصًا خراسان وسجستان[٢٣] وغيرهما من الأطراف البعيدة.

(٥-٣) عثمان بن عفان

وكان عثمان مثل سائر الخلفاء الراشدين، لولا ضعفه واستسلامه إلى بعض ذوي قرابته من بني أمية، حتى نقم عليه سائر المسلمين، وخصوصًا أهل المدينة لأسباب تقدم بيانها وقتلوه، فاتخذ بنو أمية قتله حجة لطلب الخلافة لأنفسهم. على أن عثمان أول خليفة اقتنى المال لنفسه، فقد ذكروا أنه كان عند خازنه ١٥٠٠٠ دينار و١٠٠٠٠٠٠ درهم، وله ضياع بوادي القرى وحنين وغيرهما قيمتها ١٠٠٠٠٠ دينار، فضلًا عما خلفه من الخيل والإبل، وفي أيامه اقتنى الصحابة الضياع وابتنوا الدور واختزنوا الأموال[٢٤] وتعودوا الغنى والترف، فلما جاءهم على بعده بما كان عليه عمر من الزهد والتقشف كابروه، وساعدهم على التمنع قيام معاوية وأطماعهم في الأموال، وسيأتي بيان ذلك.

(٥-٤) علي بن أبي طالب

أما علي فحكاياته في الزهد والتقوى كثيرة، وكان شديد التمسك بالإسلام، حر القول والفعل، لا يعرف الدهاء ولا يركن إلى الحيلة في شأن من الشؤون، وإنما همه الدين وعمدته في أعماله الصدق والحق. فمن أمثلة تقشفه وزهده أنه تزوج فاطمة بنت النبي وليس له فراش إلا جلد كبش كانا ينامان عليه بالليل ويعلقان عليه ناضحهما بالنهار، ولم يكن عنده خادم يخدمه. وجاءه مال من أصبهان في أيام خلافته فقسمه على سبعة

[٢٢] الجزء الثاني من هذا الكتاب.

[٢٣] ابن الأثير ٦٠ ج٣.

[٢٤] المسعودي ٣٠١ ج١.

أسهم، فوجد فيه رغيفًا فقسمه على سبعة، وكان يلبس قطيفة لا تقيه البرد. ورآه بعضهم يحمل تمرًا في ملحفته قد اشتراه بدرهم، فقال له: «يا أمير المؤمنين ألا نحمله عنك؟»، فقال: «أبو العيال أحق بحمله ...». ومن أقواله في كيف يجب أن يكون المسلمون قوله: «خمص البطون من الطوي، يبس الشفاه من الظمأ، عمش العيون من البكاء».[٢٥] ومن أمثلة عدله أنه رأى درعًا له عند رجل فتقاضيا إلى شريح القاضي. فوقف علي بجانب خصمه احترامًا للعدل. وكان إذا بعث رجاله في حرب أوصاهم أن يرفقوا بالناس وأن يكفوا الأذى عن النساء.

وكان شديدًا في محاسبة رجاله حرصًا على العدل والحق، كما كان يفعل عمر. ولو تولى أمور المسلمين في زمن عمر، والناس في دهشة النبوة وصدق التدين؛ لكان نصيبه من الحكم أطول، ولما بدا في تدبيره ضعف، ولكنه تولاها وقد فسدت النيات، وطمع العمال في الأحكام، وأطمعهم وأدهاهم معاوية بن أبي سفيان، فإنه جمع الرجال حوله بالدهاء والحيلة والبذل، وعلي يضيع الأحزاب بتدقيقه في محاسبة عماله وقوَّاده، والمبالغة في المحافظة على الدين وأسباب التقوى، ففارقه جُلة الصحابة حتى ابن عمه عبد الله بن عباس، وكان عاملًا له على البصرة. فوشى به أبو الأسود الدؤلي إلى علي، فكتب علي إلى ابن عباس بذلك ولم يذكر اسم الواشي، فأجابه: «أما بعد فإن الذي بلغك باطل، وإني لما تحت يدي لضابط وله حافظ، فلا تصدق الظنين والسلام». فكتب إليه علي: «أما بعد فأعلمني ما أخذت من الجزية، ومن أين أخذت، وفيما وضعت». فكتب إليه ابن عباس: «أما بعد فقد فهمت تعظيمك مرزاة ما بلغك، إني رزئته من أهل هذه البلاد، فابعث إلى عملك من أحببت فإني ظاعن عنه والسلام»، واستدعى أخواله من بني هلال بن عامر، فاجتمعت معه قيس كلها، فحمل مالًا وقال: «هذه أرزاقنا اجتمعت»، فتبعه أهل البصرة إلى مكة[٢٦] ولم ينتفع علي به ولا بأحزابه فعلي لم يفعل بابن عمه غير ما كان عمر يفعله بعماله، ولكن الأحوال كانت قد تغيرت، وقام معاوية يبتاع الأحزاب بالعطاء ويجتذب القواد بالدهاء.

وزد على ذلك أن رجال عمر كانوا مثله غيرة وحمية. وكانت لا تزال فيهم الأريحية والأنفة وحرية البداوة والوفاء، وجاء الإسلام فكمل الأسباب الباعثة إلى الاتحاد والنهضة والقوة.

---

[٢٥] ابن الأثير ٢٠٤ ج٣.

[٢٦] ابن الأثير ١٩٦ ج٣.

على أن سياسة الراشدين على الإجمال ليست مما يلائم طبيعة العمران، أو تقتضيه سياسة الملك، وإنما هي خلافة دينية وفقت إلى رجال يندر اجتماعهم في عصر، وإلى أحوال يكفي منها الجامعة الإسلامية والحمية الدينية والأنفة البدوية والأريحية العربية. فهذه كلها اجتمعت في عصر واحد وتلاءمت فأتت بالعجائب، فانتشر الإسلام وفتح العالم في بضع عشرة سنة كما هو مشهور[٢٧] فأهل العلم بطبائع العمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب. وإن انقلاب تلك الخلافة الدينية إلى الملك السياسي لم يكن منه بد — سنة الله في خلقه.

(٦) انتشار العرب في الأرض

قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الإسلام في جمع كلمة العرب، وتوثيق عُرى الاتحاد بين قبائلهم وتأكيد العلائق بين منازلهم، فحرضهم على فتح العراق والشام، لعلمه بما هنالك من قبائل العرب. فإذا انضموا إلى عرب الحجاز واليمن زادوا الإسلام قوة. ولكنه منعهم مما وراء ذلك، وأمرهم إذا بنوا بلدًا في دار الفتح أن لا يبنوه في مكان يحول بينه وبين المدينة ماء، خوفًا على الجامعة العربية أن يزداد تباعد أطرافها فتتمزّق، ورغبة منه في استبقاء مركز الخلافة في المدينة دار الهجرة، على أن يستبقي البلاد المفتوحة لاستدرار ما فيها من غلة أو مال لأهل الحجاز؛ ولهذا السبب أيضًا نهى المسلمين عن الزرع وشدَّد في منعهم اعتمادًا على الحديث القائل: «السكة (المحراث) ما دخلت دار قوم إلا دخله الذُّل»[٢٨] ولأن الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب، وهو يريد أن يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة، ولم تكن المدن التي بنوها في صدر الإسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط إلا حصونًا أو معسكرات، ينزل فيها جند العرب نزول الحامية أو جيش الاحتلال؛[٢٩] ولهذا السبب أيضًا أخرج غير المسلمين من جريرة العرب عملًا بوصية النبي ﷺ «أن لا يترك في جزيرة العرب دينان»،[٣٠] وأن لا يأتي الحج أحد من المشركين[٣١]

[٢٧] الجزء الأول من هذا الكتاب.

[٢٨] ابن خلدون ١١٩ ج١.

[٢٩] الجزء الأول من هذا الكتاب.

[٣٠] ابن هشام ١٩٥ ج٢.

[٣١] ابن هشام ٥٠ ج٣.

فأخرجهم وتخلص من خطرهم، إذ لو بقوا هناك على غير دين الإسلام لأقلقوا الراحة، وربما كانوا عونًا لغير المسلمين كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك، كما سترى.

فكانت السياسة في صدر الإسلام أن يبقى المسلمون في بلاد العرب وضواحيها، وكان القواد الذي فتحوا الشام والعراق قد ذاقوا لذة الفتح مع سهولته عليهم، فلم يكفوا عن عمر حتى أذن لهم بفتح ما وراءه ذلك كما تقدم، فكان عمر وهو في المدينة قابضًا على أطراف الدولة يشدها نحوه، ورجاله يحاولون الذهاب بها شرقًا وغربًا، حتى اضطر أخيرًا إلى مجاراتهم وأذن بانسياحهم في الأرض، فتفرق العرب وفتحوا مصر وفارس وأفريقية وغيرها. ولما تولى عثمان أطلق العنان لقريش أن يخرجوا من المدينة، فخرجوا وتفرق العرب في الأرض وانتشروا في مصر والشام والعراق وفارس وما وراءها، وعددهم يومئذ لا يزيد على ٢٠٠٠٠٠ نفس[٣٢] وهم جند المسلمين وعليهم حماية مملكتهم الجديدة واستغلالها، وسكانها يزيدون على مئة مليون ودولة الروم واقفة لهم بالمرصاد.

(٦-١) الاستكثار بالتناسل

كانت العرب في الجاهلية قليلة العدد بالقياس على ما صارت إليه بعد الإسلام. ذكروا أن أكبر جيش اجتمع في الجاهلية لم يزد عدد رجاله على ثمانية آلاف رجل، وهو جيش يوم الصفقة[٣٣] والذين تجندوا للإسلام وقاموا بنصرته كانوا في صدر الإسلام قليلين كما رأيت، ومملكتهم الواسعة تحتاج إلى رجال، فعمدوا إلى الاستكثار بالتناسل، وهو من قواعد العصبية العربية من أيام الجاهلية. فإن عبد المطلب جد النبي، لما ظهرت قريش عليه، نذر لله إذا رزقه عشرة من الولدان يبلغون أن يمنعوه ويذودوا عنه، أن ينحر أحدهم قربانًا لله، فجاءه عشرة أولاد فاشتد أزره بهم.

فالمسلمون لما رأوا قلة عددهم، وما وقع في أيديهم من السبايا الروميات والفارسيات والقبطيات، استكثروا من أمهات الأولاد، فضلًا عن الزوجات، فكثر نسلهم — والترف

[٣٢] ابن خلدون ١٣٦ ج١.

[٣٣] العقد الفريد ٧٨ ج٣.

يزيد الدولة في أولها قوة بكثرة النسل — وتسابقوا إلى إحراز الجواري، حتى إن بعضهم أحصن ثمانين امرأة معًا، كالمغيرة بن شعبة فقد جمع في منزله أربع نسوة و٧٦ أمة[٣٤] فلا غرابة إذا وُلد لأحدهم خمسون ولدًا أو مئة ولد أو أكثر. ذكروا أنه وقع للأرض من صلب المهلب ٣٠٠ ولد[٣٥] وخلف عبد الرحمن بن الحكم الأموي ١٥٠ ذكرًا و٥٠ أنثى[٣٦] وخلف تميم بن المعز الفاطمي أكثر من مئة ذكر و٦٠ أنثى[٣٧] وكان لعمر بن الوليد تسعون ولدًا منهم ستون يركبون الخيل[٣٨] وولد لابن سيرين ٣٠ ولدًا من امرأة و١١ بنتًا[٣٩] وقس على ذلك مما يطول شرحه، وفي التاريخ أدلة كثيرة على قيام الدولة بعصبية الملك من الأولاد والإخوة والأعمام، كالعباسيين والأيوبيين وغيرهم.

(٦-٢) انتشار العرب بالفتح

كان العرب في الجاهلية محصورين في جزيرة العرب وما يجاورها من جزيرة العراق وضواحي الشام. فلما ظهر الإسلام اجتمعت كلمة العرب على نصرته، ونهضوا للفتح وأوغلوا في البلاد وفتحوا الأمصار، ولم يكن زجر عمر ليوقف تيارهم فانساحوا في الأرض، حتى نصبوا أعلامهم على ضفاف نهر الكنج شرقًا وشواطئ المحيط الأطلسي غربًا، وضفاف نهر لوار شمالًا وأواسط أفريقيا جنوبًا، وملأوا الأرض فتحًا ونصرًا، واحتلوا مدائن كسرى وقيصر، وأقاموا في المدن وركنوا إلى الحضارة وتعودوا الترف، واختلطت أنسابهم بتوالي الأجيال وضعفت عصبيتهم فضاعت سلطتهم. والقبائل التي قامت بنصرة الإسلام ونشره قبائل مضر وأنصارها من العدنانية والقحطانية، وإليك أسماء القبائل التي مهدت قواعد الدولة الإسلامية ونشرت الدين الإسلامي بالفتح من أول الإسلام:

[٣٤] الأغاني ١٤٣ ج١٤ والمعارف ١٠٠.

[٣٥] ابن خلكان ١٤٧ ج٢.

[٣٦] نفح الطيب ١٦٤ ج١.

[٣٧] ابن خلكان ٩٩ ج١.

[٣٨] العقد الفريد ٢٥٨ ج٢.

[٣٩] ابن خلكان ٤٥٣ ج١.

من العدنانية		من القحطانية	
مضر	ربيعة	كهلان	حمير
قريش	تغلب بن وائل	الأوس والخزرج	قضاعة وبطونها
كنانة	بكر بن وائل	غسان	كلب
خزاعة	شكر	الأزد	سليح
أسد	حنيفة	همدان	تنوخ
هذيل	عجل	خثعم	بهراء
تميم	ذهل	مذحج	عذرة وغيرها
غطفان	شيبان	مراد	
سليم	تيم الله	زبيد والنخع	
هوازن	النمر بن قاسط وغيرها	الأشعريون	
ثقيف		لخم وكندة	
سعد بن بكر وعامر ابن صعصعة			

على أن هذه القبائل لم تكن في أوائل الفتح تنزل القرى وتختلط بالناس، بل كانت رابطة ثم اختلطوا وتفرقوا في الأرض، وأنفقتهم الدولة الإسلامية العربية، فنبا منهم الثغور القصية وأكلتهم الأقطار المتباعدة، واستلحمتهم الوقائع وضاعت أسبابهم بتوالي الأجيال حتى خرجت الدولة من أيديهم.

(٦-٣) انتشار العرب بالمهاجرة

على أن انتشار العرب في الأرض لم يكن بالفتح فقط، ولكنهم تفرقوا أيضًا بالمهاجرة بأهلهم وخيامهم وأنعامهم، التماسًا لسعة العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة. فقد جلت بطون من خزاعة إلى مصر والشام في صدر الإسلام؛ لأن أرضهم

أجدبت فمشوا يطلبون الغيث والمرعى[40] وكذلك كانت تفعل العرب كلما أصابها جدب، حتى كانت لهم أعوام خاصة يجلون فيها إلى مصر والشام، يسمونها أعوام الجلاء[41] وكانوا يفعلون ذلك قبل الإسلام: إذا أجدبت أرضهم يمموا العراق وفارس، فيعطيهم الفرس التمر والشعير، ولكنهم كانوا لا يقيمون هناك بل يرجعون إلى بلادهم[42] خوفًا من الذل في سلطان دولة أعجمية. أما بعد الإسلام فكان المقام يطيب لهم في بلاد فتحها آباؤهم أو أعمامهم أو أخوالهم، وغرسوا عليها أعلامهم وجعلوها فيئًا لهم.

على أن الغالب في نزوح العرب عن أحيائهم وانتجاعهم المدن أو أكنافها، أن يكون بإيعاز بعض الخلفاء أو الأمراء، وخصوصًا بعد رجوع العرب إلى عصبية النسب بين قحطان وعدنان، أو مضر وقيس في عهد الدولة الأموية. فكان الأمير أو الخليفة إذا تولَّى بلدًا وخاف على سلطانه من أمير آخر ذي عصبية أخرى، استقدم جماعة من قبيلته، أو من ينتمي إليها بالحلف ونحوه، يُسكنهم في ضواحي بلده لاستنصارهم عند الحاجة، فيطلق لهم المرعى ويفرض لهم العطاء، كما حدث في ولاية الوليد بن رفاعة على مصر في خلافة هشام بن عبد الملك الأموي، وكان هشام يقرب قبيلة قيس (العدنانية)؛ لأنهم نصروه وأيَّدوا خلافته، ولم يكن منهم في مصر إلا بعض البطون، وقيس قبيلة كبيرة تحتها عدة قبائل وبطون وأفخاذ، وأول من نبَّه هشام إلى نقلهم عبيد الله بن الحبحاب، فإنه وفد عليه فسأله أن ينقل إلى مصر منهم أبياتًا، فأذن له في إلحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم إلى مصر، أي: أن يقبضوا رواتبهم من حكومة مصر، على أن لا ينزلهم في الفسطاط، فأنزلهم في الحوف الشرقي (الشرقية والدقهلية) ولا سيما في بلبيس وأمرهم بالزرع،[43] ثم تقاطروا بعد ذلك وتكاثروا فيها.

[40] الأغاني ٦ ج١٣.

[41] الأغاني ٤٧ ج١١.

[42] ابن الأثير ٢٢٨ ج٢.

[43] المقريزي ٨٠ ج١.

(٦-٤) بنو سليم وبنو هلال

وقد يكون الباعث على استقدامهم وإقرارهم رغبة الأمير أو الخليفة في التخلص من شرهم، كما فعل العزيز بالله الفاطمي ببني سليم وبني هلال، وهما بطنان من مضر، كان رجالهما إلى زمن العزيز المذكور في القرن الرابع للهجرة لا يزالون أحياء ناجعة أهل بادية، محلاتهم وراء الحجاز مما يلي نجد: بنو سليم من جهة المدينة، وبنو هلال من جبل غزوان عند الطائف فكانوا يطوفون رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام، فيغيرون على الضواحي ويفسدون السابلة، وربما أغار بنو سليم على الحاج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة. ثم ظهر القرامطة فتحيز بنو سليم لهم، وعاثوا في البلاد، وقد عجز الخلفاء العباسيون عن قمعهم. فلما أفضت خلافة مصر إلى العزيز بالله الفاطمي، كان القرامطة قد تغلبوا على الشام، فانتزعها العزيز منهم وردهم إلى قراهم في البحرين، ونقل أشياعهم من بني هلال وسليم وأنزلهم بالصعيد، في العدوة الشرقية من نهر النيل، فأقاموا هناك. وكان لهم أضرار في البلاد، والخلفاء يدارونهم ويبحثون عن وسيلة يتخلصون بها منهم. فاتفق بعد سنين أن المعز بن زيري عامل الفاطميين في أفريقية، شق عصا الطاعة وبايع للدولة العباسية، وقطع اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة والطراز والرايات، فعظم الأمر على الخليفة بالقاهرة، وهو يومئذ المستنصر بالله، فأشار عليه وزيره أبو محمد الحسن بن علي اليازوري، أن يقرب إليه أحياء هلال وسليم المذكورين، ويصطنع مشايخهم ويوليهم أعمال أفريقية، ويرسلهم لاستلام أمورها، فإذا فازوا كانت إحدى الحُسنيين، وإلا فإنه يتخلص من شرهم. فبعث الخليفة وزيره إلى هذه الأحياء سنة ٤٤١هـ وحرَّضهم على الذهاب إلى المغرب وتملكه، ففرحوا وأجازوا النيل وساروا برًّا إلى برقة ففتحوها. ثم تبعهم غيرهم من بطون دياب وزغب طمعًا في الكسب، وأصبحت أفريقية مقر هذه القبائل من ذلك الحين، فاقتسموا البلاد فيما بينهم.[٤٤]

وقس على ذلك ما كان من انتقال العرب المسلمين إلى الأندلس بعد إتمام فتحها، إذ صرف عرب الشام وغيرهم الهمم إلى الحلول بها لخصبها وطيب هوائها، فنزل بها من أصول العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم، وفيهم قبائل من العدنانية

---

[٤٤] ابن خلدون ١٤ ج٦.

والقحطانية[٤٥] وكل قبيلة كانت تنزل البلد الذي يشبه بلدها بإقليمه ومرعاه. ناهيك بما كان يتنقل من القبائل أو البطون في أثناء الحروب في عصر الأمويين للنجدة أو نحوها.

(٧) العبيد والموالي في الإسلام

للعبيد والموالي شأن كبير في الدولة الإسلامية، وقد أثروا في سياستها وجندها وفي سائر أحوالها من العلم والأدب والفقه، فلا غرو إذا أفردنا الكلام عنهم فصولًا خاصة.

(٧-١) الرق في الإسلام

قلنا: إن الاسترقاق عند العرب الجاهلية كان أكثره بالأسر أو الشراء، وأما في الإسلام فأكثر الاسترقاق بالأسر، وخصوصًا في أثناء الفتوح لكثرة من كان يقع في أيديهم من الأسرى. فإذا غلبوا جندًا أو فتحوا بلدًا، أسروا رجاله وسبوا نساءه وأطفاله، واقتسموا الأسرى والسبايا والغنائم، وهي كثيرة ربما زاد عدد الأسرى في المعركة الواحدة على عشرات الألوف، فيختمون أعناقهم ويقسمونهم على الأسهم، وقد يصيب الفارس من العرب مائة أسير ومائة جارية في واقعة واحدة، فيجتمع عند بعضهم بتوالي الأيام ألف عبد أو أكثر[٤٦] وهم عند الأمراء أكثر مما عند غيرهم، وقد تزايدوا على الخصوص بعد عصر الراشدين. على أن الخليفة عثمان كان عنده ألف عبد.[٤٧]

والغالب في الأسرى إذا كانوا كثارًا أن يباعوا بالجملة قبل تفريق الأسهم، فينادون على الأسير بمائة درهم وأقل أو أكثر، وربما اقتضى لبيع أسرى معركة واحدة عدة أشهر. ومن أكثر الفتوح أسرى وغنائم فتوح الأندلس، فقد ذكروا أنهم ظلوا يبيعون الأسرى والغنائم بعد معركة هناك ستة أشهر[٤٨] وتكاثرت الأسرى على المسلمين بعد واقعة عمورية، حتى نادوا على الرقيق خمسة وعشرة عشرة للسرعة[٤٩] وكثرت

[٤٥] نفح الطيب ١٣٧ ج١.

[٤٦] ابن الأثير ١٤٧ ج٤.

[٤٧] الدميري ٤٩ ج١.

[٤٨] نفح الطيب ٢١٣ ج١.

[٤٩] ابن الأثير ١٩٩ ج٦.

الأسرى والغنائم عليهم في واقعة الأرك بالأندلس، حتى بيع الأسير بدرهم والسيف بنصف درهم.[٥٠]

على أنهم كانوا يعدُّون البلد المفتوح عنوةً ملكًا للفاتحين، بما فيه من الناس والدواب والبساتين والأنهار والأشجار، وقد تمسك بنو أمية بذلك وبالغوا فيه، كقول سعيد بن العاص: «السواد بستان قريش»، وقول عمرو بن العاص لصاحب خربتا: «إن مصر فُتحت عنوة وأهلها عبيدنا ندير عليهم كيف شئنا».[٥١]

والغالب في عامة الجند من المسلمين أن يبيعوا أسراهم ويحرزوا أثمانهم، لعجزهم عن القيام بمعاشهم، فلم يكن يستبقي الأسرى في حوزته عبيدًا إلا الأمراء، حتى يفتديهم أهلهم أو يعتقهم هو لسبب من الأسباب.

ومن مصادر الرقيق في الإسلام — غير الأسر — أن بعض العمال، وخصوصًا في أفريقية وتركستان ومصر، كانوا يؤدون بعض خراج أعمالهم من الرقيق[٥٢] وكان بعض أهل الذمة من البربر ونحوهم يقدمون بدل الجزية رقيقًا من أولادهم[٥٣] غير ما كان يقع في أيدي المسلمين من الرقيق الأصلي في جملة الغنائم.

أما أحكام الأسرى في الإسلام فالخليفة (أو من يقوم مقامه) مخير بين أربعة أشياء: إما القتل، وإما الاسترقاق، وإما الفداء بمال أو أسرى، وإما المن عليهم بغير فداء، فإن أسلموا سقط القتل وكان الخليفة على خياره في أحد الثلاثة الباقية،[٥٤] فكانوا يتصرفون في ذلك على ما تقتضيه الأحوال.

ومن ملك رقيقًا بالأسر أو الشراء أو غير ذلك كان مخيرًا في استبقائه أو بيعه أو المن عليه بالعتق، ومن أعتق عبدًا صار مولاه. وللعتق أسباب كثيرة، أهمها في الإسلام إظهار التقوى أو الغيرة على الدين، فإذا أسلم العبد وأظهر التقوى أطلقه سيده، فقد أعتق عبد الله بن عمر بن الخطاب على هذه الصورة ألف عبد[٥٥] وأعتق محمد بن سيلمان

[٥٠] نفح الطيب ٢٠٩ ج١.

[٥١] ابن الأثير ٢٧٩ ج٢.

[٥٢] المقريزي ٣١٣ ج١.

[٥٣] ابن الأثير ١٣ ج٣.

[٥٤] الماوردي ١٢٥.

[٥٥] ابن خلكان ٢٤٧ ج١.

٧٠٠٠٠ مملوك ومملوكة، وقد يعتقونهم فداءً عن يمين، أو وفاءً لنذر، أو التماسًا للثواب، أو شكرًا لله على نعمه، أو نحو ذلك. وكان بعض أهل الورع يبتاعون العبيد ويعتقونهم ابتغاء مرضاة الله. وأقسم عمر بن أبي ربيعة لما أسن أن لا يقول بيت شعر إلا أعتق رقبة، وقد نظم وبرَّ بقسمه غير مرة،[٥٦] وكانوا يعتقون العبيد ترغيبًا لهم في الجهاد، كما فعل الجنيد بن عبد الرحمن المري صاحب خراسان بهشام بن عبد الملك في واقعة الشعب، لما احتدم الوطيس وخاف الجنيد الفشل، فصاح في العبيد: «أي عبد قاتل فهو حر»، فقاتل العبيد قتالًا أُعجب منه الناس وانهزم الأعداء،[٥٧] وكثيرًا ما كانوا يرغِّبون العبيد في نصرة الإسلام وهم عند أعدائهم بأن يعدوهم بالعتق، كما فعل النبي ﷺ يوم حصار الطائف، إذ قال: «كل عبد نزل إلي فهو حر»،[٥٨] وكما فعل المسلمون في بعض البلاد التي فتحوها، فكانوا يعدون عبيدها بالعتق إذا أسلموا، فيدخل بعضهم في الإسلام على نية أن يرجعوا عنه بعد ذهاب الحرب، ولكنهم لما أرادوا ذلك عدهم المسلمون مرتدين فحل حربهم.

على أن الإسلام جاء رحمةً للأرقاء، فأوصى النبي بهم خيرًا بقوله: «لا تحملوا العبيد ما لا يطيقون، وأطعموهم مما تأكلون»[٥٩] وقال: «لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي».

وفي القرآن الكريم: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾. والإسلام من الجهة الأخرى يحرض العبد على التقوى وحسن العبادة[٦٠] وقد اختص العرب المسلمين بالنجاة من الرِّق والسَّبي بقول الأئمة: «لا سبأ في الإسلام، ولا رق على عربي في الإسلام». ومن أحكام العبيد عندهم أن يُعاملوا معاملة نصف الحر، فالعبد إذا أذنب ضرب نصف ما يضرب الحر[٦١] وإذا أحسن كانت جائزته لمولاه، والأسرى الذين يقعون في أيدي العرب

[٥٦] الأغاني ٦٤ ج١.
[٥٧] ابن الأثير ٧٨ ج٥.
[٥٨] المعارف ٩٧.
[٥٩] المقريزي ١٣٧ ج١.
[٦٠] البخاري ٥٩ ج٢.
[٦١] الأغاني ١٥٢.

بالفتوح من أهل البلاد المفتوحة فيهم النصراني واليهودي والمجوسي والصابي والسامري وغيرهم، فهؤلاء إما أن يفتديهم أهلهم، أو يبيعهم المسلمون لبعض تجار الرقيق، أو يستبقوهم في خدمتهم لقضاء حاجات المنازل، أو رعاية الإبل أو الماشية، أو لبري القسي ورمي النبل أو جمع النبال المتساقطة وقت القتال، أو لرواية الشعر أو حفظ القرآن أو الحديث أو غير ذلك. فكانت قيمة العبد تختلف باختلاف نوع صناعته، فالعبد الذي لا يعرف صناعة يساوي مائة دينار، فإذا كان راعيًا للإبل يحسن القيام بها يقدرون قيمته بـ ٢٠٠ دينار، فإذا كان عارفًا بصناعة النبل والقسي يباع بأربعمائة دينار، فإذا كان يحسن رواية الشعر صارت قيمته ٦٠٠ دينار. تلك أثمان العبيد في أواسط دولة بني أمية.[٦٢]

وأما القن فهو العبد الذي يشتغل في الأرض، وهو خاص بالقرى، ويسمى المزارع المقيم «فلاحًا قرارًا»، فإذا أقطعت أرضه، أو بيعت لأحد، أو دخلت في ملك أحد بالفتح أو غيره، كان الفلاح تبعًا لها وصار «عبدًا قنا»، إلا أنه لا يرجو أن يباع أو يعتق، ولا يستطيع مولاه ذلك لو أراد، بل هو قنٌّ ما بقي حيًّا، وكذلك أولاده بعده، فإنهم يكونون عبيدًا لمالك الأرض أو مقتطعها، وقد أشرنا إليه في كلامنا عن العبيد في الجاهلية.

(٧-٢) الموالي في الإسلام

والباقون في الأسر إذا اعتنقوا الإسلام نجوا من الرِّق غالبًا، إذ يغلب أن يعتقوهم مكافأة لهم، ومن أعتق منهم صار مولى؛ ولذلك كان الموالي من المسلمين غير العرب، استنكافًا من استرقاق المسلم، ثم أطلقه بنو أمية على كل مسلم غير عربي، فإذا قالوا: «الموالي» أرادوا المسلمين من الفرس وغيرهم الذين كانوا مجوسًا أو ذميين واعتنقوا الإسلام، أو كانوا ممن لازم العرب أو التجأوا إليهم، ويسمونهم «الحمراء» فإذا قالوا: «الحمراء» أرادوا الموالي. والحمراء في القاموس العجم، وهم كل من سوى العرب.

وأصبح الموالي في الإسلام طبقة خاصة من طبقات الهيئة الاجتماعية، كان لها شأن عظيم في تاريخ الإسلام، ويمكن اعتبارهم من قبيل العصبية العربية، لقول النبي ﷺ: «مولى القوم منهم»[٦٣] وقوله: «من ادَّعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة

---

[٦٢] الأغاني ١٣٣ ج١.

[٦٣] العقد الفريد ١١١ ج٢.

الله والملائكة والناس أجمعين»[٦٤] وأهل الرجل عند العرب الموالي والذراري. ويثق الرجل بمولاه كما يثق بابنه؛ لأنه لم يعتقه إلا حبًّا فيه، والموالي يعد عتقه منة لمولاه عليه، فيترك نسبه إلى أهله وينتسب إلى مولاه، فيقال: فلان مولى فلان ولا يقال: ابن فلان. أو ينتسب إلى قبيلته فيقال مثلًا: ابن سريج مولى بني نوفل، ومحرز مولى عبد الدار، وحكم الوادي مولى الوليد بن عبد الملك، وابن عياد مولى بني مخزوم، وقس عليه؛ ولذلك كانت رابطة المولى بمولاه وثيقة، وخصوصًا من يعيش من الموالي في بيت مواليهم، ولكن الغالب أن يخرجوا لعمل يعملونه، حتى إذا انتشبت حرب اجتمعوا تحت لوائهم.

وللموالي فضل كبير في الإسلام؛ لأن معظم الحفاظ وأهل التفسير واللغة والشعر وسائر العلماء وأكثر التابعين منهم، لاشتغال العرب عن هذه العلوم بالسياسة والسيادة والتنازع على السلطة[٦٥] ومعظم الموالي الذين خدموا العرب في صدر الإسلام من بقايا الفيء والغنائم في فارس وغيرها. وأكثرهم كانوا غلمانًا في جملة السبي، فربوا في الإسلام ونبغوا فيه أو نبغ أولادهم — منهم أربعون غلامًا كانوا يتعلمون الإنجيل في عين التمر لما فتحها خالد بن الوليد، فغنمهم وبعثهم إلى أبي بكر بالمدينة ففرقهم في أهل البلاد من جملة الغنائم، فاعتنقوا الإسلام وأعتقهم مواليهم فنبغ من أولادهم جماعة كانوا عونًا كبيرًا للمسلمين في السياسة والحرب والعلم والدين، منهم موسى بن نصير فاتح المغرب والأندلس فإن أباه منهم، وحمران مولى عثمان بن عفان[٦٦] وأيضًا محمد بن إسحق صاحب المغازي والسير، فإن جده يسار منهم[٦٧] وقس على ذلك سائر مشاهير الموالي الذين أصلهم من السبي في أثناء الفتح أو بعده.

فأبو صفر من سبى دبا في أيام أبي بكر، وحماد الراوية أصل أبيه ديلمي من سبي مكنف بن زيد الخيل[٦٨] وسائب خاثر أصله من فيء كسرى، ومروان بن أبي حفصة الشاعر الشهير أصله يهودي من سبي اصطخر[٦٩] والهروي اللغوي المشهور أسير وقع

[٦٤] ابن هشام ٧٧ ج٣ والبيان والتبيين ١٦٤ ج١.

[٦٥] الجزء الثالث من هذا الكتاب.

[٦٦] ابن الأثير ١٩٢ ج٢.

[٦٧] ابن خلكان ٤٨٣ ج١ والمعارف ١٦٨.

[٦٨] المعارف ١٢٠ ج٩.

[٦٩] الأغاني ٣٦ ج٩.

في سهم عرب نشأوا في البادية[٧٠] وابن الأعرابي سندي الأصل، وأبو دلامة كوفي أسود كان عبدًا لرجل من بني أسد فأعتقه[٧١] وقل نحو ذلك عن سائر حملة العلم في الإسلام.

وقد يكون المولى من أصل رفيع واسترقه الأسر ولم يتوفق له الفداء، فإن بعض موالي المنصور من أولاد المرازبة[٧٢] وأبو علي بن بذيمة الذي يروى عنه، وأبو زهير جد المطلب بن زياد أصلهما من أبناء الأكاسرة، وقعا في الأسر يوم المدائن فأهداهما سعد الفاتح إلى سمرة بن جنادة الصاحبي فأعتقهما ابنه جابر.[٧٣] وانتقى أبو موسى الأشعري ستين غلامًا من أولاد الدهاقين من سبي بيروذ بفارس، وفرق بعضهم في المسلمين، غير الذين افتداهم أهلهم.[٧٤]

وكان للخلفاء والأمراء ثقة كبرى بمواليهم، يعهدون إليهم بكل شؤونهم، فأكثر حجاب الخلفاء الراشدين من مواليهم، لا فرق في أن يكون أصلهم فارسيًّا أو ديلميًّا أو حبشيًّا أو روميًّا، فموالي أبو بكر أولهم بلال بن رباح كان عبدًا حبشيًّا لرجل من مكة، اشتراه أبو بكر بخمس أواق وأعتقه. وهو أول من أذن في المدينة، وكان له مقام رفيع في الإسلام، وكذلك عامر بن فهيرة، وأبو نافع ومرة بن أبي عثمان وغيرهم[٧٥] وقس على ذلك موالي عمر وعثمان وعلي وغيرهم من الخلفاء وكبار الصحابة. وكلهم يستهلكون في سبيل مواليهم؛ لاعتقادهم الفضل لهم عليهم، وفي التاريخ شواهد كثيرة من هذا القبيل على اختلاف الأعصر — من ذلك أن محمد بن يزيد المهلبي، لما نشبت الفتنة بين الأمين والمأمون، كان هو من حزب الأمين، وأراد أن يحفظ له الأهواز من أصحاب طاهر بن الحسين قائد جند المأمون فباغته طاهر بجنده قبل أن يتحصن وضايقه، فالتفت المهلبي المذكور إلى مواليه وقال لهم: «ما رأيكم؟ إني أرى من معي قد انهزم، ولست آمن خذلانهم ولا أرجو رجعتهم، وقد عزمت على النزول والقتال بنفسي حتى يقضي الله بما أحب، فمن أراد الانصراف فلينصرف، فوالله لأن تبقوا أحب إليَّ من أن تموتوا».

---

[٧٠] ابن خلكان ٥٠١ ج١.

[٧١] الأغاني ١٢٠ ج٩.

[٧٢] الأغاني ٨٢ ج٢٠.

[٧٣] المعارف ١٠٣.

[٧٤] ابن الأثير ٢٣ ج٣.

[٧٥] المعارف ٥٨.

فقالوا: «والله ما أنصفناك إذن ... تكون قد أعتقتنا من الرق، ورفعتنا من الضعة، وأغنيتنا بعد القلة، ثم نخذلك على هذا الحال؟ فلعن الله الدنيا والعيش بعدك؟». ثم نزلوا فعرقبوا دوابهم واستقتلوا بين يديه.[٧٦]

على أن المولى لا يزال أحط مقامًا من العربي. وكان الموالي في صدر الإسلام يتولون كثيرًا من مصالح الدولة التي تفتقر إلى أمانة وثقة، فضلًا عن العلم والدين. ولهم الرواتب السنية[٧٧] لكنهم كانوا محرومين من المناصب الرفيعة التي تحتاج إلى شرف وعصبية، كالقضاء مثلًا، فإنهم كانوا يعدونه فوق مرتبتهم، فإن عمر بن عبد العزيز لما أراد أن يولي مكحولًا القضاء أبى وقال: «قال النبي: لا يقضي بين الناس إلا ذو الشرف في قومه، وأنا مولى».[٧٨]

[٧٦] ابن الأثير ١٠٦ ج٦.

[٧٧] الأغاني ١٦٣ ج١٠.

[٧٨] العقد الفريد ٨ ج١.

سياسة الدولة في عهد الأمويين

من سنة ٤١–١٣٢هـ

قد رأيت مما تقدم أن سياسة الدولة في أيام الراشدين إنما كان قوامها الجامعة العربية، وعمادها العدل والرفق والأريحية، ففتحوا العالم وأسسوا الدولة الإسلامية، وأخضعوا معظم المعمور في بضع وعشرين سنة، ووجهتهم دينية وسلاحهم التقوى والحق، والعمل بالكتاب والسنة، وغايتهم نشر الدين والتماس الثواب في الآخرة، وحكومتهم بالانتخاب والشورى، وسترى في سياسة بني أمية ما يخالف ذلك من كل الوجوه.

(١) انتقال الخلافة إلى الأمويين

لما طمع بنو أمية في الخلافة، كانت قد أفضت إلى علي بن أبي طالب صهر النبي وابن عمه، والمسلمون يعتقدون أنه أحق الناس بها، لقرابته من النبي وتقواه وشجاعته وعلمه، وسابقته في الإسلام وفضله في تأييده. فتصدى له معاوية بن أبي سفيان، وكان أبوه وإخوته من أشد الناس مقاومة للإسلام عند ظهوره، ولم يسلموا إلا بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، وإنما أقدموا على ذلك مضطرين، لما رأوا الإسلام قد تأيد في جزيرة العرب ولم يبق سبيل إلى مقاومته.

وكان أبو سفيان والد معاوية زعيم أهل مكة، وقد حارب النبي في عدة أمكان. وجاهر بعداوته وطعن فيه. فلما ظفر المسلمون في غزواتهم، واشتد آزرهم وهموا بفتح مكة ومشوا حتى أقبلوا عليها، كان أبو سفيان وبعض كبراء قريش قد خرجوا منها

يتجسسون. فلقيهم العباس عم النبي، فقال له أبو سفيان وقد أسقط في يده: «لقد أصبح أمر ابن أخيك عظيمًا»، فأشار عليه العباس أن يستأمن، فلم ير له حيلة في غير ذلك فاستأمن، ثم فتحت مكة ولم يكن له بد من الإسلام فأسلم هو وأولاده وفيهم معاوية، وقد تألفهم النبي بالعطاء ليثبتوا في إسلامهم.[١]

المنافسة بين بني أمية وبني هاشم

والسبب في طلب معاوية للخلافة متصل بالجاهلية. وذلك أن بني عبد مناف هم أشرف بطون قريش وأكثرهم عددًا وقوةً، وهم فخذان: بنو أمية وبنو هاشم، وكان بنو أمية أكثر عددًا من بني هاشم وأوفر رجالًا، وكان لهم قبل الإسلام شرف معروف انتهى إلى حرب بن أمية والد أبي سفيان وجد معاوية. وكان حرب المذكور رئيسهم في واقعة الفجار قبل الإسلام، وله جاه وشوكة في الفخذين جميعًا، فلما جاء الإسلام، والنبي من بني هاشم شق ذلك على بني أمية وكانوا من أقوى الساعين في مقاومته، فلم يفلحوا ولكنهم حملوا النبي على الهجرة من مكة إلى المدينة، وقد نصره الأنصار هناك وهم من القحطانية حتى استتبَّ له الأمر، وقد مات عمه أبو طالب وهاجر بنوه مع النبي إلى المدينة. ثم لحقهم أخوه حمزة ثم العباس وغيره من بني عبد المطلب وسائر بني هاشم، فخلا الجو لبني أمية في مكة، واستغلظت رياستهم في قريش، وزادت سطوتهم بعد واقعة بدر؛ إذ هلك فيها عظماء قريش من سائر البطون. فاستقل أبو سفيان بشرف أمية بمكة والتقدم في قريش، وكان رئيسهم في واقعة أحد وقائدهم في واقعة الأحزاب وما بعدها. فلما استفحل أمر المسلمين وفتحوا مكة واستأمن أبو سفيان كما تقدم، رأى النبي من حسن السياسة أن يمن على قريش كافة بعد أن ملكهم بالفتح عنوة، فمَنَّ عليهم وأطلق سبيلهم وقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» وفيهم معاوية، فأسلموا جميعًا.

فلما مات النبي وتولى الخلافة أبو بكر، جاء القرشيون ومعظمهم من بني أمية، وشكوا إليه ما وجدوه في أنفسهم من التخلف عن رتب المهاجرين والأنصار، فقال لهم أبو بكر: «لقد جئتم الإسلام متأخرين، فأدركوا إخوانكم في الجهاد»، فجاهدوا في حروب الردة. ولما تولى عمر بن الخطاب أدرك ما في نفوسهم، فخاف بقاءهم في المدينة، فرمى

[١] الجزء الأول من هذا الكتاب.

بهم الروم ورغبهم في الشام، فاستعمل يزيد بن أبي سفيان عليها، فانتقل معه سائر قريش، واستطابوا فاكهة الشام فأقاموا فيها حتى توفي يزيد المذكور، فولى عمر مكانه أخاه معاوية. ولما تولى عثمان سنة ٢٣هـ أقر معاوية على الشام، فاتصلت رياسة بني أمية على قريش في الإسلام كما كانت في الجاهلية، وبنو هاشم مشتغلون بالنبوة وقد نبذوا الدنيا.

معاوية وعلي

وكان بنو أمية ينظرون إلى ما ناله بنو هاشم بالنبوة من السلطان والجاه، ويتوقعون فرصة للقبض على أزمة الملك. فلما قتل عمر بن الخطاب وأمر بالشورى، اختار الصحابة عثمان بن عفان وهو من بني أمية، ولا يخلو فوزهم بهذا الانتخاب من دسيسة أموية، وكان عثمان ضعيفًا يؤثر ذوي قرابته في مصالح الدولة، فاغتنم الأمويون ضعفه وتولوا الأعمال واستأثروا بالأموال، فشق ذلك على سائر الصحابة فنقموا عليه، ثم استشهد بعد ذلك على ما هو معروف.

فاتخذ الأمويون قتله ذريعة للقبض على الخلافة، ورئيسهم معاوية بن أبي سفيان عامل عثمان على الشام ومعه رجال قريش. وكان أهل المدينة قد بايعوا علي بن أبي طالب، وجمهورهم الأنصار. فأصبح المسلمون يومئذ حزبين رئيسيين:

(١) الأنصار ويريدون الخلافة لأهل بيت النبي ﷺ جريًا على نصرتهم إياه يوم هجرته.

(٢) بنو أمية في الشام ويطلبونها لمعاوية ابن زعيمهم في الجاهلية.

وجمهور الصحابة يرون الحق لعلي، فلم ير معاوية سبيلًا إلى نيل بغيته إلا بالدهاء والتدبير. وكان أدهى أهل زمانه بلا منازع. فنظر في الأمر نظرة رجل يطلب الملك كما يطلبه أهل المطامع وطلاب السيادة في كل عصر بلا علاقة بالدين. وقد ساعده على ذلك أن خصمه عليًّا كان يعتبر الخلافة منصبًا دينيًّا، وهو زاهد في الدنيا لا مطمع له في غير الثواب والحسني. وإن رجال معاوية قد ذهبت منهم حرمة الدين، ونسوا دهشة النبوة وذاقوا لذة الثروة وتعودوا السيادة فاتسعت مطامعهم، فأثمرت مساعي معاوية في اصطناع الأحزاب بقاعدة ذكرها في حديث دار بينه وبين عمرو بن العاص: إذ قال

معاوية: «لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت»، فقال عمرو: «وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟»، قال: «إن هم شدوا أرخيت، وإذا أرخوا شددت».

فأول شيء فعله معاوية أنه استعان بثلاثة من كبار الصحابة يعدهم المؤرخون أدهى رجال العرب — ومعاوية أدهاهم جميعًا — وهم: عمرو بن العاص، وزياد بن أبيه، والمغيرة بن شعبة. ولولاهم لم يستتب له الأمر؛ لأن ابن العاص احتال في نجاته من واقعة صفين، بعد أن كادت الدائرة تدور عليه، إذ ظهرت جيوش عليّ على جيوشه، فأشار عليه عمرو بن العاص أن يرفع المصاحف لإيقاف الحرب، ثم أشار بالتحكيم وخدع أبا موسى الأشعري نائب علي في ذلك التحكيم فخلع عليًّا وبايع معاوية. ونال عمرو في مقابل ذلك ولاية مصر طعمة له طول العمر.[٢] وزياد بن أبيه رجل لا يُعرف له أب، فلما رأى معاوية دهاءه قربه منه وادَّعى أنه أخوه، واستلحقه بنسبه وسماه زياد بن أبي سفيان، في حديث طويل ذكرنا خلاصته فيما تقدم. واستلحاق زياد أول عمل ردت به أعلام الشريعة الإسلامية علانية[٣] وكان زياد عونًا كبيرًا لمعاوية في حفظ العراق وفارس. أما المغيرة بن شعبة فهو أول من ضرب الزيوف في الإسلام وأول من رشى[٤] وهو الذي حرض معاوية على مبايعة ابنه يزيد، وجعل الخلافة وراثية في نسله وساعده على ذلك.

فهؤلاء وغيرهم من كبار القواد اكتسب معاوية مساعدتهم بالدهاء والأطماع، فأطعم ابن العاص مصر، وأطعم المغيرة فارس، وجعل زيادًا أخاه، وكان يتساهل في محاسبة عماله ويغضي عن سيئاتهم[٥] ويبالغ في إكرامهم. ولو رأوا من علي بعض ذلك لكانوا معه، ولكن عليًّا كان دقيقًا في محاسبتهم، متصلبًا في رأيه لا يحيد عما يقتضيه ضميره — كذلك كان يفعل أبو بكر وعمر، ولكن المسلمين كانوا في أيامهما لا يزالون في إبان الحمية الدينية والأريحية العربية، ينصاعون لأوامر خليفتهم بكلمة؛ ولذلك عدوا تصرف علي ضعفًا منه. فلما رأوا ضعفه انحازوا إلى معاوية بعد أن كانوا معه، وأولهم المغيرة بن شعبة، فهذا جاء عليًّا يوم بويع ومعاوية واقف له بالمرصاد، فأشار عليه أن يحاسن

[٢] المقريزي ٣٠٠ ج١.
[٣] ابن الأثير ٢٢٥ ج٣.
[٤] المعارف ١٨٩.
[٥] ابن الأثير ٢٦٠ ج٣.

معاوية ولا يعزله عن عمله في الشام، ريثما يستتب له الأمر فيعزله إذا شاء، فلم يطعه علي، فعاد إليه في اليوم التالي وخادعه، وأشار عليه أن يعزل معاوية ويفعل كما يشاء، ثم انحاز المغيرة إلى معاوية وصار من أكبر أنصاره.

وقس على ذلك تصرف علي مع ابن عمه عبد الله بن عباس، وكيف كدره وأخرجه من حوزته بتدقيقه كما تقدم. ولما قتل علي خلفه ابنه الحسن، فرأى نفسه عاجزًا عن منازلة معاوية، فتنازل له عن الخلافة سنة ٤١هـ، فرسخت قدم معاوية فيها. وسار بنو أمية بعده على خطته، وسار العلويون على خطة علي، وكان الفوز دائمًا لأهل الدهاء، فقضى العلويون معظم أيامهم خائفين شاردين، ومات أكثرهم قتلًا مع أنهم أهل تقوى ودين وحق، وأولئك على الضد من ذلك — مما يدلك على أن السياسة والدين لا يلتحمان إلا نادرًا، وما التحامهما أيام الراشدين إلا فلتة قلما يتفق مثلها. على أننا لا نعد دولة الراشدين حكومة سياسية، وإنما هي خلافة دينية.

(٢) رغبة بني أمية في السيادة

إن المحور الذي كانت تدور عليه سياسة بني أمية، والغرض الذي كانوا يرمون إليه، إنما هو إحراز الخلافة والرجوع إلى السيادة التي كانت لهم في الجاهلية، بقطع النظر عن وعورة المسالك المؤدية إلى ذلك، أو وخامة الأسباب التي تمسكوا بها. وقد فازوا بغايتهم، فاتسعت المملكة الإسلامية في أيامهم واشتدت شوكتها، ما لم تبلغ إليه دولة العباسيين بعدها.[٦] وكانوا يطلبون السلطة على أن لا يشاركهم فيها أحد، وكان أشدهم فتكًا عبد الملك بن مروان يقول: «لا يجتمع فحلان في أجمة».[٧]

فرغبة بني أمية في السلطة على هذه الصورة، مع وجود من هو أحق منهم بها، جرهم إلى ارتكاب أمور آلت إلى توجيه المطاعن إليهم. وقد ظهرت هذه الدولة وتغلبت على سائر طلاب الخلافة في أيامهم بشيئين: العصبية القرشية، واصطناع العصبيات أو الأحزاب الأخرى، وهما أساس كل ما ظهر من سياسة بني أمية كما سترى.

---

[٦] الفخري ٢٥.

[٧] ابن الأثير ٩١ ج٦.

(٣) العصبية العربية في عصر الأمويين

(٣-١) العرب وقريش

كانت العصبية العربية في الجاهلية بين القبائل بحسب الأنساب، فلما جاء الإسلام تنوسيت تلك العصبية، واجتمع العرب كافةً باسم الإسلام أو الجامعة الإسلامية، وما زالت الجامعة الإسلامية تشمل العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم طول أيام الخلفاء الراشدين. حتى إذا طمع بنو أمية في الملك، وقبضوا على أزمة الخلافة، استبدوا وتعصبوا للعرب، وحافظوا على مقتضيات البداوة وتمسكوا بعاداتها، فظلت خشونة البادية غالبة على حكومتهم وظاهرة في سياستهم، مع ذهاب مناقب البدو التي ذكرناها. وإنما حفظوا من أحوال جاهليتهم تعصبهم لقبيلتهم «قريش»، وإيثار أهلهم على سواهم. فجاشت عوامل الحسد في نفوس القبائل التي كان لها شأن في الجاهلية وضاع فضلها في الإسلام، وخصوصًا أهل البصرة والكوفة والشام؛ لأن أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأمصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي ﷺ، ولا هذبتهم سيرته ولا ارتاضوا بخلقه، مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها، فلما استفحلت الدولة إذا هم في قبضة المهاجرين والأنصار، من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب، فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم، ومصادمة فارس والروم، مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس من ربيعة وكندة، والأزد من اليمن، وتميم وقيس من مضر، فصاروا إلى الغض من قريش والأنفة عليهم، فعادت العصبية إلى نحو ما كانت عليه في الجاهلية.

بدأت هذه العصبية بتعصب العرب كافة على قريش، حسدًا لهم كما ذكرنا، ولاستبدادهم بالسلطة دون سائر الصحابة أو التابعين مع استئثارهم بالفيء — إلا الذين تألفهم معاوية من القبائل اليمنية أو العدنانية. وأول خلاف وقع بين المسلمين من هذا القبيل حدث في أيام عثمان، ذلك أن سعيد بن العاص لما ولاه عثمان الكوفة اختار وجوه الناس وأهل القادسية وقراء أهل الكوفة لمجالسته، فكانوا يسمرون عنده وفيهم جماعات من كل القبائل. وكان بنو أمية وغيرهم من الصحابة قد أخذوا في امتلاك العقار وبناء المنازل، وبنو أمية أطول باعًا يومئذ في ذلك لقرابتهم من الخليفة. فاتفق في إحدى مسامراتهم عند سعيد بن العاص أن بعضهم ذكر جود طلحة بن عبيد الله أحد كبار الصحابة، فقال سعيد: «إن من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جوادًا، ولو

كان لي مثله لأعاشكم الله به عيشًا رغدًا». والنشاستج ضيعة في الكوفة كانت لطلحة، وهي عظيمة كثيرة الدخل اشتراها من أهل الكوفة المقيمين بالحجاز بمال كان له بخيبر وعمَّرها فعظم دخلها.[8]

فلما قال سعيد ذلك قام غلام من الحضور فقال له: «لوددت أن هذا الملطاط لك». والملطاط ما كان للأكاسرة على جانبي الفرات مما يلي الكوفة. فنهض بعض الحاضرين من غير قريش وانتهر الغلام فاعتذر أبوه عنه وقال: «غلام فلا تجاوزه». فقال: «كيف يتمنى له سوادنا؟» أي: سواد العراق فقال سعيد: «السواد بستان قريش». وكان الأشتر النخعي حاضرًا، وهو من اليمنية، وكان شديد التعصب لعلي بن أبي طالب، فغضب وقال لسعيد: «أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك؟» فقال عبد الرحمن الأسدي صاحب شرطة سعيد فقال للأشتر: «أتردون على الأمير مقالته؟» وأغلظ لهم، فأشار الأشتر إلى رفاقه فوثبوا على الرجال فوطئوه وطأً شديدًا حتى غُشي عليه، ثم جروا برجله ونضحوه بالماء فأفاق، فنظر إلى سعيد وقال: «إن الذين انتخبتهم لسامرتك قتلوني». فقال سعيد: «والله لا يسمر عندي أحد أبدًا».[9]

فوقعت الوحشة بين قريش وسائر القبائل من ذلك الحين، وخصوصًا بينهم وبين اليمنية، ومنهم الأنصار. وثبت الأنصار في نصرة أهل البيت ضد أهلهم من قريش مثلما فعلوا في أول الإسلام، إذ جاءهم النبي مهاجرًا فرارًا من أهله. ولما جرت واقعة صفين سنة ٣٧هـ بين علي ومعاوية عدوها بين اليمنية «الأنصار» وقريش. فلما احتدم القتال في تلك الواقعة قال رجل يمني من أنصار علي: «أيها الناس هل من رائح إلى الله تحت العوالي (أي: السيوف)؟ والذي نفسي بيده لنقاتلنكم على تأويله (القرآن) كما قاتلناكم على تنزيله»، وتقدم وهو يقول:

نحن ضربناكم على تنزيله   واليوم نضربكم على تأويله
ضربًا يزيل المهاب عن مقيله   ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله[10]

[8] ياقوت ٧٨٣ ج٤.

[9] ابن الأثير ٧٢ و٩٧ ج٣.

[10] المسعودي ١٦ ج٢.

(٣-٢) القبائل اليمنية والمضرية

ثم صار أكثر اليمنية شيعة علي وأنصاره، إلا الذين تألفهم معاوية بالعطاء؛ لعلمه أن اكتفاءه بقريش ونحوهم لا يجديه نفعًا، فقَّرب منه قبيلة كلب وتزوج منها بجدل أم يزيد ابنه، واستنصرهم على قتلة عثمان؛ لأن امرأة عثمان كانت كلبية، واستغواهم بالمال فحاربوا معه، ولما فاز في حروبه ورسخت قدمه في الخلافة تقربت منه قبائل كثيرة من مضر واليمن، وظلت كلب على نصرة يزيد ابنه بعده؛ لأنهم أخواله.

فلما مات يزيد وابن الزبير في مكة يطالب بالخلافة، واختلف بنو أمية على اختيار خالد بن يزيد أو مروان بن الحكم (وكلاهما من أمية)، ووقع الخصام بين دعاة ابن الزبير ودعاة بني أمية، كان أنصار ابن الزبير من قيس (مضرية) يدعون لابن الزبير، وأنصار بني أمية بنو كلب (يمنية) يدعون لخالد بن يزيد؛ لأنه ابن أختهم. ونهض أناس من بني أمية فاعترضوا على صغر سن خالد، فأجمعوا على بيعة مروان لشيخوخته على أن تكون الخلافة بعده لخالد. ثم جرت واقعة مرج راهط بين أصحاب مروان وأصحاب ابن الزبير، أي: بين كلب وقيس، وفاز مروان وثبتت قدمه في الخلافة. ثم توفي مروان ولم يفِ لخالد، فخلفه ابنه عبد الملك بن مروان الشديد الوطأة، وظلت كلب معه وقيس مضطغنة عليه، وانقسم العرب في سائر أنحاء المملكة الإسلامية بين هذين الحزبين: قيسية وكلبية، أو مضرية ويمنية، أو نزارية وقحطانية. وقامت المنازعات بينهما في الشام والعراق ومصر وفارس وخراسان وإفريقية والأندلس. وفي كل بلد من هذه البلاد وغيرها حزبان: مضري ويمني، تختلف قوة أحدهما أو الآخر باختلاف الخلفاء أو الأمراء أو العمال. فالعامل المضري يقدم المضرية، والعامل اليمني يقدم اليمنية، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال، وله تأثير في كل شيء من تصاريف أحوالهم، حتى في تولية الخلفاء والأمراء وعزلهم، وكثيرًا ما كانت الولاية والعزل موقوفين على الانحياز إلى أحد هذين الحزبين.

فقد رأيت أن قبيلة قيس كانت على عبد الملك بن مروان، ولكنها كانت أول نصير لابنه هشام، فنصرته فقربها وألحقها بالديوان أي: فرض لأهلها الرواتب والجرايات. وفي أيامه نقل كثير من بطونها وأفخاذها إلى بلاد الإسلام وخصوصًا مصر والشام. وفي أيام هشام ارتفع شأن القيسية، وصارت سائر المضرية أنصارًا لبني أمية، ولا سيما لما قتل

الوليد بن يزيد وأمه قيسية[11] فقام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يطالب بدمه رغبة في نصرتهم ليشتد أزره بهم، فأجمع المضرية على نصرة مروان، وما زالوا كذلك إلى آخر أيامه، فلما قامت شيعة بني العباس كانت اليمنية من أنصارها.

وكانت تحت هذين الحزبين الكبيرين أحزاب فرعية تتخاصم وتتحارب. على أن مقام قريش ما زال في كل حال محفوظًا ومفضلًا على مقام سائر القبائل شرفًا ونفوذًا، فكانوا إذا خافوا عصيان بعض الولايات على عاملها ولوا عليها عاملًا من قريش، فيذعنون له ويُجمعون على طاعته.[12]

على أن قريشًا كانوا منقسمين فيما بينهم، وأهم انقساماتهم بين بني أمية وبني هاشم، فكان الناس يتعصبون لأحدهما على الآخر تبعًا لغرضه أو وطنه، وكثيرًا ما كانوا يتشاجرون في هذا السبيل فيشغلون أوقاتهم بالمناظر والمفاخرة، حتى تحتدم نار الخصام وتتحول إلى حرب يطير شرارها وتسفك فيها الدماء. وكانت قوة بني هاشم في الحجاز والعراق، وقوة بني أمية في الشام، ويختلف هذا التحديد باختلاف العصور. وكثيرًا ما كان الخصام يبدأ بين الشعراء، واشتهر بعضهم على الخصوص في هذه المطاعنات، وأشهر مناظراتهم في هذا السبيل ما كان بين سديف الشاعر، الذي ينتسب بولائه إلى بني هاشم، فقد كان يتعصب لهم، وسياب الشاعر وكان يتعصب لبني أمية، فكان هذان الشاعران يخرجان إلى ظاهر مكة يذكران المثالب والمعائب، والناس ينقسمون في التعصب لهما، حتى تولد من ذلك عصبتان كبيرتان عرفتا بالسديفية والسيابية، وتواصل ذلك إلى أيام الدولة العباسية، وتغير اسمهما إلى الحناطين والجزارين[13] وسديف هذا هو الذي قال شعرًا بين يدي السفاح قتل به سليمان بن هشام الأموي.

[11] ابن الأثير ١٥٩ ج٥.

[12] ابن الأثير ١٧٨ ج٥.

[13] الأغاني ١٦٢ ج١٤.

(٤) عصبية العرب على العجم

وكما كان القرشيون في أيام بني أمية مقدمين على سائر قبائل العرب، فإن العرب على الإجمال كانوا مقدمين على سائر الأمم الذين دانوا بالإسلام. ولم يكن هؤلاء يستنكفون من ذلك، بل كانوا يعتقدون فضل العرب في إقامة هذا الدِّين، وأنهم مادته وأصله، ولا كانوا يأنفون من أن يسموا العرب أسيادهم ويعدُّوا أنفسهم من مواليهم، بل كانوا يعدُّون طاعتهم وحبهم فرضًا واجبًا عليهم، عملًا بالحديث المأثور: «من أبغض العرب أبغضه الله»[١٤] وكثيرًا ما كانوا يعترفون بفضلهم عليهم في العقل والحزم وسائر المناقب، فإن عبد الله بن المقفع المنشئ الشهير — وكان عريقًا في النسب الفارسي — ضمَّه مجلس في بيت بعض كبراء الفرس بالبصرة، وفيه جماعة من أشراف العرب، فتصدَّى هو للكلام فسأل بعض الحضور: «أيُّ الأمم أعقل؟» فظنوه يريد أمته فقالوا: «فارس» فقال: «كلا … لأنهم وإن ملكوا الأرض وضمَّت دولتهم الخلق، لكنهم لم يستنبطوا شيئًا بعقولهم»، فقالوا: «الروم» فقال: «لا» حتى سئموا فقالوا: «قل أنت»، قال: «العرب. وإذا فاتني حظي من النسبة إليهم فلا يفوتني حظي من معرفتهم. إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار أثرت عليها، أصحاب إبل وغنم وسكان شعره وأدم، يجود أحدهم بقوته ويتفضل بمجهوده، ويشارك ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصير حجة، ويحسن ما شاء فيحسن ويقبح ما شاء فيحسن فيقبح، أدبتهم أنفسهم ورفعتهم هممهم، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم، فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهم في أنفسهم، حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم أشرف الذكر، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر على الخير فيهم ولهم».

(٤-١) العرب والموالي

فكان العرب يزدادون بأمثال هذه الأقوال افتخارًا على سائر الأمم، وخصوصًا على المسلمين منهم، فكانوا يترفَّعون عنهم ويسمونهم الموالي كما تقدم. ومن أقوال أهل العصبية للعرب على العجم: «لو لم يكن منا على المولى عتاقة ولا إحسان إلا استنقاذنا له من الكفر، وإخراجنا له من دار الشرك إلى دار الإيمان، كما في الأثر — أن قومًا يقادون

[١٤] العقد الفريد ٤٢ ج٢.

إلى حظوظهم بالسواحير. وكما قال: عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل. على أننا تعرضنا للقتل فيهم، فمن أعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك؟ فالله أمرنا بقتالكم وفرض علينا جهادكم ورغبنا في مكاتبتكم».

وكانوا يكرهون أن يصلوا خلف الموالي، وإذا صلوا خلفهم قالوا: إننا نفعل ذلك تواضعًا لله. وكان نافع بن جبير التابعي الشهير إذا مرت به جنازة قال: «من هذا؟»، فإذا قالوا: «قرشي» قال: «وا قوماه!»وإذا قالوا: «عربي» قال: «وا بلوتاه!» وإذا قالوا: «مولى» قال: «هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء».[١٥] وكانوا يقولون: «لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار، أو كلب، أو مولى». وكانوا لا يكنونهم بالكنى، ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب، ولا يمشون في الصف معهم، ولا يدعونهم يتقدمونهم في المواكب، وإن حضروا طعامًا قاموا على رؤوسهم، وإن أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه في طريق الخباز؛ لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب، ولا يدعونهم يصلون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب — وسيأتي الكلام على أحكام الموالي في هذا العصر.

وكان العرب في أيام هذه الدولة يترفعون عن سائر الأمم من الموالي وأهل الذمة، ويعدون أنفسهم فوقهم جبلة وخلقة وفضلًا، وكانوا يسمونهم «الحمراء» كما تقدم، وربما أرادوا بالحمراء الموالي على الخصوص. فكان العربي يعد نفسه سيدًا على غير العربي، ويرى أنه خلق للسيادة وذاك للخدمة؛ ولذلك لم يكن العرب يشتغلون في صدر الإسلام إلا بالسياسة والحكومة، وتركوا سائر الأعمال لسواهم وخصوصًا المهن والصناعات. ومن أمثالهم «أن الحمق في الحاكة والمعلمين والغزالين»؛ لأنها صناعات أهل الذمة[١٦] وتخاصم عربي ومولى بين يدي عبد الله بن عامر صاحب العراق فقال المولى: «لأكثر الله فينا مثلك»، فقال العربي: «بل كثر الله فينا مثلك»، فقيل له: «أيدعو عليك وتدعو له؟»، قال: «نعم، يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا».[١٧]

ولم يكن العرب يعتنون بشيء من العلم غير الشعر والتاريخ؛ لأنه لازم للسيادة والفتح، وأما الحساب والكتابة فقد كانت من صناعات الموالي وأهل الذمة؛ ولذلك كان

[١٥] العقد الفريد ٧٣ ج٢.

[١٦] البيان والتبيين ١٠٠ ج١.

[١٧] العقد الفريد ٧٣ ج٢.

العمال في أيام بني أمية مع تعصبهم للعرب، قلما يولونهم الدواوين؛ لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يحسبون.[١٨]

وكان الأمويون في أيام معاوية يعدون الموالي أتباعًا وأرقاء. فلما تكاثر الموالي أدرك معاوية الخطر من تكاثرهم على دولة العرب، فهم أن يأمر بقتلهم كلهم أو بعضهم. وقبل مباشرة ذلك استشار بعض كبار الأمراء من رجال بطانته، وفيهم الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب، فقال لهما: «إني رأيت هذه الحمراء (يعني: الموالي) وأراها قد قطعت على السلف، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فرأيت أن أقتل شطرًا وأدع شطرًا لإقامة السوق وعمارة الطريق، فما ترون؟». فقال الأحنف: «أرى أن نفسي لا تطيب ... أخي لأمي وخالي ومولاي وقد شاركناهم وشاركونا في النسب»، وأما سمرة فأشار بقتلهم وطلب أن يتولى ذلك هو بنفسه، فرأى معاوية أن الحزم في رأي الأحنف فكفَّ عنهم. فاعتبر مقدار استخفاف العرب بسواهم، وكيف يخطر للخليفة أن يقتل شطرًا منهم بغير ذنب اقترفوه كأنهم من الأغنام.

وكأنَّ العرب سكروا بخمرة السيادة والنصر، بارتقائهم من رعاية الإبل إلى سياسة الممالك في بضعة عشر عامًا، فتوهَّموا في فطرتهم ما ليس في سواهم من المناقب والسجايا كما توهم الرومان قبلهم، وكما يتوهم أهل هذا العصر في بعض الأمم السائدة، فيعتقدون امتيازها بأصل فطرتها عن سائر الأمم، فتوهم العرب في أنفسهم الفضل على سائر الأمم ... حتى في أبدانهم وأمزجتهم فكانوا يعتقدون أنه لا تحمل في سن الستين إلا قرشية، ولا تحمل لخمسين إلا عربية كما تقدم، وأن الفالج لا يصيب أبدانهم، ولا يضرب أحدًا من أبنائهم، إلا أن يبذروا بذورهم في الروميات والصقلبيات وما أشبههن فيعرض الفالج لمن يلدنه؛[١٩] ولذلك كانوا في أيام بني أمية شديدي العناية في حفظ أنسابهم من شوائب العجمة، ومنعوا غير العرب من المناصب الدينية المهمة كالقضاء، فقالوا: «لا يصلح للقضاء إلا عربي»[٢٠] وحرموا منصب الخلافة على ابن الأمة ولو كان أبوه قرشيًّا، وكان ذلك من جملة ما احتج به هشام على يزيد بن علي بن الحسين، إذ قام يطلب الخلافة لنفسه فقال له هشام بن عبد الملك: «بلغني أنك تخطب الخلافة ولا تصلح لها؛

[١٨] المسعودي ١١٤ ج٢.

[١٩] طبقات الأطباء ١٥٠ ج١ والأغاني ٨٨ ج١٥.

[٢٠] ابن خلكان ٢٠٥ ج١.

لأنك ابن أمة»[٢١] مع أن أمه من بنات ملوك فارس. وأول من ولي الخلافة من أبناء الإماء يزيد بن الوليد الأموي سنة ١٠١هـ، وكانوا يسمون العربي من أم أعجمية «الهجين»، ولا يزوجون الأعجمي عربية ولو كان أميرًا، وإن كانت هي من أحقر القبائل. فإن بعض دهاقين الفرس أراد أن يتزوج امرأة من باهلة كانت في بعض قصور الترك فأبت، مع أن باهلة من أحقر قبائل العرب. ولم يكن أثقل على طباعهم من استرقاق العربي.[٢٢]

وكان فضل العرب على سواهم قضية مسلمة في صدر الإسلام لا تحتاج إلى دليل، فلما بالغ بنو أمية في الاستخفاف بغير العرب وقد ذهبت دهشة النبوة، أخذ هؤلاء في التذمُّر ونصروا آل علي والخوارج وغيرهم من أعداء الأمويين، وهان عليهم الرَّد على العرب في مفاخراتهم، فنشأ من ذلك طائفة يعرفون بالشعوبية، لا يعترفون بفضل العرب على سواهم، وتصدوا لدفع حجج القائلين: بفضل العرب على سائر الشعوب. ولم يكن الشعوبية يستطيعون الظهور في أيام بني أمية[٢٣] فلما أفضت الخلافة إلى بني العباس وانحطَّ شأن العرب بعد قتال الأمين والمأمون، ظهروا وألفوا الكتب في مثالب العرب، كما سيأتي.

(٢-٤) آثار بني أمية في الإسلام

فالدولة الأموية كانت شديدة الحرص على منزلة العرب، كثيرة العناية في حفظ الأنساب، فجعلت في كل ديوان من دواوينها سجلًّا يقيدون فيه من يولد من أبناء العرب المقيمين في البلاد المفتوحة[٢٤] وهي التي جعلت الإسلام دولة، وقد كان في أيام الراشدين دينًا، فصار على عهد الأمويين عصبية وسيفًا، ثم صار دولة أيدوها بنشر اللغة العربية في المملكة الإسلامية، بنقل الدواوين من القبطية والرومية والفارسية إلى العربية. وبعد أن كانت مصر قبطية والشام رومية والعراق كلدانية أو نبطية، أصبحت هذه البلاد بتوالي الأجيال عربية النزعة وتنوسيت لغاتها الأصلية، وهي تُعد الآن من البلاد العربية، وإذا نزلها التركي أو الإفرنجي أو غيرهما من أي أمة كانت وتوالد فيها عُدَّ نسله عربيًّا.

---

[٢١] سراج الملوك على هامش مقدمة ابن خلدون ٢٨٨.

[٢٢] ابن الأثير ٤٤ و١٣١ ج٥.

[٢٣] الأغاني ١٢٥ ج٤.

[٢٤] المقريزي ٩٤ ج١.

وظلَّ العرب في أيام بني أمية على بداوتهم وجفائهم. وكان خلفاؤهم يرسلون أولادهم إلى البادية لإتقان اللغة واكتساب أساليب البدو وآدابهم،[٢٥] وظل كثير من عادات الجاهلية شائعًا في أيامهم، كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الأشعار في الأندية العامة، فكان أشراف أهل الكوفة يخرجون إلى ظاهرها يتناشدون الأشعار ويتحادثون ويتذاكرون أيام الناس. وكان خارج البصرة بقعة يقال لها: المربد، يجتمع إليها الناس من البصرة وغيرها يتناشدون الأشعار ويتحادثون[٢٦] كما كانوا يفعلون في عكاظ. وكان في المربد حلقات للعلماء أو الشعراء يجتمع عليهم الطلبة أو المريدون، في جملتها حلقة كانت لراعي الإبل. والفرزدق وجلساتهما بأعلى المربد[٢٧] وقس على ذلك ما كان يقع هناك من المفاخرة والمناضلة، كأنهم بعصبيتهم إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام. ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا إليه في أيام هذه الدولة، وقد تكاثروا على عهدها وانتشروا في ممالك الأرض.

(٥) العصبية الوطنية في عصر الأمويين

لم يكن للعرب قبل الإسلام جامعة وطنية يجتمعون بها أو يدافعون عنها؛ لأنهم كانوا لا يستقرون في وطن؛ لتغلب البداوة على طباعهم وتنقلهم بالغزو والرحلة. فلما أسلموا وفتحوا البلاد ومصروا الأمصار وابتنوا المدن وأقاموا فيها، تحضروا ونشأت فيهم الغيرة على تلك المواطن والدفاع عنها والتعصب لها، وهي ما عبرنا عنه بالعصبية الوطنية.

(٥-١) تحضر العرب بعد الفتح

وقد تدرج العرب إلى الحضارة تدريجًا، ولم يكن ذلك مقصودًا في بادئ الرأي وإنما سيقوا إليه بطبيعة العمران؛ لأنهم كانوا في صدر الإسلام لا يزالون على بداوتهم، وإذا ساروا للفتح ساقوا معهم أولادهم ونساءهم وإبلهم وسائمتهم كما كانوا يتغازون في أيام جاهليتهم، وإذا فتحوا بلدًا نصبوا خيامهم في ضواحيه والتمسوا المراعي لإبلهم وخيلهم.

---

[٢٥] العقد الفريد ٢٥٨ ج٢.

[٢٦] الأغاني ١٥٣ ج١٩.

[٢٧] الأغاني ١٦٩ ج٢٠.

وقد نهاهم عمر عن الزرع، فكأنه نهاهم عن التحضر رغبة منه في استبقائهم جندًا محاربًا، لا يمنعهم عن الجهاد عقار ولا بناء، ولا يقعدهم عن القتال ترف ولا قصف. فكانوا يقيمون في معسكراتهم بضواحي المدن كما تقيم جيوش الاحتلال في هذه الأيام، وكانوا يعبرون عن ذلك بالحامية أو الرابطة. فكان المسلمون في عصر الراشدين فرقًا تقيم كل فرقة في ضاحية مدينة من المدن الكبرى وتسمى جندًا. وكانت عساكر الشام أربعة أجناد، تقيم في ضواحي دمشق وحمص والأردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الأقاليم بالأجناد. وعساكر العراق كانت تقيم على ضفاف الفرات مما يلي جزيرة العرب، في معسكرين صارا بعدئذ مدينتين هما: البصرة والكوفة. وكانت جنود مصر تقيم في معسكر على ضفاف النيل في سفح المقطم مما يلي بلاد العرب، حيث بنيت الفسطاط بعد ذلك.

وكان العرب (أو المسلمون) يقيمون في تلك المعسكرات بأولادهم ونسائهم، لا يختلطون بأهل القرى، حتى إذا جاء الربيع يسرحون خيولهم للمرعى في القرى، يسوقها الأتباع من الخدم أو العبيد ومعهم طوائف من السادات. فإذا فرغوا من رعاية الخيل عادوا إلى خيامهم، وهم إلى ذلك الحين أهل بداوة وغزو، ومركز دولتهم في المدينة وفيها مقر الخليفة وإليها مرجع المسلمين عند الحاجة.

فلما طال مقامهم في تلك المعسكرات، وأفضت الخلافة إلى بني أمية ورغبوا في الشام عن الحجاز، هان على المسلمين إغفال أمر المدينة وسائر الحجاز وطاب لهم المقام في الشام وسائر الأمصار، وأغفلوا وصية عمر فاقتنوا الأرض والضياع وغرسوا المغارس، فتحولت تلك المعسكرات بتوالي الأجيال إلى مدن عامرة، أشهرها البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان من المدن التي بناها المسلمون، غير المدن القديمة التي استوطنوها في الشام ومصر والعراق وفارس وغيرها. وما زالوا حتى اقتنوا المغارس والضياع، وابتنوا المنازل والقصور، واشتغلوا بالزرع وتعلموا أشغال أهل المدن من تجارة وصناعة.

تدرجوا إلى ذلك في أعوام متطاولة، لاستغنائهم عن الريع لمعاشهم؛ لأنهم كانوا في صدر الإسلام شركاء فيما يرد على بيت المال من الفيء أو الغنائم من العراق وغيره من البلاد المفتوحة، ولكل مسلم الحق في ذلك الفيء حيثما كان مقامه. فأهل المدينة مثلًا يتمتَّعون بفيء العراق، وكذلك أهل الشام.

فلما بدأوا بالاستيطان في أواخر عصر الراشدين، وأراد أهل كل مصر أن يستقلوا بمصرهم، كان ذلك مجحفًا بأهل المدينة؛ لأن معاشهم من فيء البلاد المفتوحة، فشكوا

ذلك إلى الخليفة إذ ذاك عثمان بن عفان، وطالبوه بفيئهم من الأرض بالعراق، فاستبدله لهم من أهل العراق بأرض كانت لهؤلاء في الحجاز أو اليمن أو غيرهما من بلاد العرب.[٢٨]

(٥-٢) تعصب المدن الإسلامية بعضها على بعض

ومما زاد المسلمين إيغالًا في العصبية الوطنية انقسام الأحزاب السياسية يومئذ باعتبار المدن. وأول خلاف وقع بين بلدين إسلاميين الخلاف الذي وقع بين الشام والكوفة في أيام عثمان بن عفان،[٢٩] ثم حدث الانقسام الوطني السياسي بعد مقتله، وكان أساسه الميل إلى أحد طلاب الخلافة يومئذ، وهم علي ومعاوية وطلحة والزبير، فكان أهل الشام مع معاوية؛ لأنه أميرهم ومعظمهم من قريش، وكان أهل المدينة مع علي وهم الأنصار وتبعتهم مصر، وكان أهل الكوفة مع الزبير، وأهل البصرة مع طلحة. فلما كانت واقعة الجمل سنة ٣٦هـ وقتل طلحة والزبير انحاز أهل العراق إلى علي فضلًا عن أهل المدينة ومصر، وظل أهل الشام مع معاوية. ولما كانت واقعة صفين ومسألة التحكيم سنة ٣٧هـ، وغلب عمرو بن العاص بمكره، بويع معاوية وتركت مصر لعمرو بن العاص عندما صارت مصر في حوزة معاوية. ولما قتل علي سنة ٤٠هـ ومات الحسن ثم قام الحسين يطالب بالخلافة بعد موت معاوية وخلافة يزيد، استعان الحسين بأهل العراق وانتقل إليهم، فبايع أهل الحجاز لابن الزبير. فأصبح الحجاز مع ابن الزبير والعراق مع الحسين والشام ومصر مع معاوية.

وقس على ذلك انحياز تلك البلاد إلى الخلفاء باختلاف الأحوال، فأصبح لكل بلد بتوالي الأعوام استقلال خاص وعوائد خاصة تميزه عن سواه، على أنها كانت تمتاز بعضها عن بعض في ذلك من أيام معاوية، فقد سأل معاوية ابن الكواء عن أهل الأمصار فقال: «أهل المدينة أحرص الأمة على الشر وأعجزهم عنه، وأهل الكوفة يردون جميعًا ويصدرون شتى، وأهل مصر أوفى الناس بشر وأسرعهم إلى ندامة، وأهل الشام أطوع الناس لمرشدهم وأعصاهم لمغويهم».

وكان لأهل كل بلد غرض خاص في السياسة عبرنا عنه بالعصبية الوطنية، وهي غير عصبية النسب، إذ قد يجتمع أهل البلد الواحد على غرض واحد ويعرفون بجامعة

---

[٢٨] ابن الأثير ٥٢ ج٣ وياقوت ٧٨٣ ج٤.

[٢٩] ابن الأثير ٦٥ ج٣.

واحدة، كأهل البصرة والكوفة والشام والفسطاط، وهم أخلاط من قبائل شتى. فكان لكل بلد في عصر بني أمية جامعة خاصة يجتمع بها ويحارب باسمها. وهو مؤلف من قبائل تختلف نسبًا وعصبيةً، وفيهم قبائل اليمن ومضر وربيعة وغيرها، يقيم كل منها في حي خاص بها يعرف باسمها، فكانت البصرة مثلًا مؤلفة من خمسة أقسام تعرف بالأخماس، كل خمس لقبيلة، وهي الأزد وتميم وبكر وعبد القيس وأهل العالية. والمراد بأهل العالية بطون قريش وكنانة والأزد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة[30] وقس على ذلك سائر البلاد.

فإذا تحارب بلدان وقفت كل قبيلة من أهل البلد الواحد أمام ما يقابلها من قبيلتها في البلد الآخر. ففي واقعة الجمل كانت الحرب بين البصرة والكوفة، فلما انتشب القتال تصدت قبائل اليمن البصرية لقبائل اليمن الكوفية، ونزلت قبائل مضر إلى مضر، وربيعة إلى ربيعة. وكذلك في واقعة صفين، وهي بين أهل الشام وقائدهم معاوية، وأهل العراق وقائدهم علي. فلما التحم القتال سأل علي عن أهل الشام فعرف مواقفهم، فأخذ يستحث من معه من القبائل على إخوانهم في معسكر عدوه، فقال لأزد: «اكفونا الأزد»، وقال لخثعم: «اكفونا خثعم»، وأمر كل قبيلة معه أن تكفيه أختها في عسكر الشام. إلا أن تكون قبيلة ليس لها بالشام أحد فيصرفها إلى قبيلة أخرى في الشام ليس بالعراق منها أحد[31] — فتأمل كيف غلبت الجامعة الوطنية على جامعة النسب؛ وإنما غلبت لأن الأحوال اقتضتها فرأى الناس يها ما يسد مطامعهم.

على أن أهل البلد الواحد كانوا يختلفون عددًا ونسبًا باختلاف عصبية الأمير أو الخليفة، كما تقدم في كلامنا عن عصبية النسب. ويختلف غرض البلد الواحد باختلاف تلك الأحوال مما لا ضابط له، فتنشب الحروب بين البلدين كما تنشب بين القبيلتين. ومن أشهر حوادث الخلاف بين البلاد في صدر الإسلام خلاف أهل الكوفة والبصرة ومفاخرتهما. ففي أيام علي والخوارج كانت البصرة عثمانية، والكوفة علوية، والشام أموية، والجزيرة خارجية، والحجاز سنية[32] وتقلبت هذه الأحوال كثيرًا، واختلفت باختلاف الدول والعصور. فحدث بتوالي التقلبات السياسية تعدد الجامعات: أولها

[30] ابن الأثير ٣٤ ج٥.

[31] ابن الأثير ١٢١ و١٤٩ و ١٧١ ج٣.

[32] العقد الفريد ٢٧٧ ج٣.

الجامعة العصبية أو جامعة النسب بين مضر واليمن، والثانية جامعة الوطن بين العراق ومصر والشام، والثالثة جامعة المذهب بين الفرق الإسلامية كالسنة والشيعة والمعتزلة، وربما اجتمعت كل هذه الفرق في رجلين.[٣٣]

ومما ساعد على نشوء الجامعة الوطنية أن أهل الحجاز كانوا يجتمعون بالحرمين ويفاخرون المسلمين بهما؛ لأن الإسلام لا يستغني عنهما وفيهما شيعة علي ولا سيما المدينة. فكان الأمويون — مع عداوتهم للعلويين — لا يرون بدًّا من زيارة الحرمين ورعاية أهلهما، فيقف ذلك حجر عثرة في سبيل سلطانهم، وخصوصًا بعد أن احتمى ابن الزبير بالكعبة وأخرج بني أمية وأحزابهم من الحجاز، فلم يستطع الأمويون التغلب عليه إلا بضرب الكعبة بالمنجنيق؛ ولهذا السبب خطر للأمويين أن ينقلوا منبر النبي من المدينة إلى الشام؛ ليجمعوا عندهم الدين والسياسة. ولعل الحجاج بنى القبة الخضراء في واسط لمثل هذه الغاية، كما بنى المنصور في بغداد بعد ذلك قبة خضراء على مسجد بغداد تصغيرًا للكعبة.[٣٤] والغرض من ذلك كله تحويل القلوب عن الحجاز وتصغير أمر العلويين، فلم يُجْدِهِمْ ذلك نفعًا.

(٦) اصطناع الأحزاب في عصر الأمويين

(٦-١) سياسة معاوية

ومما احتاج إليه بنو أمية في سبيل التغلب لنيل الخلافة اصطناع الرجال واجتذاب الأحزاب، كما فعل معاوية بن أبي سفيان في اكتساب نصرة عمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة، اكتسبهم بالدهاء والعطاء، ثم صار بعد ذلك قاعدة سار عليها بنو أمية في تثبيت دعائم ملكهم، والعلويون أبناء بنت النبي وأحفادها ينازعونهم عليه. على أنه لم يقم في بني أمية رجل مثل معاوية في الدهاء والتعقُّل، مما يعبر عنه أهل هذا الزمان بالسياسة.

وإذا قسنا أعمال هذا الرجل بأعمال أعاظم رجال السياسة من أهل هذا العصر وغيره، لرأيناه يفوق أكثرهم تعقلًا وحكمةً ودهاءً، وخصوصًا إذا اعتبرنا موقفه بإزاء

---

[٣٣] ابن خلكان ١٠٠ ج٢.

[٣٤] المسعودي ١٦٦ ج٢.

طلاب الخلافة من أهل بيت النبي ﷺ وأبناء عمه وأبناء بنته، والمسلمون يعتقدون حقهم فيها وأن معاوية طليق لا تحل له الخلافة.[٣٥] وأنه لم يعتنق الإسلام إلا مكرهًا، ومع هذا غلب عليهم جميعًا فقبض على أزمة الملك وجعله إرثًا في نسله، ولم يسفك في سبيل ذلك دمًا كثيرًا، وإنما كانت عمدته سعة الصدر والدهاء وبذل الأموال.

أما سعة الصدر فإنه كان يغضى عن مطاعن أهل البيت عليه، ولو فعلوا ذلك بين يديه، وبدلًا من أن ينتقم منهم كان يبذل لهم الأموال ويقربهم. فربما دخل عليه الرجل منهم وهو في مجلسه وبين أمرائه، فيطعن فيه ويعرض باختلاسه الملك ويفضل عليًّا عليه، فيلين له الجواب ويهبه الأموال فينقلب معه ولو كان من أقرباء علي. ذكروا أن عقيلًا أخا علي بن أبي طالب وفد على معاوية وعلي لا يزال حيًّا، فرحب به معاوية وسر بوروده لاختياره إياه على أخيه، وأوسعه حلمًا واحتمالًا، فقال له معاوية: «كيف تركت عليًّا؟» فقال: «تركته على ما يحب الله ورسوله، وألفيتك على ما يكره الله ورسوله»، فقال معاوية: «لولا أنك زائر منتجع جنابنا لرددت عليك جوابًا تألم منه». ثم أحب معاوية أن يقطع الحديث مخافة أن يأتي بشيء يسوءه، فوثب من مجلسه وأمر له أن ينزل وأوصل إليه مالًا عظيمًا. فلما كان من غد جلس معاوية وبعث إلى عقيل، وقال له: «كيف تركت عليًّا أخاك؟». قال: «تركته خيرًا لنفسه منك، وأنت خير لي منه».[٣٦]

وأخبار معاوية مع صعصعة بن صوحان العبدي، وغيرها من رجال علي ومريديه كثيرة، تدل على سعة صدر وحلم. فإن لم يكفه الحلم عمد إلى المخادعة أو البذل، فلا يلتقي به واحد ممن يخاف بطشهم إلا رجع راضيًا. وقد يأتيه الرجل مستجديًا وهو يتعمد خداعه، فينخدع له ويطاوعه ويجيزه. ذكروا أن ابن الزبير — قبل قيامه بالدعوة لنفسه — هرب من عبد الرحمن بن أم الحكم إلى معاوية، وقد أحرق عبد الرحمن داره بالكوفة، فجاء معاوية متظلمًا، وقال له: «إن عبد الرحمن أحرق داري»، فقال معاوية: «وكم تساوي دارك؟» قال: «١٠٠٠٠٠»، فطلب منه شاهدًا فأتاه بشاهد من أصدقائه، فأمر له معاوية بالمال. فلما انصرف الرجلان قال معاوية لجلسائه: «أي الشيخين عندكم أكذب؟ والله إني لأعرف داره، وما هي إلا خصائص قصب، لكنهم يقولون فنسمع

[٣٥] المسعودي ١٢ ج٢.

[٣٦] المسعودي ٥٤ ج٢.

ويخادعوننا فننخدع»،[٣٧] وكان ذلك وأمثاله مما أسكت ابن الزبير وغيره عن القيام لطلب الخلافة في أيامه.

فأين هذا من تدقيق علي في محاسبة عماله، حتى أغضب أكثرهم وخسر نصرتهم، وفي جملتهم ابن عمه عبد الله بن عباس بعد أن كان أكبر نصير له، فأغضبه من أجل وشاية لا طائل تحتها كما تقدم؟ على حين أن معاوية كان يهب لعماله الولاية طعمة لهم، وإذا وفد أحدهم عليه بالغ في إكرامه والترحيب به، فكان معاوية بن حديج إذا قدم على معاوية في الشام زينت له الطرق بقباب الريحان تعظيمًا لشأنه.[٣٨]

وكان معاوية يحتمل الطعن والنقد على الخصوص من رؤساء القبائل وأهل البيوتات، وزعماء الأحزاب ولو أطلقوا ألسنتهم عليه. فالأحنف بن قيس التميمي، أحد السادة التابعين وأهل النفوذ، كان على رأي علي وقد نصره في واقعة صفين. فاتفق أنه وفد على معاوية بعد أن استقر له الأمر بالخلافة فلما دخل عليه قال له معاوية: «والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة في قلبي إلى يوم القيامة»، فقال له الأحنف: «والله يا معاوية إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها، وإن تدن من الحرب فترًا ندن منها شبرًا، وإن تمشِ إليها نهرول لها» ثم قام وخرج ولم يكلمه معاوية. وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه، فقالت: «يا أمير المؤمنين من هذا الذي يهدِّد ويتوعَّد؟». قال: «هذا الذي إذا غضب، غضب لغضبه مائة ألف من تميم لا يدرون فيم غضب».[٣٩]

على أن معاوية كان إذا خاف عدوًّا لا يقدر عليه بالسيف ولا يستطيع اصطناعه بالمال احتال على قتله غيلة بالسُّمِّ، كما فعل بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وكان قد عظم شأنه عند أهل الشَّام ومالوا إليه بما عندهم من آثار أبيه، ولغنائه في بلاد الروم وشدة بأسه، فخافه معاوية فأمر ابن الأثال الطبيب أن يحتال في قتله، وضمن له أن يضع عنه خراجه ما عاش وأن يوليه خراج حمص. فدسَّ ابن الأثال إليه شربة عسل مسمومة مع بعض مماليكه فشربها ومات[٤٠] ونجا معاوية منه. وفعل نحو ذلك بالأشتر

[٣٧] الأغاني ٤٨ ج١٣.

[٣٨] ابن الأثير ٢٥٧ ج٣.

[٣٩] ابن خلكان ٢٣٠ ج١.

[٤٠] ابن الأثير ٢٢٩ ج٣.

النخعي مالك بن الحارث، وكان من أشدِّ رجال عليّ بطشًا أو هو أشدُّهم جميعًا، وقد أبلى معه في صفين بلاءً حسنًا. فلما اضطربت أحوال مصر بدسائس معاوية، وكانت لا تزال في حوزة علي، بعث الأشتر واليًا عليها، فعلم معاوية أنه إن وليها امتنعت عليه، فبعث إلى المقدم على أهل الخراج في القلزم — وهي في طريق الأشتر لا بد من مروره بها عند قدومه إلى مصر — وقال له: «إن الأشتر قد ولي مصر، فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجًا ما بقيت وبقيت». فخرج حتى أتى القلزم وأقام به، فلما جاء الأشتر استبقاه ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده، فأتاه بطعام فلما أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سمًّا فسقاه إياها، فلما شربها مات. وأخذ معاوية يقول لأهل الشام: «إن عليًّا قد وجه الأشتر إلى مصر فادعوا الله عليه» فكانوا يدعون عليه كل يوم، وأقبل الذي سقاه إلى معاوية فأخبره بمهلك الأشتر، فقام معاوية خطيبًا وقال: «أما بعد فإنه كان لعلي يمينان فقطعت إحداهما بصفين (يعني عمار بن ياسر) وقطعت الأخرى اليوم (يعني الأشتر)»[٤١] فلما بلغ خبر الأشتر إلى عمرو بن العاص قال: «إن لله جنودًا من العسل».[٤٢]

(٦-٢) عمرو بن العاص

فكان معاوية وأصحابه لا يضيعون فرصة، ولا يبالون في إنفاذ أغراضهم ما يرتكبون من القتل أو نحوه. أما علي وأصحابه فكانوا لا يحيدون عن مناهج الدين ومقتضى الأريحية، وكانت أريحيتهم هذه مساعدًا كبيرًا لفوز معاوية عليهم. ففي واقعة صفين كانت كفة النصر راجحة لعلي، ولو تم له ذلك لقضي على معاوية وأغراضه، وذهبت مساعيه أدراج الرياح، ولذهب أمر بني أمية بذهابه واستتب الأمر لعلي وأهل بيته. وإنما منع من فوز علي دهاء عمرو بن العاص؛ لأن معاوية لما احتدمت المعركة، ورأى الضعف في عسكره وأيقن الخذلان، لجأ إلى عمرو بن العاص وكان محاربًا معه وقال له: «هلم مخبآتك يا ابن العاص فقد هلكنا، وتذكر ولاية مصر». فأشار عليه عمرو يومئذ برفع المصاحف، وأن ينادوا: «كتاب الله بيننا وبينكم! من لثغور الشام بعد أهل الشام؟ ومن لثغور العراق بعد أهل العراق؟ ومن لجهاد الروم والترك ومن للكفار؟» فخدع رجال علي

[٤١] ابن الأثير ١٧٩ ج٢.

[٤٢] المقريزي ٣٠٠ ج١.

بهذه الحيلة وأوقفوا القتال، ثم اتفقوا على التحكيم وبه أتم ابن العاص حيلته، فخلع عليًّا وبايع معاوية. فلولا عمرو بن العاص لفشل معاوية وذهب أمره، ولولا أريحية أبداها علي في تلك المعركة لقتل عمرو قبل تدبير تلك الحيلة، وذلك أن عمروا كان قد برز للنزال، فبرز له علي فلما التقيا عرفه علي، فشال السيف ليضربه ويتخلص منه، فلما أيقن عمرو بالموت كشف عن عورته وقال: «مكره أخوك لا بطل»، فثارت الأريحية في نفس علي فحول وجهه عنه وقال: «قبحت!» ونجا عمرو بتلك الحيلة[٤٣] وذهب عمل عمرو هذا مثلًا وفيه يقول الشاعر:

ولا خير في صون الحياة بذلة كما صانها يومًا بذلته عمرو

وكذلك كان أصحاب علي من حيث الأريحية والتقوى وصدق اللهجة، تلك كانت طبيعة الإسلام والمسلمين في ذلك العصر الذهبي، إلا من طمع في الدنيا وانحاز إلى معاوية. وكانت هذه المناقب في علي على أقوى أحوالها، ولو تساهل فيها أو أغضى عن شيء منها لنجا من شرور كثيرة؛ ولذلك قالت قريش: «إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكنه لا رأي له في الحرب».[٤٤]

فبالدهاء ونحوه تمكن معاوية من نيل الخلافة وتوريثها لابنه، ثم صارت في بني مروان من أمية، ولكنه لم يستطع قطع شأفة المقاومين من طلاب الخلافة، وهم كثيرون أهمهم أولاد علي. على أنه كان يسكتهم بالمسالمة والبذل، وكانوا يهابونه ويسكنون إلى سياسته ويتوقعون من الجهة الأخرى رجوع الخلافة إليهم بعد موته.

فلما رأوه نقلها إلى ابنه يزيد، ثار المطالبون بالخلافة في الحجاز والعراق وغيرهما، وكل منهم يزعم أنه صاحب الحق فيها. فاجتمع سنة ٦٨هـ أربعة ألوية في عرفات، كل منها لزعيم يطلب الخلافة لنفسه، أحدها لبني أمية، والآخر للعلويين باسم محمد بن الحنفية، والثالث لعبد الله بن الزبير، والرابع لنجدة الحروري من الخوارج. ثم قام غيرهم ولم يفز بالملك إلا بنو أمية، للعصبية العربية واصطناع الأحزاب. وإليك الأسباب التي ساعدتهم على اصطناع الأحزاب، غير ما تقدم ذكره من دهاء معاوية وضعف رأي علي في السياسة.

---

[٤٣] المسعودي ١٩ ج٢.

[٤٤] الأغاني ١٥ ج١٥.

(٧) بذل المال في عصر الأمويين

(٧-١) العطاء من بيت المال

العطاء من أكبر العوامل التي ساعدت بني أمية في اصطناع الرجال وكسر شوكة أعدائهم؛ لأن العطاء رواتب الجند أو رواتب المسلمين، وكانوا في صدر الإسلام كلهم جندًا، ولكل منهم رواتب يختلف باختلاف نسبه من النبي، أو سابقته في الإسلام، أو غير ذلك مما تراه مفصلًا في كلامنا عن الديوان في أيام عمر[٤٥] وترى الرواتب فيه للمسلمين على اختلاف طبقاتهم حتى النساء والأولاد. وأصل هذا العطاء من أموال الفيء، وهناك طبقة أخرى من المسلمين الذين لا يستطيعون الحرب، فهم من الفقراء ويأخذون أعطيتهم من أموال الصدقة وهي الزكاة، ولكل من الصدقة والفيء ديوان خاص وحساب خاص.

فمن قبض على بيت المال قبض على رقاب المسلمين، فيجدر بهم أن يتقربوا منه أو يتزلفوا إليه. فإذا قبض عليه رجل حكيم مثل معاوية يعرف كيف يعطي ولمن يعطي، أغناه ذلك عما سواه. فكان معاوية يزيد العطاء أو ينقصه أو يقطعه على حسب الاقتضاء، والغالب أن يبذل الأموال ويضاعف الأعطية حيث يتوسم نفعًا، وأخوف ما كان يخافه في خلافته قيام العلويين أو غيرهم من أهل بيت النبي ينازعونه الخلافة، فبذل لهم العطاء بسخاء.

فبعد أن كان عطاء الحسن والحسين بحسب ديوان عمر ٥٠٠٠ درهم في السنة جعلها معاوية مليون درهم، أي إنه ضاعفها ٢٠٠ مرة، وأعطى مثل هذا المبلغ أيضًا إلى عبد الله بن عباس؛ لأنه ابن عم النبي ويخشى منه. وكذلك عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وغيرهم من كبار أبناء الصحابة أهل النفوذ في الإسلام ممن يقيمون في المدينة. فكان من جهة يتألفهم بالأموال ويشغلهم بالرخاء عن النهوض للمطالبة، ومن جهة أخرى يتألف بهم أهل المدينة؛ لأنهم كانوا ينفقون تلك الأموال في أهلها للتمتع بملاذ الحياة، ومنهم من كان ينفق عطاءه على المغنين والشعراء. وأكثرهم سخاءً وبذلًا من هذا القبيل عبد الله بن جعفر، وهو ابن عم الحسن والحسين، فإنه كان يفد على معاوية في الشام فيدفع إليه عطاءه فيعود إلى المدينة فيفرقه في أهلها. وكان معاوية يعلم ذلك فيقربه ويحسن إليه ليستألف أهل المدينة به.

---

[٤٥] الجزء الأول من هذا الكتاب.

ويقال: إنه قدم على يزيد بن معاوية بعد توليه الخلافة، فقال له يزيد: «كم كان عطاؤك؟» فقال: «ألف ألف درهم»، قال: «قد أضعفناها لك»، قال: «فداك أبي وأمي، ما قلتها لأحد قبلك»، قال: «قد أضعفناها لك ثانية» فقيل ليزيد: «أتعطي رجلًا واحدًا ٤٠٠٠٠٠٠ درهم؟» فقال: «ويحكم إني أعطيتها أهل المدينة أجمعين، فما يده فيها إلا عارية».[٤٦]

وقس على ذلك بذل معاوية في تألف القبائل، فقد كان يفرض للقبائل التي تحارب معه، ولو بعدت عن نسبه كاليمن مثلًا، فإنه كان يتألفها بالأموال خوفًا من بطشها، وكان يفرض لها ولا يفرض لقيس وهي أقرب إليه؛ لأنه لم يكن يخاف بأسها، حتى إن أحد رجالها كان يأتي معاوية يطلب منه أن يفرض له فيأبى، كما فعل بمسكين الدارمي، فإنه طلب من معاوية أن يفرض له فأبى، فقال شعرًا يعاتبه فيه ويذكره بما بينهما من النسب، ومن ذلك قوله:

أخاك أخاك إن من لا أخًا له   كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح
وإن ابن عم المرء — فاعلم — جناحه   وهل ينهض البازي بغير جناح؟
وما طالب الحاجات إلا مغرر   وما نال شيئًا طالب كنجاح

فلم يعبأ به لأنه إنما كان ينظر إلى مصلحة نفسه. فاعتزت اليمن واشتد بأسها واستطالت على الدولة، وتضعضعت قيس وسائر عدنان. فبلغ معاوية أن رجلًا من اليمن قال يومًا: «لهممت أن لا أدع بالشام أحدًا من مضر، بل هممت أن لا أحل حبوتي حتى أخرج كل نزاري بالشام» فخاف معاوية بأس اليمنية، ورأى أن يضربهم بالمضرية، ففرض من وقته لأربعة آلاف من قيس وغيرها من عدنان، وبعث إلى مسكين يقول له: «لقد فرضنا لك وأنت في بلدك، فإذا شئت أن تقيم بها أو عندنا فافعل، فإن عطاءك سيأتيك». وصار معاوية يغزي اليمن في البحر وقيسًا في البر[٤٧] ولولا دهاؤه وحسن أسلوبه لما استطاع التوفيق بينهما.

[٤٦] العقد الفريد ١١٠ ج١.

[٤٧] الأغاني ٦٩ ج١٨.

ويقال نحو ذلك في زيادة العطاء للذين شهدوا الوقائع الهامة ونصروا الأمويين، كواقعة صفين فإن معاوية زاد عطاء أصحابها[48] كما فعل عمر فيمن شهد القادسية. وسار خلفاء بني أمية على خطوات معاوية، فأعطوا أحزابهم حتى فرضوا الأعطية للشعراء، التماسًا لقطع ألسنتهم أو ليتقربوا إلى قلوب الناس. وكان أهل التقوى يرون ذلك مجحفًا بحقوق بيت المال، ويعترضون على إعطاء الناس من مال الفيء فإنه مال الله أو مال المسلمين. وكان ذلك من جملة ما غير أصحاب علي على معاوية يوم صفين[49] فلما تولى عمر بن عبد العزيز، وسار على نهج الخلفاء الراشدين منع العطاء عن الشعراء، فلما مات عادوا إلى ما كانوا عليه.

وكانوا يفرضون لأي من جاءهم، ولو كان أعرابيًّا، حتى كان أهل البادية كثيرًا ما يبيعون إبلهم ويأوون إلى المدن يطلبون الفرض لهم. ومع ذلك فأهل الأنفة منهم كانوا يدركون ما وراء ذلك من استعباد النفوس، لغرض يعتقدون أنه ضد الحق، وأنه تأييد لدعوة القائمين على أهل البيت فتعافه نفوسهم. يحكى أن امرأة جيها الأشجعي من أهل البادية حرضت زوجها على الذهاب إلى المدينة ليبيع إبله ويفترض في العطاء، فأطاعها وساق إبله حتى إذا دنا من المدينة شرعها بحوض ليسقيها، فحنت ناقة منها ثم نزعت، وتبعها الإبل، وطلبها ففاتته، فقال لزوجته: «هذه الإبل لا تعقل وتحن إلى أوطانها». ثم قال شعرًا:

قالت أنيسة: دع بلادك والتمس	دارًا بطيبة ربة الآطام
تكتب عيالك في العطاء وتفترض	وكذاك يفعل حازم الأقوام
فهممت ثم ذكرت ليل لقاحنا	بذوي عنيزة أو بقف بشام
إذ هن عن حسبي مذاود كلما	نزل الظلام بعصبة أغنام
إن المدينة لا مدينة فالزمي	حقف السناد وقبة الأرحام
يجلب لك اللبن القريض وينتزع	بالعيس عن يمن إليك وشام
وتجاوري النفر الذين بنبلهم	أرمي العدو وإذا نهضت مرام

[48] المسعودي ١٥٧ ج٢.

[49] ابن الأثير ١٥٠ ج٣.

الباذلين إذا طلبت بلادهم والمانعي ظهري من الغرام[50]

ومن أقوال عبد الملك بن مروان: «أنعم الناس عيشًا من له ما يكفيه، وزوجة ترضيه، ولا يعرف أبوابنا الخبيثة فنؤذيه».[51]

وكان هم بنو أمية أهل المدينة؛ لأنهم شيعة عليّ وفيهم الأنصار ونخبة القرشيين، فكان عامل بني أمية فيها إذا اجتمع إليه مال الصدقة من الأطراف أقرض من أراد من قريش منه، وكتب بذلك صكًّا عليه فيستعبدهم به ويختلفون إليه ويدارونه. فإذا غضب على أحد منهم استخرج المال منه، وما زال هذا شأنهم إلى أيام الرشيد، فكلمه عبد الله بن مصعب في صكوك بقيت من ذلك فحرقت.[52]

وكانوا إذا عصاهم أحد من المسلمين قطعوا عطاءه، ولو كان العاصون بلدًا برمتها، كما فعل الوليد لما ثار عليه زيد بن علي، فقطع عطاء أهل الحرمين جميعًا[53] وحرم الوليد آل حزم من العطاء؛ لأن قتلة عثمان دخلوا إليه من دارهم في المدينة، وقبض أموالهم وضياعهم، وظلوا كذلك إلى أيام المنصور فأفرج عنهم[54] وكثيرًا ما كان الأنصار يمكثون بلا عطاء[55] ولا ذنب لهم إلا أنهم ينصرون أهل البيت. وقطع عبد الملك بن مروان أعطية آل سفيان، مع أنهم أمويون مثله، وإنما فعل ذلك لموجدة وجدها على خالد بن يزيد بن معاوية.[56]

فلا غرو إذا اضطر الناس إلى مسايرتهم والإذعان لهم، وهم يعلمون أنهم يُخالفون الحق بإذعانهم، وقد يصرحون بذلك فيما بينهم. كما حدث لما نصَّب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد، فأقعده في قبة حمراء وأقبل الناس يسلمون على معاوية بالخلافة، ثم على ابنه يزيد بولاية العهد، حتى جاء رجل منهم فسلم على الاثنين، ثم رجع إلى معاوية فقال: «يا أمير المؤمنين، أعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها». وكان

[50] الأغاني ١٤١ ج١٦.
[51] ابن الأثير ١٨٣ ج١٠.
[52] الأغاني ١٠٥ ج١٣.
[53] الأغاني ١١١ ج٦.
[54] العقد الفريد ٤١ ج٣.
[55] الأغاني ٦٢ ج١٠.
[56] العقد الفريد ١٣٢ ج١.

الأحنف بن قيس التميمي حاضرًا، فقال له معاوية: «ما بالك لا تقول يا أبا بحر؟» فقال: «أخاف الله إذا كذبت، وأخافكم إذا صدقت»، فقال معاوية: «جزاك الله على الطاعة خيرًا»، وأمر له بمال. فلما خرج لقيه ذلك الرجل فقال له: «يا أبا بحر، إني لأعلم أن شر من خلق الله هذا وابنه، ولكنهم استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فليس يطمع في استخراجها إلا بما سمعت».[٥٧]

(٧-٢) تدقيق علي وبخل ابن الزبير

ومما ساعد الأمويين على اصطناع الرجال بالأموال، أن مناظريهم أهل البيت وعبد الله بن الزبير كانوا قليلي العطاء، إما عن إمساك أو عن ورع، حتى قالوا: «وما رُؤي في الناس أبخل من أهل البيت، ولا من عبد الله بن الزبير»[٥٨] وكثيرًا ما كان إمساكهم سببًا في فشلهم وانحياز الناس إلى بني أمية، فمن أمثلة ذلك أن مصقلة بن هبيرة الشيباني كان عاملًا لعلي على أزدشيرخره، فرأى أسرى كان بعض رجال لعلي قد أسرهم، فاشتراهم منه شفقة عليهم، وهم ٥٠٠ إنسان بخمسمائة ألف، وأطلق سراحهم.

فطالبه علي بالمال، فأدى نحو النصف وطمع في الباقي، فألح عليه أصحاب علي فقال مصقلة: «أما والله لو كان ابن هند (يعني معاوية) ما طالبني بها، ولو كان ابن عفان لوهبها لي»، فقالوا: «إن عليًّا لا يترك شيئًا»، فهرب مصقلة من ليلته ولحق بمعاوية.[٥٩]

ومن أمثلة بخل ابن الزبير الذي أفسد عليه الأمر، أن أخاه مصعبًا لما قتل المختار بن أبي عبيد في العراق، وأخضع العراق لأخيه، وقد ساعده على ذلك وجوه أهل العراق، فجاء بهم حتى أتى أخاه في مكة وكان لائذًا بالكعبة وقال له: «يا أمير المؤمنين، جئتك بوجوه أهل العراق لم أدع لهم بها نظيرًا لتعطيهم من هذا المال»، فقال عبد الله: «جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيهم مال الله؟ والله لا فعلت». فلما علموا ذلك وسمعوا منه جفاءً

---

[٥٧] ابن خلكان ٢٣٠ ج١.

[٥٨] الأغاني ١٠٥ ج١٣.

[٥٩] ابن الأثير ١٨٨ ج٣.

انصرفوا من عنده، وكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب[60] وكان ذلك سببًا في ذهاب دولة ابن الزبير.

وقس على ذلك بخل العلويين في فرض العطاء، إلا لأهل التقوى أو من في معناهم. على حين أن بني أمية كانوا يفرضون للرجل ولأهله وأولاده، فقد فرض عبد الملك لعامر الشعبي (وما هو من رجال الحرب) ألفين في العطاء، وجعل عشرين من ولده، وأهل بيته في ألفين ألفين من أجل حديث حدثه إياه[61] وكانوا يفرضون للشعراء أعطية معينة يقبضونها في أوقاتها غير الجوائز، فمنهم من عطاؤه ألفان أو أكثر أو أقل. وإذا مدحوهم زادوا أعطيتهم ترغيبًا لهم في مدحهم، وكذلك كان يفعل عمالهم في سائر أنحاء المملكة الأموية. وأهل التقى من الخلفاء لا يرون للشعراء حقًّا في بيت المال[62] فعمر بن عبد العزيز كان إذا أحرجه شاعر، ولم ير مناصًّا منه أعطاه من ماله الخاص.[63]

على أن غير الأتقياء منهم كانوا يقطعون عطاء الشاعر إذا حاد عما يريدونه، كما فعل عبد الملك بن مروان بابن قيس الرقيات لما مدحه، فقال له عبد الملك: «والله لا تأخذ مع المسلمين عطاءً»[64] وكان عمر بن الخطاب يحرض القراء على التماس الرزق من عند أنفسهم، وألا يكونوا عالة على الناس[65] فكيف بالشعراء!

(٨) الاستكثار من الأموال في عصر الأمويين

وبذل الأموال لاصطناع الأحزاب جر بني أمية إلى خرق كثير من القواعد التي وضعها الخلفاء الراشدون لاقتضاء الأموال وإنفاقها. فقد كانت الأموال التي ترد على بيت المال تعد ملكًا للمسلمين، وليس الخليفة أو عامله إلا حافظًا لها؛ لينفقها في مصالحهم وتدبير شؤونهم، وله منها راتب معين يتناوله مثل سائر المسلمين، وقد رأيت أن أبا بكر توفي وليس في بيت ماله غير دينار، وأن عمر كان إذا احتاج إلى المال فوق راتبه استقرضه

[60] العقد الفريد ١١٩ ج١.
[61] الأغاني ١٧١ ج٩.
[62] الأغاني ٩٩ ج١٠.
[63] الأغاني ١١٨ ج١٧.
[64] الفرج بعد الشدة ١٢٣ ج٢ والأغاني ١٥٩ ج٤.
[65] العقد الفريد ٢٣٦ ج١.

من بيت المال حتى يؤديه من عطائه. وكان عمر يرى أنه لا ينبغي أن يبقى في بيت المال شيء، ونهى عن اختزان المال، وقد أشرنا إلى غرابة هذا الرأي في الجزء الثاني من هذا الكتاب. ونهى عمر أيضًا عن الزرع، وحرم على المسلمين اقتناء الضياع؛ لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع من بيت المال. أراد بذلك أن يبقوا جندًا على أهبة الرحيل، وأن تبقى البلاد التي فتحوها فيئًا يؤخذ من خراجها وجزية أهلها للإنفاق على المسلمين. ووضعوا لكل من الخراج والجزية والصدقة أحكامًا لجمعها وتفريقها على مقتضى الشرع.[٦٦]

(٨-١) عمال بني أمية

فلم اضطر بنو أمية إلى اصطناع الرجال وجمع الأحزاب واسترضاء القبائل وبناء المدن، أغضوا عن كثير من تلك الأحكام، وتوفقوا إلى عمال أشداء لا يبالون بالدين ولا أحكامه في سبيل أغراضهم، مثل زياد بن أبيه عامل معاوية، وعبيد الله بن زياد عامل ابنه يزيد، والحجاج بن يوسف عامل عبد الملك بن مروان، وخالد القسري عامل هشام بن عبد الملك وغيرهم. فكان الخلفاء يكتبون إلى عمالهم بجمع الأموال وحشدها، والعمال لا يبالون كيف يجمعونها. فقد كتب معاوية إلى زياد يقول: «اصطفَّ لي الصفراء والبيضاء»، فكتب زياد إلى عماله بذلك وأوصاهم أن يوافوه بالمال ولا يقسموا بين المسلمين ذهبًا ولا فضة[٦٧] وكان العمال من الجهة الأخرى يختصون أنفسهم بجانب من تلك الأموال وليس ثمة من يحاسبهم، وقد أطلق الخلفاء أيديهم في الأعمال ترغيبًا لهم في البقاء على ولائهم، فكان العمال يختزنون لأنفسهم الأموال الطائلة، حتى بلغت غلة أحدهم عشرة ملايين درهم في السنة وزادت ثروته على مائة مليون درهم[٦٨] وزادت نفقاتهم زيادة فاحشة، ولم يعد عندهم لراتب العمالة قيمة، حتى كتب أمية بن عبد الله إلى عبد الملك بن مروان يقول: «إن خراج خراسان لا يفي بمطبخي»،[٦٩] فلما رأى الخلفاء استئثار العمال بالأموال عمدوا إلى مصادرتهم، فكانوا إذا علموا بمال عند أحدهم أنفذوا إليه من يقبض أمواله ويتولى العمل مكانه، والكل طامعون في الكسب لأنفسهم.

[٦٦] الجزء الأول من هذا الكتاب.

[٦٧] العقد الفريد ١٨ ج١ وابن الأثير ٢٣٧ ج٣.

[٦٨] الأغاني ٦٢ ج١٩ وابن خلكان ٣٦١ ج٢.

[٦٩] الأغاني ٥٦ ج١٣.

وكان العمال لا يرون حرجًا في ابتزاز الأموال من أهل البلاد التي فتحوها عنوة، لاعتقادهم أنها فيء لهم كما تقدم. وكقول عامل بني أمية في العراق: «السواد بستان قريش، ما شئنا أخذنا منه، وما شئنا تركناه». وقد سأل صاحب إخنا بمصر عمرو بن العاص أن يخبره بما عليه من الجزية فأجابه: «لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك بما عليك، إنما أنتم خزانة لنا، إن كثر علينا كثرنا عليكم، وإن خفف عنا خففنا عنكم».[٧٠] ومن قال ذلك يعد مصر فتحت عنوة، وقال غيره: «الصغد بستان أمير المؤمنين».

(٨-٢) الإسلام والجزية

فكان العمال يبذلون الجهد في جمع الأموال بأية وسيلة كانت، ومصادرها الجزية والخراج والزكاة والصدقة والعشور. وأهمها في أول الإسلام الجزية لكثرة أهل الذمة، فكان عمال بني أمية يشددون في تحصيلها، فأخذ أهل الذمة يدخلون في الإسلام، فلم يكن ذلك لينجيهم منها؛ لأن العمال عدوا إسلامهم حيلة للفرار من الجزية وليس رغبة في الإسلام، فطالبوهم بالجزية بعد إسلامهم. وأول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف[٧١] واقتدى به غيره من عمال بني أمية في أفريقية وخراسان وما وراء النهر، فارتد الناس عن الإسلام وهم يودون البقاء فيه، وخصوصًا أهل خراسان وما وراء النهر، فإنهم ظلوا إلى أواخر أيام بني أمية لا يمنعهم عن الإسلام إلا ظلم العمال بطلب الجزية منهم بعد إسلامهم، فبعث إليهم رجلًا اسمه أبو الصيداء فقال الرجل: «أخرج إليهم على شريطة أن من أسلم لا تؤخذ منه الجزية»، فقال أشرس: «نعم» فشخص إلى سمرقند ودعا أهلها إلى الإسلام على أن توضع الجزية عنهم. فسارع الناس إلى الإسلام وقل الخراج، فكتب عاملها إلى أشرس: «إن الخراج قد انكسر»، فأجابه: «إن في الخراج قوة للمسلمين، وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة في الإسلام، وإنما أسلموا تعوذًا من الجزية، فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه»، ففعل الناس ذلك وبنوا المساجد، وكتب العمال بذلك إلى أشرس فأجابهم: «خذوا الخراج ممن

[٧٠] المقريزي ٧٧ ج١.

[٧١] راجع الجزء الأول من هذا الكتاب.

كنتم تأخذونه» فأعادوا الجزية على من أسلم، فامتنعوا واعتزلوا في سبعة آلاف على عدة فراسخ من سمرقند، وكانت بسبب ذلك فتنة ارتد عن الإسلام بسببها أهل الصغد وبخارا واستجاش الترك. وما زالوا كذلك حتى تولى خراسان نصر بن سيار وقد عرف موضع الخطأ، فأعلن سنة ١٢١هـ أنه وضع الجزية عمن أسلم، وجعلها على من كان يخفف عنه من المشركين، فلم يمض أسبوع حتى أتاه ٣٠٠٠٠ مسلم كانوا يؤدون الجزية.[٧٢]

ناهيك بما كان يرتكبه بنو أمية من زيادة الخراج وضرب الضرائب[٧٣] والاستئثار بالفيء. ولم يقم من خلفائهم من نهي عن ذلك إلا عمر بن عبد العزيز، فإنه لم ينفق من بيت المال درهمًا على نفسه ولا أخذ منه شيئًا[٧٤] وأمر أهله بذلك فلم يلق سامعًا. وهو الذي كتب إلى عماله لما ولي الخلافة: «ضعوا الجزية عمن أسلم، إن الله بعث محمدًا هاديًا ولم يبعثه جابيًا»، ولم تطل مدة حكمه[٧٥] وأراد يزيد بن الوليد أن يتشبه به فتبعه. وكان في جملة ضرائبهم أن يأخذ الخليفة لنفسه نصف دية المعاهد، فأبطلها عمر بن عبد العزيز.[٧٦]

(٨-٣) الصدقة والرشوة

واضطر الأمويون للاستكثار من الأموال أن يمدوا أيديهم إلى أموال الصدقة، وهي الزكاة تؤخذ من أغنياء المسلمين وتنفق في فقرائهم، خلافًا لسائر أموال الدولة كالفيء والغنيمة والجزية فإنها تفرق في المقاتلة والجند. فكان بنو أمية كثيرًا ما يعطون جوائز الشعراء ونحوهم من أموال الصدقة[٧٧] وحقها أن تعطى من مال الخليفة الخاص، أو من مال الفيء ونحوه باعتبار أن تلك الجائزة مما ينفع المسلمين في تأييد دولتهم. أو لعل الخليفة اعتبر الشعراء من فقراء المسلمين فأعطاهم من الصدقة، وهو خلاف المألوف؛ لأنه إنما أجازهم؛ لأنهم مدحوه فعليه أن يجيزهم من ماله الخاص. وكانوا أيضًا كثيرًا ما يعطون

[٧٢] ابن الأثير ٢٦١ ج٤ و٦٨ و١١١ ج٥.

[٧٣] الجزء الثاني من هذا الكتاب.

[٧٤] العقد الفريد ٢٦٢ ج٢.

[٧٥] المقريزي ٧٨ ج١.

[٧٦] الأغاني ١٣ ج١٥.

[٧٧] الأغاني ١٥٦ ج١١.

أرزاق المسلمين من مال الصدقة، والمحاربون يستنكفون من ذلك ويعدونه حطة في مقامهم، كما اتفق لأهل المدينة وقد جاءهم الخليفة عبد الملك حاجًّا وأمر للناس بالعطاء، فخرجت البدر مكتوب عليها «الصدقة» فأبى أهل المدينة قبولها، وعدوا ذلك إهانة لهم تعمدها عبد الملك؛ لأن أهل المدينة من أنصار أهل البيت وقالوا: «إنما عطاؤنا من الفيء» فضرب عبد الملك مثلًا كشف لهم به عما بينه وبينهم من التضاغن من عهد مقتل عثمان ويوم الحرة.

وكانوا كثيرًا ما يعمدون إذا أعوزهم المال إلى بيع الولايات بالرشوة، وخصوصًا في أيام ضعفهم وفساد دولتهم. فإن الوليد بن يزيد لما تولى الخلافة زاد أعطيات الناس ترغيبًا لهم في طاعته، فلم يجد مالًا يكفيه، ولم يكن عنده من العمال الأشداء من يوافيه بالأموال حالًا، فكان من جملة ما استعان به على جمع الأموال أنه باع ولاية خراسان وأعمالها ليوسف بن عمر، وصارت الولايات في أيامه بالرشى للخليفة وأصحابه[٧٨] وكانت الولايات تعطى في أيام أسلافه جزاء على خدمة، كما أعطى معاوية عمرو بن العاص مصر مكافأة لنصرته على علي، فاقتدى به خلفاؤه. فكانوا إذا التمس أحدهم الأحزاب أطمع رؤساءها بالولايات، وصار ذلك مشهورًا حتى أصبح الأمير إذا دعي لنصرة أحد الخلفاء اشترط مالًا أو ولاية معينة. ومما يحكى أن عبد الملك بن مروان، في أثناء محاربته مصعب بن الزبير في العراق، بعث إلى أهل الكوفة والبصرة يدعوهم إلى نفسه ويمنيهم، فأجابوه وشرطوا عليه شروطًا وسألوه الولايات. ومن غريب الاتفاق أن أربعين رجلًا منهم سألوه ولاية أصبهان، فقال عبد الملك لمن حضره: «ويحكم! ما أصبهان هذه؟» تعجبًا ممن يطلبها.[٧٩]

(٩) الاستخفاف بالدين وأهله

لما طلب الأمويون الخلافة لأنفسهم، وهم يعلمون أن أهل البيت أحق بها منهم، وأن حجة أهل البيت في طلبها مبنية على أساس صحيح، كان أكثر الفقهاء والعلماء وسائر رجال الدين يرون رأيهم ويؤيدون دعوتهم، ولكن العصبية كانت مع الأمويين، والقوة

[٧٨] ابن الأثير ١٢٥ و١٢٦ و١٣٢ ج٥.

[٧٩] الأغاني ١٦٢ج ١٧.

غالبة. أما الفقهاء وسائر أهل التقوى فكانوا لا ينفكُّون عند سنوح الفرصة عن تفضيل أهل البيت، وتذكير الأمويين بما يرتكبونه في سبيل التغلب من الظلم والقسوة والتعدِّي، ويعظونهم ويذكرونهم بتقوى الله. وكان معاوية لحلمه ودهائه يغضي عن أقوالهم، ويقطع ألسنتهم بالعطاء والمحاسنة والحلم. فتعودوا ذلك وبالغوا فيه، حتى إذا أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان عمد إلى الشدة والعنف، فحج سنة ٧٥هـ بعد مقتل ابن الزبير، ولما جاء المدينة وفيها أنصار أهل البيت خطب فيها خطابًا قال فيه:

> أما بعد فإني لست بالخليفة المستضعف (يعني عثمان) ولا بالخليفة المداهن (يعني معاوية) ولا بالخليفة المأفون (يعني يزيد). ألا وأني لا أداوي هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم. وإنكم تحفظون أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون مثل أعمالهم. وإنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم. والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه.

فهو أول من نهى عن المعروف[٨٠] فعظم ذلك على أعداء بني أمية حتى تحسروا على أيام معاوية، وقالوا قول ابن الزبير فيه لما جاءه نعيه: «رحم الله معاوية، إنا كنا لنخدعه فيتخادع لنا».

(٩-١) استهانة بعض الأمويين بالمقدسات

أما عبد الملك فكان يرى الشدة ويجاهر بطلب التغلب بالقوة والعنف، ولو خالف أحكام الدين. وقد يتبادر إلى الذهن أنه فعل ذلك اقتداءً بعامله ونصيره ومؤيد دولته الحجاج بن يوسف، ولا نظنه مقتديًا بذلك؛ لأنه صرح باستهانة الدين منذ ولي الخلافة، وكان قبلها يتظاهر بالتدين فلما تولاها استهوته الدنيا. ذكروا أنه لما جاءوه بخبر الخلافة كان قاعدًا والمصحف في حجره فأطبقه وقال: «هذا آخر العهد بك» أو «هذا فراق بيني وبينك»[٨١] فلا غرو بعد ذلك إذا أباح لعامله الحجاج أن يضرب الكعبة بالمنجنيق، وأن يقتل ابن الزبير ويحتز رأسه بيده داخل مسجد الكعبة،[٨٢] والكعبة حرم لا يجوز القتال فيها ولا

[٨٠] ابن الأثير ١٩٠ و٢٥١ ج٤.

[٨١] أبو الفداء ٢٠٥ ج١ وسراج الملوك ٩٦.

[٨٢] العقد الفريد ٢٥٦ ج٢.

في جوارها، فأحلوه وظلوا يقتلون الناس فيها ثلاثًا، وهدموا الكعبة، وأوقدوا النيران بين أحجارها وأستارها[83] مما لم يحدث مثله في الإسلام، ودخلوا المدينة وهي أحد الحرمين وقاتلوا أهلها وسفكوا دماءهم، لم يغلق لها باب إلا أحرق ما فيه، حتى إن الأقباط والأنباط كانوا يدخلون على نساء قريش فينزعون خمرهن من رؤوسهن وخلاخلهن من أرجلهن، بسيوفهم على عواتقهم والقرآن تحت أرجلهن.[84]

ناهيك بمن قتلوه من الصحابة والتابعين وأهل التقوى صبرًا، وإنما أرادوا بذلك تحقير أمر علي وشيعته تأييدًا لسلطانهم؛ ولهذا السبب أيضًا لعنوه على المنابر، وأمروا الناس بلعنه وقتلوا من لم يلعنه. وأول من قتل صبرًا في هذا السبيل حجر بن عدي الكندي في أيام معاوية[85] وظلوا يلعنون عليًّا على المنابر إلى أيام عمر بن عبد العزيز فأبطل ذلك.

(٩-٢) الخلافة والنبوة في رأي بعض العمال

وفق بنو أمية إلى عمال أشداء زادوهم استبدادًا وشدة، بما توخوه من تمليقهم بالتعظيم والتغرير مما يخالف أحكام الدين. وأول من تجرأ على ذلك الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك، فإنه سمى الخليفة «خليفة الله»، وعظم أمر الخلافة حتى فضلها على النبوة فكان يقول: «ما قامت السموات والأرض إلا بالخلافة، وإن الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين؛ لأن الله خلق آدم بيده، وأسجد له الملائكة وأسكنه جنته ثم أهبطه إلى الأرض وجعله خليفة، وجعل الملائكة رسلًا». وإذا حاجه أحد في ذلك قال: «أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله في حاجته؟». وكان عبد الملك إذا سمع ذلك أعجب به[86] واقتدى بالحجاج من جاء بعده من العمال الأشداء كخالد القسري عامل هشام بن عبد الملك فقد كان يقول قول الحجاج، وخطب الناس في مكة مرة فقال: «أيها الناس، أيهما أعظم، أخليفة الرجل على أهله أم رسوله إليهم؟» يعرض أن هشامًا

[83] ابن الأثير ٣٦ ج٥.

[84] ابن خلكان ٢٧٤ ج٢.

[85] المسعودي ٣٩ ج٢.

[86] العقد الفريد ١٨ ج٣ والمسعودي ١٠٤ ج٢.

خير من النبي[٨٧] واقتدى بالعمال سائر الملقين من وجوه الدولة، وفيهم جماعة كبيرة إنما أسلموا رغبة في الدنيا فزادوا الأمور فسادًا. وكانوا يملقون العمال من هذا القبيل ويجرئونهم على خرق حرمة الدين: ذكروا أن خالد القسري كان قليل العناية في حفظ القرآن، فإذا تلا آيةً أخطأ فيها وألحن في نطقها، فوقف مرة للخطابة فقال وأخطأ، ثم ارتج عليه وفشل، فنهض صديق له من تغلب فقال: «خفض عليك أيها الأمير ولا يهولنك، فما رأيت قط عاقلًا حفظ القرآن، وإنما يحفظه الحمقى من الرجال» فقال خالد: «صدقت، يرحمك الله!».[٨٨]

فلا غرو بعد ذلك إذا قيل لنا: أن الوليد بن يزيد، سكير بني مروان، رمى القرآن بالنشاب وهو في مجونه وسكره. فقد ذكروا أنه عاد ذات ليلة بمصحف فلما فتحه وافق ورقة فيها ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ فأمر بالمصحف فعلقوه وأخذ القوس والنبل وجعل يرميه حتى مزقه ثم قال:

أتوعد كل جبار عنيد؟ فها أنا ذاك جبار عنيد!
إذا لاقيت ربك يوم حشر فقل لله: مزقني الوليد![٨٩]

فلم يكن يهم بني أمية نشر الإسلام، وإنما كان همهم الفتح والتغلب وحشد الأموال، فتوقف نشر الإسلام على عهدهم في الأطراف البعيدة كالسند وتركستان مع رغبة أهلهما فيه، وإنما نفرهم منه شدة بني أمية وجشعهم، فكانوا يسلمون ثم يرتدون تبعًا لما يرونه من المعاملة الحسنة أو السيئة. فلما تولى عمر بن عبد العزيز التقى الورع، وسار على خطوات سميه ابن الخطاب، كتب إلى ملوك السند وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وكانت سيرته قد بلغتهم فأسلموا أو تسموا بأسماء العرب. فلما قتل عمر المذكور سنة ١٠١هـ، وعاد بنو أمية إلى سابق سيرتهم ارتد أولئك عن الإسلام.[٩٠]

[٨٧] ابن الأثير ٢٥٧ ج٤ و١٣٠ ج٥ والأغاني ٦٠ ج١٩.
[٨٨] الأغاني ٦٣ ج١٩.
[٨٩] الأغاني ١٢٥ ج٦ والمسعودي ١٣٤ ج٢.
[٩٠] ابن الأثير ٢٧٣ ج٤ و٥٦ ج٥.

وقس على ذلك ما ارتكبه الأمويون من قتل أبناء علي وصلبهم والمثلة بهم، غير من قتلوه من التابعين وأهل الصلاح صبرًا، وأكثرهم إقدامًا على ذلك عاملهم الحجاج بن يوسف.

(١٠) الفتك والبطش في عصر الأمويين

كان المسلمون في أيام الراشدين يرون الطاعة للإمام واجبة، لا يحتاجون في سياسة شؤونهم إلى حيلة أو عنف، ولا يحيدون عن الحق في أعمالهم أو أقوالهم. إذا أذنب أحدهم اعترف بذنبه وأذعن لما يفرضه الخليفة عليه من القصاص ونحوه، فلم تكن الأحكام تحتاج إلى بحث أو نقض أو حيلة، ولا تنفيذها يفتقر إلى شدة أو عنف. وربما اقتصر القصاص على التوبيخ أو اللوم، وإذا أخطأ الخليفة حكم على نفسه كما يحكم على رعيته. ولم يكن عندهم سجن يحبس فيه الناس، وأول من وضع السجن معاوية، وهو أيضًا وضع الحرس[٩١] لقلة الحاجة إلى ذلك في عصر الراشدين، فكان عمر بن الخطاب يأمر القائد من كبار الصحابة أن يأتيه فيأتي صاغرًا، مع علمه أنه لو امتنع عن المجيء لعجز الخليفة عن استقدامه. وقد يأمر بجلد الرجل منهم فيذعن مطيعًا. وكان عمر لا يتغاضى عن الذنب الصغير خوفًا من الذنب الكبير؛ ولذلك اشتهر بالحزم والصرامة.

فلما تولى الخلافة معاوية، وسلم الأعمال إلى دهاته في العراق، وفارس ومصر وغيرها، والمسلمون لا يزالون في أريحيتهم وأنفتهم، وقد أطلق معاوية ألسنتهم بحلمه وسعة صدره، خاف العمال أن يجر ذلك إلى استفحال الأمر فعمدوا إلى الشدة. وأول من توخى الشدة والعنف زياد بن أبيه عامل معاوية على العراق، زعم أنه يفعل ذلك اقتداءً بعمر بن الخطاب في إقامة السياسات بالصرامة والحزم، ولكنه أسرف وتجاوز الحد. وهو أول من شدد أمر السلطة وأكد الملك لمعاوية، فجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة[٩٢] وتولى العراق بعده ابنه عبيد الله بن زياد في خلافة يزيد بن معاوية، وفي أيامه قام الحسين بن علي يطالب بالخلافة، وقد نقض بيعة يزيد وحمل على العراق، فكتب يزيد إلى ابن زياد: «احبس على التهمة، وخذ بالظنة، غير أن لا تقتل إلا من قاتلك».[٩٣]

[٩١] المقريزي ١٨٧ ج٢.

[٩٢] ابن الأثير ٢٢٨ ج٣.

[٩٣] ابن الأثير ١٨ ج٤.

ولما أفضت ولاية العراق إلى الحجاج بن يوسف في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥–٨٦هـ)، وقد كثر المطالبون بالخلافة، أراد الحجاج أن يتشبه بزياد وابنه في الشدة والعنف، فبالغ في ذلك حتى أهلك ودمر[٩٤] ولم يكن الحجاج أشد وطأة من زياد أو ابنه، ولكن زيادًا كان يزجره حلم معاوية، وابن زياد يزجره أمر يزيد أن لا يقاتل إلا من قاتله. وأما الحجاج فقد أعانته شدة عبد الملك على المبالغة في الشدة، فأكبر المسلمون ذلك ونقموا على تلك الدولة، وكثر الخارجون عليها واتهموا خلفاءها بالمروق من الدين. ومن أقوال الخوارج فيهم: «أن بني أمية فرقة بطشهم بطش جبارين: يأخذون بالظنة، ويقضون بالهوى، ويقتلون على الغضب».[٩٥]

(١٠-١) بسر بن أرطاة وقتل الأطفال

على أن سياسة بني أمية كانت من أول أمرها مبنية على الشدة والحزم، على ما تقتضيه سياسة الممالك في ذلك العصر، ثم تجاوزوا الحدود ولم يبالوا بالفتك والقتل في سبيل تأييد دعوتهم والتغلب على أعدائهم. فكانوا يطلقون أيدي عمالهم في الأحكام، يقتلون ويصلبون على ما يتراءى لهم بدون مشورة الخليفة، مع أن ذلك لم يكن جائزًا في أيام الراشدين؛ لأن الخليفة منهم كان وهو مقيم في المدينة يدير شؤون الرعايا في أطراف المملكة، وهذا الذي أراد عمر بن عبد العزيز أن يرجع إليه في أيام خلافته فلم يفسح له الأجل.[٩٦] فلما مات كتب خليفته يزيد بن عبد الملك إلى عماله أن يعودوا إلى ما كانوا عليه قبلًا من الشدة والبطش.[٩٧]

فكان الخلفاء من بني أمية يرون في إطلاق أيدي عمالهم أو قوادهم تشجيعًا لهم وتنفيذًا لأغراضهم. وربما حرضهم الخليفة على الفتك عند الحاجة، حتى في أيام معاوية، فإنه أرسل بسر بن أرطاة بعد تحكيم الحكمين وعلى بن أبي طالب يومئذ حي، وأرسل معه جيشًا. ويقال: إنه أوصاهم أن يسيروا في الأرض ويقتلوا كل من وجدوه من شيعة

[٩٤] ابن خلكان ١٢٤ ج١ والبيان للجاحظ ١٧٥ ج١ والعقد الفريد ٣ ج٣.

[٩٥] البيان والتبيين ١٩٥ ج١.

[٩٦] ابن الأثير ٢٩ ج٥.

[٩٧] العقد الفريد ٢٦٥ ج٢.

علي، ولا يكفوا أيديهم عن النساء والصبيان. فسار بسر على وجهه حتى انتهى إلى المدينة، فقتل فيها أناسًا من أصحاب علي وهدم دورهم، ومضى إلى مكة وغيرها يقتل ويهدم، حتى أتى اليمن وعليها عبيد الله بن عباس عامل علي وابن عمه، وكان غائبًا فرارًا من القتل، فوجد بسر ابنين له صبيين أسماهما عبد الرحمن وقثم، فأخذهما وذبحهما بيده بمدية كانت معه.[٩٨] وذكروا أن الغلامين كانا عند رجل من كنانة بالبادية، فلما أراد بسر قتلهما قال الكناني: «تقتل هذين ولا ذنب لهما؟ فإن كنت قاتلهما فاقتلني معهما» فقتله وقتلهما معه، فصاحت امرأة من كنانة: «يا هذا قتلت الرجال فعلام تقتل هذين؟ والله ما كانوا يقتلون في الجاهلية ولا الإسلام، والله يا ابن أرطاة إن سلطانًا لا يقوم إلا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الأرحام لسلطان سوء». وقالت أم الصبيين شعرًا في رثائهما كانت تنشده في المواسم مطلعه:

يا من أحس بابني اللذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف

على أننا لا نظن معاوية كان راضيًا عن ذلك العمل الفظيع؛ لأنه يخالف دهاءه وحلمه، ونظنه أطلق يد بسر ولم يعين له حدودًا، وكان بسر سفاكًا للدماء فلم يستثن طفلًا ولا شيخًا. ويؤيد ذلك ما أراد فعله بأولاد زياد بن أبيه بعد موت علي، إذ خاف معاوية زيادًا وكان عامله على فارس فأمر بسر أن يستقدمه إليه، فأمسك بسر أولاد زياد وكتب إليه: «أما تأتي حالًا أو أقتل أولادك»، فلما بلغ معاوية ذلك منع بسرًا من قتلهم.[٩٩]

فإذا كان هذا حال العمال في أيام معاوية مع حلمه وطول أناته، فكيف في أيام عبد الملك مع شدته وفتكه. فهل يستغرب ما يقال عن فتك الحجاج وكثرة من قتلهم صبرًا ولو كانوا ١٢٠٠٠٠، وهل يستبعد أن يكون في حبسه عند موته ٥٠٠٠٠ رجل و٣٠٠٠٠ امرأة؟[١٠٠] وكان عبد الملك أشد وطأة منه وأجرأ على الغدر والفتك، بل هو أول من غدر في الإسلام بعد أن أعطى الأمان — وذلك أن عمرو بن سعيد الأشدق أحد أمراء عبد الملك طمع في الملك لنفسه، فاغتنم خروج عبد الملك من دمشق سنة ٦٩هـ لحرب مصعب بن

[٩٨] الأغاني ٤٤ ج١٥.

[٩٩] ابن الأثير ١٩٥ و٢١١ ج٣.

[١٠٠] المسعودي ١١٣ ج٢ والكشكول ٣٢.

الزبير في العراق، وجاء إلى الشام ووضع يده عليها. فبلغ عبد الملك ذلك وهو في الطريق، فرجع حالًا إلى دمشق وقاتل عمرًا أيامًا فلم يقدر عليه، فخاف على سلطانه فاحتال في عقد الصلح فرضي عمرو وكتبا بينهما كتابًا فيه أمان عبد الملك له. فاطمأن خاطر عمرو المذكور، وخرج إلى الخليفة حتى أوطأ فرسه أطناب عبد الملك، ثم دخل عليه فاجتمعا ودخل عبد الملك دمشق.

وبعد دخوله بأربعة أيام أرسل إلى عمرو فأجابه أنه آت العشية، وأتاه في مئة من مواليه، ودخل على عبد الملك وعنده جماعة من بني مروان، وقد بقي مواليه خارجًا. فاستقبله عبد الملك حتى أجلسه معه على السرير وجعل يحادثه، ثم أمر أحد الغلمان أن يأخذ سيفه وقال له: «أتطمع أن تجلس معي متقلدًا سيفك؟» فأعطاه السيف. ثم قال عبد الملك: «يا أبا أمية (عمرو) إنك حينما خلعتني آليت بيمين إن أنا ملأت عيني منك وأنا مالك لك أن أجعلك في جامعة»، فقال له الحضور من بني مروان: «ثم تطلقه يا أمير المؤمنين؟»، قال: «نعم، وما عسيت أن أصنع بأبي أمية؟». فقال بنو مروان لعمرو: «أبر قسم أمير المؤمنين»، فقال: «قد أبر الله قسمك يا أمير المؤمنين». فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة وقال: «يا غلام قم فاجمعه فيها»، فقام الغلام فجمعه فيها فقال عمرو: «أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجني فيها على رؤوس الناس»، فقال: «أمكر يا أبا أمية عند الموت؟ لا والله ما كنا لنخرجك في جامعة على رؤوس الناس». ثم جذبه جذبة فوقع وأصاب فمه السرير فكسر ثنيته، فقال عمرو: «اذكر الله يا أمير المؤمنين، كسر عظم مني فلا تركب ما هو أعظم من ذلك»، فقال عبد الملك: «والله لو أعلم أنك تبقي علي لو أبقيت عليك وتصلح قريش لأطلقتك، ولكن ما اجتمع رجلان في بلدة قط على ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما صاحبه». فلما رأى أنه يريد قتله قال: «أغدر يا ابن الزرقاء؟» ثم قتله عبد الملك.[١٠١]

وترى مما دار بينهما أن الذي جر عبد الملك إلى هذا الغدر كثرة الطامعين في السلطة، ولا رادع لهم من عند أنفسهم كما كانوا في عصر الدين والتقوى، فأصبح القوي يأكل الضعيف ومن سبق إلى قتل صاحبة ملك، وهي سياسة الفتك. وقد نفعتهم هذه السياسة في تأييد سلطانهم، ثم صارت سنة فيمن ملك بعدهم من بني العباس وغيرهم. وآخر حادثة جرت من هذا القبيل فتك محمد علي باشا بالمماليك، وقد عمد بنو أمية إلى

[١٠١] ابن الأثير ١٤٦ ج٤.

ذلك استعجالًا للنصر وتخلصًا من أسباب النزاع، فإذا خرج عليهم خارج جعلوا همهم قتله، لعلمهم أنه إذا قتل تفرق أصحابه، وإذا لم يتفرقوا استرضوهم بالأموال أو نحوها.

(١٠-٢) خزانة الرؤوس

وكانوا يقتلون الخارجين عليهم ويمثلون بقتلاهم إرهابًا لأحزابهم، فيقطعون رأس الرجل ويطوفون به من بلد إلى بلد أو يصلبون الجثة حيث تزدحم الأقدام — كانوا يفعلون ذلك على الخصوص برؤساء الأحزاب ولا سيما العلويين، فكان العامل الأموي يقتل الخارج على الدولة ويبعث برأسه إلى الخليفة في الشام ليطاف به في الأسواق. وأول رأس حمل من بلد إلى بلد رأس عمر بن الحمق الخزاعي[١٠٢] أحد قتلة عثمان، وأول رأس طيف به في الأسواق رأس محمد بن أبي بكر[١٠٣] وأول رأس حمل إلى الخلفاء رأسا هانئ وابن عقيل من أشياع الحسين في الكوفة، ثم رأس الحسين بن علي، أرسله ابن زياد من الكوفة إلى يزيد بن معاوية في الشام، وكذلك فعل المختار برؤوس قتلة الحسين، فإنه أرسلها إلى محمد بن الحنفية.[١٠٤] وهكذا فعل الحجاج برأس عبد الله بن الزبير ورؤوس أصحابه، فإنه أرسلها من مكة إلى عبد الملك بن مروان في الشام، وكذلك فعل عبد الملك برأس مصعب بن الزبير، فإنه سيره من الكوفة إلى الشام فنصب فيها.[١٠٥]

ومن غريب ما يحكى أنهم لما جاءوا إلى عبد الملك برأس مصعب بن الزبير، وهو جالس في طاق بالكوفة، كان ابن عمير اللخمي حاضرًا عنده، فلما رأى الرأس بين يدي عبد الملك ارتعد. فقال له عبد الملك: «ما لك؟»، قال: «أعيذ بالله أمير المؤمنين! كنت في هذا الطاق بهذا الموضع مع عبيد الله بن زياد فرأيت رأس الحسين بن علي بين يديه في هذا المكان، ثم كنت مع المختار بن أبي عبيد الثقفي، فرأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يديه، ثم كنت فيه مع مصعب بن الزبير هذا فرأيت فيه رأس المختار بين يديه، ثم هذا

[١٠٢] المعارف ١٨٧ وطبعة القاهرة ١٩٣٥ ص ٢٤١.

[١٠٣] العقد الفريد ٣٩ ج١.

[١٠٤] ابن الأثير ١١٩ ج٤.

[١٠٥] ابن الأثير ١٦٢ ج٤.

رأس مصعب بن الزبير بين يديك!» فتشاءم عبد الملك من ذلك، وقام فأمر بهدم ذلك الطاق.[١٠٦]

وصار قطع الرؤوس على هذه الصورة سنة في عصر بني أمية ومن جاء بعدهم من بني العباس، وصار للرؤوس في دار الخلافة خزانة يحفظونها فيها: كل رأس في سقط خاص[١٠٧] وجرت العادة أيضًا بصلب الجثث أو الرؤوس. لكنهم لم يكونوا ينصبون إلا رؤوس الخوارج[١٠٨] ويطوفون بها على رمح، وكان بنو أمية يعدون العلويين خوارج، فكانوا إذا قتلوا أحدهم صلبوه.

ومن هذا القبيل تشديدهم في العذاب قبل القتل، ولعل ذلك من مخترعات الحجاج لإرهاب أعدائه وإخضاعهم بالعنف. فمن ضروب التعذيب أنه كان يأتي بالقصب الفارسي، فيشقه ويشده على الرجل وهو عار، ثم يسله قصبة قصبة حتى يقطع جسده، ثم يصب عليه الخل والملح حتى يموت[١٠٩] فعل ذلك ببعض الذين حاربوه مع ابن الأشعث إرهابًا لسواهم. وكان الخوارج أيضًا يفعلون نحو ذلك بمن ظفروا به من أعدائهم، حتى لقد يضعون الأطفال في القدور وهي تفور[١١٠] إما اشتفاءً أو انتقامًا أو إرهابًا.

(١١) الموالي وأحكامهم في عصر الأمويين

(١١-١) تكاثر الموالي

أفضت الخلافة إلى الأمويين في أواسط القرن الأول للهجرة، وعدد الموالي آخذ في الزيادة بموالاة الفتح وتكاثر الرقيق بالأسر أو الإهداء؛ لأن العمال كثيرًا ما كانوا يبعثون بمئات أو ألوف من الرقيق الأبيض والأسود إلى بلاط الخليفة هدية أو بدلًا من الخراج أو نحوه[١١١] والخليفة يفرق ذلك في أهل بطانته أو قواده، وهؤلاء يفرقونه فيمن حولهم أو

[١٠٦] ابن خلكان ٢٨٦ ج١.

[١٠٧] الفخري ٢٤٨ ج٢.

[١٠٨] العقد الفريد ٢٧٣ ج٢.

[١٠٩] المعارف ١١٥.

[١١٠] المسعودي ١٢٣ ج٢.

[١١١] المسعودي ٣٥٤ ج٢.

يبيعونه فينتقل إلى الناس على اختلاف طبقاتهم، فمن أنجب من أولئك الأرقاء أو أعتق لسبب من الأسباب صار مولى، وذلك كثير وعادى يومئذ — غير الذين كانوا يدخلون في الولاء بالعقد وغيره. فتزايد عدد الموالي في عصر الأمويين زيادة عظيمة، وصاروا يتقربون من مواليهم بما يحتاجون إليه من شؤونهم، فاستخدمهم العرب في مصالحهم الصناعية أو الزراعية أو الدينية أو العلمية، واشتغلوا هم بالرياسة والسياسة؛ ولذلك كان أكثر القراء والشعراء والمغنين والكتاب والحجاب من الموالي.

وقد يثري المولى فيبتاع العبيد ويعتقهم فيصيرون من مواليه، وهؤلاء إذا استطاع أحدهم أو بعض أولاده اقتناء العبيد وإعتاقهم صاروا مواليه، وهكذا حتى يتفق أحيانًا أن يكون الرجل مولى مولى، أو مولى مولى مولى أو أكثر — فعبد الله بن وهب الفقيه المالكي الشهير كان مولى يزيد بن زمانة، وهذا مولى يزيد بن أنس الفهري. وكذلك حماد بن سامة، والليث بن سعد، وأبو أسامة وغيرهم. وكان ابن مناذر الشاعر مولى سليمان القهرمان، وسليمان مولى عبيد الله بن أبي بكرة، وعبيد الله من موالي النبي ﷺ.[112] وأغرب من ذلك أن عبيد الله هذا ادَّعى أنه عربي من ثقيف، وادَّعى سليمان القهرمان أنه عربي من تميم، وادَّعى ابن مناذر أنه عربي من بني جبير بن يربوع، فيكون ابن مناذر مولى مولى مولى، ودعيًّا لمولى لمولى دعيّ مولى دعيّ. وقد بلغت نسبة الولاء عندهم إلى خمس درجات، فداود بن خالد بن دينار وإخوته من أهل الحديث، وكلهم من موالي آل حنين، وآل حنين موالي مثقب، ومثقب مولى مسحل، ومسحل مولى شماس، وشماس مولى العباس بن عبد المطلب[113] فهو مولى مولى مولى مولى مولى. وقس على ذلك، مما يدل على تكاثر الموالي في ذلك العصر، وفيهم الفارسي والفرغاني والتركي والديلمي والخراساني والرومي والبربري والسندي وغيرهم، يشتغلون بما يحتاج إليه العرب من المهن والصناعات والآداب.

ناهيك بالموالي المحاربين، فقد كان في كل قبيلة من العرب عدد كبير منهم، ربما زاد على عددها، فإذا خرجت للحرب خرجوا معها، وحاربوا في سبيل نصرتها. واختلف عدد الموالي بالنسبة إلى مواليهم باختلاف الأعصر، ففي أيام على كانت نسبة الموالي الأحرار ممن يخرجون إلى الحرب كنسبة واحد إلى خمسة،[114] ثم تكاثر الموالي في عصر الأمويين

[112] الأغاني ٩ ج١٧.

[113] المعارف ١٩٧.

[114] ابن الأثير ١٧٣ ج٣.

حتى زاد عددهم على عدد الأحرار. وبنو أمية مع ذلك يحتقرونهم ويضطهدونهم، وهم يصبرون على ذلك أو يفرون من سلطانهم إلى أطراف المملكة. وممن فر من جور بني أمية ميمون جد إبراهيم الموصلي المغني المشهور.[١١٥]

(١١-٢) نقمة الموالي على العرب

فلما تكاثر الموالي ورأوا ما كان فيه الأمويون من التعصب للعرب على سواهم — ولا سيما الموالي، حتى كانوا يستخدمونهم في الحروب مشاة ولا يعطونهم عطاءً ولا شيئًا من الغنائم أو الفيء — عظم ذلك عليهم، ورأوا في نفوسهم قوة فنفرت قلوبهم من بني أمية، وأصبحوا عونًا لكل من خلع الطاعة أو طلب الخلافة من العلويين أو الخوارج. فكل من قام لمحاربة الأمويين استعان عليهم بالموالي والعبيد، وهم الفئة المظلومة، وأشهر من حاربهم بالموالي والعبيد المختار بن أبي عبيد الذي قام في العراق للمطالبة بدم الحسين سنة ٦٦هـ، ثم طلب الخلافة لمحمد بن الحنفية — فالمختار المذكور أطمع موالي العراق في الغنيمة وأركبهم على الدواب، وكانوا ناقمين على أسيادهم ومواليهم لسوء معاملتهم، فجاءوه متطوعين وجاءه عدد كبير من أباق العبيد، وفيهم من ترك الإسلام غيظًا من بني أمية. فكان عدد الموالي في جند المختار أضعاف عدد الأحرار[١١٦] وقد أبلوا في الحرب معه أكثر من بلاء الأحرار، لنقمتهم على أسيادهم؛ ولذلك كان أكثر القتلى في تلك الحرب من الموالي، فقد بلغ عدد قتلاهم في معركة سنة ٦٧هـ ٦٠٠٠، ليس فيهم من العرب الأحرار إلا ٧٠٠، وسائرهم من الموالي[١١٧] وفاز المختار بالانتقام للحسين فوزًا حسنًا وقتل قتلته. ولما رأى وجهاء الكوفة انتصار المختار بمواليهم وعبيدهم بعثوا إليه يقولون: «إنك آذيتنا بموالينا. فحملتهم على الدواب وأعطيتهم فيئنا» فأجابهم: «إن أنا تركت مواليكم، وجعلت فيئكم لكم، تقاتلون معي بني أمية وابن الزبير، وتعطونني على الوفاء عهد الله وميثاقه، وما أطمئن إليه من الإيمان؟» فلم يرضوا. والمختار أول من جند الموالي وفاز بهم، فجرأهم ذلك على الدولة واستخفوا بها ونصروا أعداءها، وأصبح الخلفاء العقلاء

[١١٥] الأغاني ٢ ج٥.

[١١٦] ابن الأثير ١٢١ ج٤.

[١١٧] ابن الأثير ١٣٦ ج٤.

يسترضونهم بالعطاء ونحوه وأول من فرض لهم العطاء من بني أمية معاوية، فإنه جعل لكل واحد ١٥ درهمًا، فعبد الملك جعلها ٢٠، ثم أبلغها سليمان إلى ٢٥، وجعلها هشام ٣٠[١١٨] على أن ذلك الفرض قلما كان يعطى لهم؛ لأن العمال كانوا يستخدمونهم غالبًا بلا عطاء ولا رزق.[١١٩]

والمولى إذا آنس من مولاه رضاء ومحاسنة استهلك في نصرته، وكان لسيده ثقة فيه، حتى خلفاء بني أمية فقد كانوا يقربون جماعة من مواليهم، يعهدون إليهم بمهامهم ويرفعون منزلتهم ويستشيرونهم في أمورهم، والموالي يخلصون لهم ويستميتون في الدفاع عنهم، كما كان موالي بني هاشم يستميتون في نصرة مواليهم، وكانت تقوم المفاخرات بين الحزبين، وأشهرها مفاخرات سديف وسياب وقد تقدم ذكرها.

وقد يكون المولى من أصل رفيع، أو يرتقي إلى أعلى المراتب، حتى في أيام بني أمية رغم اضطهادهم وتعصبهم عليهم، وأعظم موالي العراق وأشهرهم فيروز مولى أهل الخشخاش، فإنه ولي الولايات وخرج مع ابن الأشعث على الحجاج، فقال الحجاج: «من جاءني برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم»، فقال فيروز: «من جاءني برأس بالحجاج فله ١٠٠٠٠٠ درهم». فلما غلب ابن الأشعث هرب فيروز إلى خراسان، فقبض عليه ابن المهلب هناك وبعث به إلى الحجاج، فقتله بعد أن عذبه بسل القصب المشقوق على جسمه.[١٢٠]

(١١-٣) زواج الموالي بالعربيات

على أن الموالي في أيام بني أمية كانوا على الإجمال أعداء الدولة، يقومون عليها مع القائمين انتقامًا لما كانوا يقاسونه من الاحتقار والجور من عصبية العرب على العجم، فازداد الأمويون تحقيرًا لهم. فبعد أن قال النبي: «مولى القوم منهم» منعوا زواجهم بالعربيات، كما كان الفرس يمنعون زواج العرب ببناتهم قبل الإسلام[١٢١] فإذا تجرأ مولى على الزواج

[١١٨] العقد الفريد ٢٤٩ ج٢.
[١١٩] ابن الأثير ٢٤ ج٥.
[١٢٠] المعارف ١١٥.
[١٢١] المسعودي ١٩٦ ج١.

بعربية وبلغ أمره إلى الوالي طلقها منه، كما حدث لأعراب بني سليم في الروحاء، فإنهم جاءوا الروحاء فخطب إليهم بعض مواليها إحدى بناتهم فزوجوه، فوشى بعضهم إلى والي المدينة بذلك، ففرق الوالي بين الزوجين وضرب المولى مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه، فقال محمد بن بشير الخارجي في ذلك بعد مدح عمل الوالي واسمه أبو الوليد:

حمى حدبا لحوم بنات قوم	وهم تحت التراب أبو الوليد
وفي المئتين للمولى نكال	وفي سلب الحواجب والخدود
إذا كافأتهم ببنات كسرى	فهل يجد الموالي من مزيد؟
فأي الحق أنصف للموالي	من أصهار العبيد إلى العبيد[١٢٢]

وكثيرًا ما كانوا يفعلون مثل ذلك بالموالي، ولو كانوا من أهل المنزلة الرفيعة أو أهل العلم والتقوى، فإن عبد الله بن عون من كرام التابعين ولكنه كان مولى، فتزوج عربية فضربه بلال بن أبي بردة بالسياط.[١٢٣]

على أن ذلك المنع كان شائعًا قبل الإسلام، وظل العرب يستنكفون منه رغم ما كان من نص الحديث المذكور وغيره. فسلمان الفارسي نصر المسلمين في حروبهم من أيام النبي، وله فضل كبير في الإسلام، فخطب إلى عمر بن الخطاب ابنته فوعده بها؛ لأنه لم ير في زواجه بها بأسًا، أما ابنه عبد الله فلما بلغه ذلك غضب وشكاه إلى عمرو بن العاص فقال له: «هنيئًا لك يا أبا عبد الله، أن أمير المؤمنين يتواضع لله — عز وجل — في تزويجك بابنته»، فغضب سلمان وقال: «لا والله لا تزوجت إليه أبدًا».[١٢٤]

فتزويج المولى بالعربية بالغ الأمويون في تقبيحه تعصبًا للعرب على سواهم، وهو عندهم أقبح من زواج العربي بغير العربية. ولكن ذلك لم يكن محرمًا في الدين ولا اعتبره أهل التقوى، فعلي بن الحسين بن علي المعروف بزين العابدين — وهو أحد الأئمة الاثني عشر ومن سادات التابعين — كانت أمه سلامة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس، فلما توفي أبوه زوجها بثريد مولى أبيه وأعتق جارية له وتزوجها، فكتب إليه عبد الملك بن

[١٢٢] الأغاني ١٥٠ ج١٤.

[١٢٣] المعارف ١٦٧.

[١٢٤] العقد الفريد ١٣٢ ج٣.

مروان يعيره بذلك. فكتب إليه زين العابدين: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، وقد أعتق رسول الله صفية بنت حيي بن أخطب وتزوجها، وأعتق زيد بن حارثة وزوَّجه بنت عمته زينب بنت جحش».

فالإسلام يرفع منزلة المولى، وأما الأمويون فرأوا تحقيره باعتبار أنه غير عربي، وشاع ذلك في أيامهم وأصبح الناس يعيرون بمصاهرة الموالي. ومن أشعارهم في رجل من بني عبد القيس بالبحرين زوج ابنته من أحد الموالي قول أبي بجير يؤنب آل عبد القيس لتزويجهم الموالي ومنهم الزارع والتاجر قال:

أمن قلة صرتم إلى أن قبلتم ... دعارة زراع وآخر تاجر؟
وأصهب رومي وأسود فاحم ... وأبيض جعد من سراة الأحامر؟
شكولهم شتى وكل نسيبكم ... لقد جئتم في الناس إحدى المناكر
متى قال: إني منكم فمصدق ... وإن كان زنجيًّا غليظ المشافر
أكلهم وافى النساء جدوده ... وكلهم أوفى بصدق المعاذر
وكلهم قد كان في أولية ... له نسبة معروفة في العشائر
على علمكم أن سوف ينكح فيكم ... فجدعًا ورغمًا للأنوف الصواغر
فهلَّا أتيتم عفةً وتكرمًا ... وهلا وجلتم من مقالة شاعر؟
تعيبون أمرًا ظاهرًا في بناتكم ... وفخركم قد جاز كل مفاخر
متى شاء منكم مغرم كان جده ... عمارة عبس خير تلك العمائر
وحصن بن بدر أو زرارة دارم ... وزبان زبان الرئيس بن جابر
فقد صرت لا أدري وإن كنت ناسيًا ... لعل تجارًا من هلال بن عامر
وعل رجال الترك من آل مذحج ... وعل تميمًا عصبة من يحامر
وعل رجال العجم من آل عالج ... وعل البوادي بُدلت بالحواضر
زعمتم بأن الهند أولاد خندف ... وبينكم قربى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل ... وبرجان من أولاد عمرو بن عامر
بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم ... وأولى بقربان ملوك الأكاسر
أأطمع في صهري دعيًّا مجاهرًا ... ولم تر شرًّا من دعيٍّ مجاهر؟

ويشتم لؤمًا عرضه وعشيره ويمدح جهلًا طاهرًا وابن طاهر[١٢٥]

وغرس هذا الاعتقاد في أذهان الناس حتى إن الموالي أنفسهم كانوا يستنكفون من تزويج المولى بالعربية. ذكروا أن ابنًا لنصيب المغني الشهير — وهو مولى — أحب بنت مولاه وكان مولاه قد مات، فخطبها من أخيه فأجابه إلى طلبه، فعرف نصيب بذلك فجمع وجوه الحي فلما حضروا أقبل نصيب إلى أخي مولاه وقال له: «أزوجت ابني هذا من ابنة أخيك؟» قال: «نعم»، فقال نصيب لعبيد له سود: «خذوا برجل ابني هذا فجروه فاضربوه ضربًا مبرحًا» ففعلوا، ثم قال لأخي مولاه: «لولا أني أكره أذاك لألحقتك به». ثم نظر إلى شاب من أشراف الحي فزوجه الفتاة، وأنفق على العقد من جيبه.[١٢٦]

ومع ذلك فالمولى لم يكن يخطب امرأة لنفسه ولا يزوج ابنته لرجل ما لم يستشر مولاه، فإذا أحب رجل أن يخطب فتاةً من بنات الموالي لا يذهب إلى أبيها ولا إلى أخيها، وإنما يخطبها من مواليها، فإن رضي مولاها زوجت وإلا فلا. وإن زوجها الأب أو الأخ بغير رأي مواليه فسخ النكاح، وإن كان قد دخل بها عُدَّ ذلك سفاحًا.[١٢٧]

وجملة القول: أن تعصب بني أمية للعرب جرهم إلى تحقير غير العرب وخصوصًا الموالي، فنقم هؤلاء عليهم وكانوا أكبر المساعدين في إخراج الدولة من أيديهم.

(١٢) أهل الذمة وأحكامهم في عصر الأمويين

(١٢-١) عهود أهل الذمة في أول الإسلام

الذمة في اللغة العهد والأمان والضمان، وأهل الذمة هم المستوطنون في بلاد الإسلام من غير المسلمين. قيل لهم ذلك؛ لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، وأكثرهم من النصارى واليهود، وقد دعاهم القرآن «أهل الكتاب» نسبة إلى الكتاب المقدس التوراة والإنجيل، وقد أثنى عليهم وأوصى بهم خيرًا. وفي الحديث النبوي أقوال كثيرة بمحاسنة أهل الذمة، وخصوصًا قبط مصر، فقد رووا عن النبي ﷺ أنه

[١٢٥] العقد الفريد ٢٣٢ ج٣.

[١٢٦] الأغاني ١٣٦ ج١.

[١٢٧] العقد الفريد ٧٣ ج٢.

قال: «إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإن لهم ذمةً ورحمًا» إشارة إلى أن أم إسماعيل أبي العرب منهم، وقال: «الله الله في أهل الذمة، أهل المدرة السوداء، السحم الجعاد، فإن لهم نسبًا وصهرًا».

وكان الخفاء الراشدون إذا أنفذوا جيشًا للفتح أوصوا قوادهم بأهل الذمة خيرًا، ولا سيما النصارى ورهبانهم. وإذا جاءهم أهل المدن بالصلح صالحوهم وعاهدوهم على الحماية، في مقابل ما يؤدونه من الجزية عن رؤوسهم. ويختلف مقدار الجزية ونوعها باختلاف الأحوال، وعلى مقتضى التراضي بين المسلمين وأهل الكتاب، ولكل صلح شروط تختلف باختلاف البلاد، ولكنها في كل حال تقضي على المسلمين بحماية أهل الذمة والدفاع عنهم. فإذا امتنعوا عن أداء الجزية امتنع المسلمون عن حمايتهم، وإذا عرض للمسلمين ما يمنع حمايتهم جاز لأهل الذمة الإمساك عن الدفع.[١٢٨]

وفي تاريخ الفتوح عهود كثيرة كتبت لأهل الذمة، عاهدهم المسلمون فيها بحمايتهم وتسهيل أعمالهم، في مقابل ما يؤدونه من الجزية، ككتاب النبي ﷺ إلى صاحب أيلة (في العقبة)، وإلى أهل أذرح في أثناء غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة. وهاك كتاب النبي ﷺ إلى صاحب أيلة:

> بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أمنة من الله ومحمد رسول الله ليحيى بن رؤبة وأهل أيلة: سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثًا، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ما يردونه، ولا طريقًا يردونه من بر أو بحر.[١٢٩]

وهاك كتابه إلى أهل أذرح وأهل مقنا:

> بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى بني حبيبة وأهل مقنا: سلم أنتم، فإنه أنزل على أنكم راجعون إلى قريتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون، ولكم ذمة الله وذمة رسوله، وأن رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل

[١٢٨] الجزء الأول من هذا الكتاب.

[١٢٩] ابن هشام ٤٠ ج٣.

دم اتبعتم به. لا شريك لكم في قريتكم إلا رسول الله أو رسول رسول الله، وأنه لا ظلم عليكم ولا عدوان، وأن رسول الله ﷺ يجيركم مما يجير منه نفسه، فإن لرسول الله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة، إلا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله، وأن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عرككم وربع ما اغتزلت نساؤكم، وإنكم قد ثريتم بعد ذلك ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة، فإن سمعتم وأطعتم فعلى رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم، ومن ائتمر في بني حبيبة وأهل مقنا من المسلمين خيرًا فهو خير له، ومن أطلعهم بشر فهو شر له، وليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو أهل بيت رسول الله ﷺ. وكتب علي بن أبي طالب في السنة التاسعة.[١٣٠]

واقتدى بالنبي ﷺ قواده في أثناء الفتح بالشام ومصر والعراق وفارس، وكتبوا العهود لأهل الذمة على نحو ما تقدم في مقابل الجزية — منها عهد خالد بن الوليد الذي كتبه لأهل الشام، وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق: إذا دخلها أعطاهم أمانًا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شيء من دورهم. لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله والخلفاء والمؤمنين، لا يعرض لهم إلا بخير إلا إذا أعطوا الجزية.[١٣١]

وإليك صورة عهد أبي عبيدة إلى أهل بعلبك:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك، رومها وفرسها وعربها، على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم، وأهل المدينة وخارجها وعلى أرحائهم، وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلًا، ولا ينزلوا قرية عامرة، فإن مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا إلى حيث شاءوا، ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا، ولتجارهم أن يسافروا

[١٣٠] فتوح البلدان للبلاذري ٦٠.

[١٣١] البلاذري ١٢١.

> إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها، وعلى من أقام منهم الجزية، والخراج، شهد الله وكفى بالله شهيدًا.[١٣٢]

وقس عليه عهود سائر الفاتحين، مثل عمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص وغيرهما، في مصر والعراق وفلسطين وفارس وأفريقية والأندلس وغيرها، على أنهم كانوا يشترطون في الجزية أن يؤديها أهل الذمة عن يدٍ وهم صاغرون.

أما شروط الصلح فكانت تختلف شدةً ورفقًا باختلاف البلاد والأحوال التي فتحت بها، فصلح مصر يختلف عن صلح الشام، وصلح الشام غير صلح العراق.

(١٣) العهدة النبوية

وبين أيدي الناس نسخ من عهد يقولون: أن النبي ﷺ كتبه إلى النصارى ورهبانهم يسمونه «العهدة النبوية»، والنسخ المذكورة تختلف نصًّا وتتفق مغزًى. ويقولون: أن العهد المذكور كتب بخط علي بن أبي طالب، ووضع في مسجد النبي في السنة الثانية للهجرة، وحملت منه نسخ إلى الأديار، ومن ذلك نسخة كانت محفوظة في دير طور سينا، فنقلها السلطان سليم الفاتح العثماني إلى الأستانة في أوائل القرن السادس عشر للميلاد، بعد أن عرضها على مجلس شرعي، فنقلوها إلى اللغة التركية، وأبقوا النسخة التركية في الدير وصورة الأصل العربي مع عهود برعاية حقوقهم الواردة في نص في ذلك العهد، وحملوا النسخة العربية الأصلية إلى الآستانة[١٣٣] — وإليك نص العهدة النبوية نقلًا عن كتاب «منشآت سلاطين» لأفريدون بك بعد البسملة:[١٣٤]

> هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله إلى كافة الناس أجمعين، رسوله مبشرًا ونذيرًا ومؤتمنًا على وديعة الله في خلقه؛ لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل وكان الله عزيزًا حكيمًا، كتبه لأهل ملة النصارى ولمن تنحل دين النصرانية، من مشارق الأرض ومغاربها قريبها وبعيدها فصيحها وعجمها معروفها ومجهولها، جعل

[١٣٢] البلاذري ١٣٠.

[١٣٣] الهلالان ١٥ و١٧ من السنة السابعة.

[١٣٤] قاموس الإدارة والقضاء (مادة بطركخانة).

> لهم عهدًا فمن نكث العهد الذي فيه وخالفه إلى غيره وتعدى ما أمره، كان لعهد الله ناكثًا ولميثاقه ناقضًا وبدينه مستهزئًا وللعنته مستوجبًا، سلطانًا كان أم غيره من المسلمين — وإن احتمى راهب أو سائح في جبل أو واد أو مغارة أو عمران أو سهل أو رمل أو بيعة، فأنا أكون من ورائهم أذبُّ عنهم من كل غيرة لهم بنفسي وأعواني وأهلي وملتي وأتباعي؛ لأنهم رعيتي وأهل ذمتي وأنا أعزل عنهم الأذى في المؤن التي يحمل أهل العهد من القيام بالخراج، إلا ما طابت له نفوسهم، وليس عليهم جبر ولا إكراه على شيء من ذلك، ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا حبيس من صومعته ولا سائح من سياحته، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم، ولا يدخل شيء من مال كنائسهم في بناء مساجد المسلمين ولا في بناء منازلهم، فمن فعل شيئًا من ذلك فقد نكث عهد الله وعهد رسوله. ولا يحمل على الرهبان والأساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة، وأنا أحفظ ذمتهم أينما كانوا من بر أو بحر في المشرق أو المغرب والجنوب والشمال، وهم في ذمتي وميثاقي وأماني من كل مكروه، وكذلك من ينفرد بالعبادة في الجبال والمواضع المباركة لا يلزمهم مما يزرعونه لا خراج ولا عشر، ولا يشاطرون لكونه برسم أفواههم، ولا يعاونون عند إدراك الغلة، ولا يلزمون بخروج في حرب وقيام بجبربة، ولا من أصحاب الخراج وذوي الأموال والعقارات والتجارات مما هو أكثر من اثني عشر درهما بالجملة في كل عام، ولا يكلف أحد منهم شططًا ولا يجادلون إلا بالتي هي أحسن، ويحفظونهم تحت جناح الرحمة، يكف عنهم أذية المكروه حيثما كانوا وحيثما حلوا — وإن صارت النصرانية عند المسلمين فعليها برضاها ويمكنها من الصلاة في بيعها، ولا يحال بينها وبين هوى دينها، ومن خان عهد الله واعتمد بالضد من ذلك فقد عصى ميثاقه ورسوله، ويعاونون على مرمة بيعهم ومواضعهم، وتكون تلك مقبولة لهم على دينهم وفعالهم بالعهد، ولا يلزم أحد منهم بنقل سلاح بل المسلمون يذبون عنهم، ولا يخالف هذا العهد أبدًا إلى حين تقوم الساعة وتنقضي الدنيا. ا.هـ.

والغالب في اعتقادنا أن النبي ﷺ إذا كان قد أعطى عهدًا للنصارى والرهبان عمومًا فهو غير هذا العهد، أو لعله كان مختصرًا وطولوه، أو تنوسي وضاع أصله فكتبوه من عندهم، أو أن النصارى وضعوا هذا العهد من عند أنفسهم لغرض سياسي، إذ لم يذكر

خبر هذا العهد أحد من مؤرخي الفتوح أو غيرهم من كُتَّاب المسلمين في الأزمنة الأولى، فضلًا عما في عبارته وألفاظه مما لم يكن معروفًا في صدر الإسلام، وخصوصًا في السنة الثانية للهجرة.

(١٤) عهد عمر

ويذكرون أيضًا عهدًا يعرف بعهد عمر بن الخطاب لأهل الشام، أشار إليه غير واحد من مؤرخي المسلمين، وقد أورده بعضهم بنصه منهم أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي المتوفى سنة ٥٢٠هـ، أورده في كتاب «سراج الملوك» نقلًا عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري المتوفى سنة ٧٨، وإليك صورة العهد المذكور برواية ابن غنم قال:

> كتبنا لعمر بن الخطاب — رضي الله عنه — حين صالح نصارى أهل الشام: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة (كذا) إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديرًا ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطًّا منها في خطط المسلمين في ليل ولا نهار. وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم. ولا نؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوسًا، ولا نكتم غشًّا للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شرعنا، ولا ندعو إليه أحدًا، وألا نمنع أحدًا من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أراد، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة، ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم ولا نركب بالسروج، ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمور. وأن نجز مقادم رؤوسنا ونلزم زينا حيثما كنا، وأن نشد الزنانير على أوساطنا ولا نظهر صلباننا وكتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضربًا خفيفًا، ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج

شعانيننا ولا باعوثنا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع إلى منازلهم)، فلما أتيت عمر — رضي الله عنه — بالكتاب زاد فيه (ولا نضرب أحدًا من المسلمين، شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمنا على أنفسنا فلا ذمة لنا، وقد حل منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق)، فكتب إليه عمر (أمضِ ما سألوه وألحق فيه حرفين اشترطهما عليهم مع ما شرطوه على أنفسهم: أن لا يشتروا شيئًا من سبايا المسلمين، ومن ضرب مسلمًا عمدًا فقد خلع عهده. ا.هـ.[١٣٥]

ويلحق بالعهد المذكور أحكام تتعلق بالكنائس وضعها عمر أيضًا، وذلك أنه أمر فهدم كل كنيسة لم تكن قبل الإسلام، ومنع من أن تحدث كنيسة بعد الإسلام، وأمر أن لا تظهر عليه خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة إلا كسر على رأس صاحبه.[١٣٦]

وترى في نص هذا العهد ضغطًا على النصارى وتصغيرًا لهم، خلافًا لما جاء في سائر عهود الأمان أو كتب الصلح في صدر الإسلام، وخلافًا لما هو معروف من عدل عمر بن الخطاب ورفقه بأهل الذمة، كما يستدل من سيرة حياته فإنها تدل على صدق لهجته في الفكر والقول والعمل، فكان إذا أساء مسلم إلى مسيحي اقتص له منه ولو كان المسلم من كبار الصحابة، كما اقتص لذلك القبطي من عمرو بن العاص وابنه وقال لعمر: «يا عمرو مُذْ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟».[١٣٧]

فنرى لأول وهلة تناقضًا بين هذه المناقب ونص هذا العهد، فيتبادر إلى الذهن أنه موضوع بعد عصر عمر بأزمان، كما قلنا عن نص العهدة النبوية، ولكن حاله يختلف عن حالها بما يرجح صحته. فلننظر أولًا في صحة نسبته إلى عمر، ثم في سبب التناقض الظاهر بينه وبين مناقبه.

---

[١٣٥] سراج الملوك ٢٨٣.

[١٣٦] سراج الملوك ٢٨٦.

[١٣٧] الجزء الأول من هذا الكتاب.

(١٥) نسبة هذا العهد إلى عمر

الأرجح في اعتقادنا أن عمر كتب عهدًا لنصارى الشام، إن لم يكن هذا هو بنصه فهو بمعناه على الأقل، وسبب هذا الترجيح:

(١) أن العهد المذكور وارد في كتب المسلمين بنصه الأصلي بطريق الإسناد، فالطرطوشي وإن كان من أهل القرن السادس للهجرة، فإنه أورد نص العهد بطريق الإسناد إلى الراوي الأصلي، على عادة المؤرخين المحققين في أوائل الإسلام، مما يدل على أنه نقله من كتاب قديم.

(٢) أن «سراج الملوك» الذي أورد نص هذا العهد هو من كتب الأدب والسياسة المهمة، وليس من كتب الفكاهة، ومؤلفة من أكبر علماء الأندلس، صحب أبا الوليد الباجي وأخذ عنه مسائل الخلاف وأجاز له، وقرأ الفرائض والحساب والأدب، وجاء بغداد ومصر وتفقه على أبي بكر الشاشي وعلي أبي أحمد الجرجاني، وأتى الشام وسكنها ودرس بها وكان إمامًا فقيهًا عالمًا زاهدًا ورعًا. وكان مع ذلك متعصبًا على النصارى يرى تحقيرهم، واتفق أنه دخل على الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بمصر وبجانب الأفضل رجل نصراني فوعظ الأفضل حتى بكى ثم أنشد:

يا ذا الذي طاعته قربة	وحقه مفترض واجب
إن الذي شرفت من أجله	يزعم هذا أنه كاذب

وأشار إلى النصراني فأقامه الفضل من موضعه[١٣٨] ولعل تعصبه هذا حمله على إثبات هذا العهد في كتابه، مع رغبة أكثر الذين سبقوه في إغفاله لما توهموا فيه من المغايرة لمناقب الخلفاء الراشدين. ولا يقال: أن الطرطوشي وضع هذا العهد من عند نفسه؛ لأن من كان في منزلته من الزهد والتقوى ينزه نفسه عن الكذب.

(٣) إن أكثر مواد هذا العهد واردة في كتب الفقه من أحكام أهل الذمة، كما وردت في هذا العهد بمعناها الحرفي تقريبًا[١٣٩] وأكثر هذه الأحكام كتب قبل زمن الطرطوشي.

---

[١٣٨] ابن خلكان ٤٧٩ ج١.

[١٣٩] الهداية ٥٧٤.

ناهيك بما جاء من ذلك في كتب السياسة والإدارة، وبعضها أشار إلى هذا العهد إشارة صريحة وأورد بعض نصه. فقد جاء في كتاب الأحكام السلطانية للماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ (أي: قبل الطرطوشي بخمس وسبعين سنة) بباب الجزية والخراج قوله: «وإذا صولحوا — النصارى — على ضيافة من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون، ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة، وتبيت دوابهم من غير شعير، وجعل ذلك على أهل السواد دون المدن — إلى أن قال — ويشترط عليهم في عقد الجزية شرطان: مستحق ومستحب، أما المستحق فستة شروط:

(١) أن لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له.
(٢) أن لا يذكروا رسول الله ﷺ بتكذيب له ولا ازدراء.
(٣) أن لا يذكروا دين الإسلام بذم له ولا قدح فيه.
(٤) أن لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح.
(٥) أن لا يفتنوا مسلمًا عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دمه.
(٦) أن لا يعينوا أهل الحرب ولا يؤووا أغنياءهم.

فهذه الستة الحقوق ملتزمة فتلزم بغير شرط، وإنما تشترط إشعارًا لهم وتأكيدًا لتغليظ العهد عليهم، ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضًا لعهدهم. وأما المستحب فستة أشياء:

(١) تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار.
(٢) أن لا يعلوا على المسلمين في الأبنية.
(٣) أن لا يسمعوهم أصوات نواقيسهم.
(٤) أن لا يجاهروهم بشرب الخمر ولا بإظهار صلبانهم.
(٥) أن يخفوا دفن موتاهم.
(٦) أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقًا وهجانًا إلخ.[١٤٠]

فقول الماوردي هذا يكاد يكون نص عهد عمر حرفيًّا بعد الترتيب والتبويب.

فالعهد المذكور كان معروفًا قبل كتاب سراج الملوك. ويؤيد ذلك أن ابن الأثير أشار إليه إشارة تدل على اعترافه بفحواه وبنسبه إلى عمر، كقوله في حوادث

[١٤٠] الماوردي ١٣٨.

سنة ٤٨٤هـ: «وأخرج توقيع الخليفة بإلزام أهل الذمة بالغيار، ولبس ما شرطه عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب».[١٤١]

(٤) أن الخلفاء الأولين في القرون الأولى للإسلام كانوا إذا أرادوا تجديد عهود أهل الذمة، ولا سيما النصارى، فرضوا عليهم مثل فحوى هذا العهد من تغيير الزي ونحوه. مما يدل على اتصال هذا العهد بالقرن الأول، وأقدمهم عمر بن عبد العزيز الخليفة التقي المشهور باقتفائه آثار سميه وجده لامه عمر بن الخطاب، وهو أول خليفة أموي أراد رد النصارى إلى ما شرطه عليهم عمر، وكانوا قد أغفلوا أكثر شروطه وخصوصًا من حيث اللباس، وتشبهوا بالمسلمين بلبس العمامة، فأمرهم أن يضعوا العمائم ويلبسوا الأكسية ولا يتشبهوا بشيء من الإسلام. وقس على ذلك سائر الخلفاء الذين اضطهدوا النصارى، فإنهم كانوا يرجعون إلى فحوى عهد عمر كما سترى.

(١٦) عهد عمر ومناقبه

أما ما يظهر من التناقض بين هذا العهد ومناقب عمر ففيه نظر، ولا بد في بيانه من المقابلة بين مناقب عمر وفحوى ذلك العهد:

(١٦-١) مناقب عمر بن الخطاب

أظهر مناقب عمر العدل مع الصراحة وحرية الضمير والشدة، والتقوى مع الغيرة الشديدة على الإسلام والرغبة في تأييده ونشره، فقد كان عادلًا حتى لا يبالي أن يحكم على ابنه أو على نفسه، فهو مثال للعدل مجسم لا يزال المسلمون إلى اليوم يتمثلون بأحكامه ويحاولون الاقتداء به، ولم يستطع أحد منهم أن يدرك شأوه. وكانت غيرته على الإسلام لا مثيل لها، فلا يعمل عملًا أو يقول قولًا إلا وهو ينظر من ورائه إلى نشر الإسلام ورفع مناره وجمع كلمة العرب في نصرته. فالعدل يقضي عليه أن ينصف أهل الذمة ويحاسنهم، ولكن رغبته في نشر الإسلام كانت تظهر من خلال ذلك الإنصاف. فقد أطلق حرية الدين في مملكته، وأبقى أهل الذمة على ما كانوا عليه من أمر دينهم

[١٤١] ابن الأثير ٧٦ ج١٠.

وطقوسهم وقسسهم وكنائسهم، ولكنه منعهم من إحداث كنائس جديدة لكي تنحصر النصرانية فيتغلب الإسلام عليها ثم يمحوها. والعدل قضى عليه أن يحسن إلى نصارى العرب مكافأة لنصرتهم المسلمين في العراق، ففرض عليهم الصدقة بدلًا من الجزية، ولكن رغبته في جمع كلمة العرب تحت لواء الإسلام قضت بالاشتراط عليهم أن لا ينصروا أولادهم.[١٤٢]

(١٦-٢) فحوى عهد عمر

وفحوى العهد المذكور يرجع إلى أربعة شروط أولية وهي:

(١) ألا يحدث النصارى معبدًا.
(٢) أن ينزلوا من يمر بهم من المسلمين ثلاثة أيام.
(٣) ألا يؤووا في كنائسهم جاسوسًا ولا يكتموا غشًّا للمسلمين.
(٤) ألا يقلدوا المسلمين بشيء من اللباس أو الركوب أو تعلم القرآن، أو نقش اسمهم بالعربية على أختامهم.

وأنه بغير هذه الشروط لا يكون لهم أمان على أنفسهم وذراريهم وأموالهم، فالشرط الأول ينطبق على رغبة عمر في تأييد الإسلام ونشره كما تقدم.

والشرط الثاني تستلزمه حال المسلمين في بلاد الفتح، فقد كانوا غرباء بين أهل الذمة، والعرب أهل ضيافة ولم يكن أهل تلك البلاد يألفون تلك العادة، فجعلها عمر شرطًا واجبًا عليهم رحمة بالمسلمين في أسفارهم للحرب وغيرها.

أما الشرطان الثالث والرابع فلا بد في تطبيقهما على أخلاق عمر من مقدمة صغيرة …

[١٤٢] المعارف ١٩٣ والبلاذري ١٨٣ وابن الأثير ٢٥٩ ج٢.

(١٧) نصارى الشام وقيصر الروم

أول ما يلاحظ في هذا العهد أن عمر أخذه على نصارى الشام دون سائر أهل الذمة في الشام ودون نصارى سائر الأمصار. فهو لا يسري على قبط مصر أو نبط العراق، ولا على صابئة حران ولا مجوس فارس، ولا على اليهود في بلد من البلاد. فلا بد لذلك من سبب متصل بما حواه ذلك العهد من الشدة، وإلا فلماذا لم يجعله عامًا على سائر بلاد الإسلام؟ ولماذا لم يدخل فيه اليهود والصابئة وغيرهم من أهل الذمة؟ وزد على ذلك أنهم ينسبون إلى عمر عهدًا[١٤٣] آخر لأهل الذمة كافة، وليس فيه ضغط ولا تضييق وإنما مرجعه إلى التسامح والرعاية والحماية، ويشبه العهدة النبوية في أكثر نصوصه، ورأينا فيه مثل رأينا في تلك العهدة؛ لأن عبارته تخالف عبارة صدر الإسلام، ولم يذكره أحد من كتاب المسلمين القدماء، ولكنه يوافق روح ذلك العصر بفحواه لمشابهته أكثر عهود الصلح التي كتبت يومئذ وذكرنا بعضها فيما تقدم. فمن المعقول أن يعطي عمر لأهل الذمة عهدًا بهذا المعنى؛ لأنه ينطبق على عدله ورفقه في معاملتهم، وهو عام لهم يشمل كل طوائفهم.

أما العهد الذي نحن بصدده فقد أعطى لنصارى الشام على الخصوص، وكأنه اختصهم بالتضييق. فهو لم يفعل ذلك إلا لسبب دعاه إليه. والغالب في اعتقادنا أنه اشترط هذه الشروط صيانة لبلاد الشام من رجوع الروم إليها بمساعي أهلها النصارى، إذ يكونون عيونًا للروم على المسلمين، لما بينهم وبين الروم من الرابطة الدينية، وهي أقوى الجامعات في الشرق من أقدم أزمانه إلى هذا اليوم. فكل طائفة من الطوائف الشرقية تفضل أن يحكمها حاكم من مذهبها ولو كان ظالمًا، على أن تخضع لحاكم من غير دينها ولو كان عادلًا. وفي التواريخ شواهد كثيرة تؤيد هذا القول حتى في عصرنا الحاضر، مع ما دخل نفوس المشارقة من التسامح الديني. فإن كل طائفة من أهله تفضل أن يحكمها ابن دينها، لا تبالي بعدله أو ظلمه. النصراني يفضل حاكمًا مسيحيًّا، والمسلم يفضل حاكمًا مسلمًا، فكيف بتلك العصور والدين مرتبط بالسياسة؟

ونصارى الشام أذعنوا للجزية، ودخلوا في سلطان المسلمين، وظلوا على ما كانوا فيه من حيث الدين وطقوسه، يقيمون الصلاة في كنائسهم كما كانوا يقيمونها قبل

---

[١٤٣] قاموس الإدارة والقضاء «مادة بطركخانة» نقلًا من منشآت سلاطين.

الإسلام، يأتيهم القسس والأساقفة من القسطنطينية أو أنطاكية، ولسانهم لسان دولة الروم، ومعتقدهم مثل معتقدها. وقد بينا في غير هذا المكان أن الفتح الإسلامي كان في صدر الإسلام احتلالًا عسكريًّا، ولم يكن المسلمون يتعرضون للمسيحيين في شيء من طقوسهم الدينية ولا أحوالهم الشخصية ولا أحكامهم القضائية، وكانوا يعترفون لصاحب القسطنطينية بسيادته في ذلك على نصارى الشام. فإذا حدث ما يمس هذه السيادة احتج ملك الروم على الخليفة، وخصوصًا من حيث الكنائس. وكان الخلفاء يراعون عهودهم في هذا الشأن، حتى إذا استفحل أمر بني أمية خرقوا حرمة تلك العهود كما خرقوا سواها مما أقره الراشدون.

ذكروا أن الوليد بن عبد الملك سمع صوت ناقوس، فقال: «ما هذا؟» قيل: «بيعة» فأمر بهدمها وتولى بعض ذلك بيده فتسابق الناس يهدمون فرفع النصارى أمرهم إلى قيصر القسطنطينية فكتب إلى الوليد: «أن هذه البيعة قد أقرها من كان قبلك، فإن يكونوا أصابوا فقد أخطأت، وإن تكن أصبت فقد أخطأوا».[١٤٤] ولم يجد اعتراضه نفعًا. ولكن ذلك يدل على أن نصارى الشام كانوا في صدر الإسلام تحت حماية الروم، أو هم يعدون قيصر الروم حاميًا لكنائسهم، كما يعتقدون الآن في بعض دول أوروبا. فضلًا عما غرس في قلوبهم من حب دولة الروم بواسطة كهنتهم وتعاليمهم. وهب أنهم كانوا ناقمين على تلك الدولة من بعض الوجوه الدينية، فأصبحوا بعد دخولهم في سلطة العرب يفضلون بقاء القديم على قدمه، وذلك عادي في الأمم التي تعودت الرضوخ لسواها، فإنها لا تستقر على حال ولا يهون إخضاعها إلا بطريق الدين. ناهيك بما كان يجدده الكهنة والأساقفة من أسباب الميل إلى قيصر القسطنطينية، والفتح يومئذ حديث والقيصر يرجو استرجاع تلك البلاد إلى سلطانه، على أن يستعين على ذلك بأهل مذهبه المقيمين بجوار المسلمين فيتخذهم عيونًا له عليهم.

وكان بعض نصارى الشام لا يدخرون وسعًا في هذا السبيل، فينقلون أخبار المسلمين إلى الروم، وإذا جاء جواسيس الروم آووهم في منازلهم وأعانوهم في استطلاع الأخبار. فربما دخل النصراني بين المسلمين وهو في مثل لباسهم، وقد نقش اسمه بالعربية على خاتمه مثلهم، وحفظ شيئًا من القرآن ليوهم المسلمين أنه منهم. والشام لم يتم فتحها بعد، وعمر لا يزال يخاف انتقاضها لبعدها عن مركز الخلافة. فخوفًا من

[١٤٤] المسعودي ١١٣ ج٢.

مثل ذلك اشترط على أهلها أن لا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من اللباس أو الركوب وغيره، وأن لا يؤووا أحدًا من جواسيس الروم، ولا يكتموا غشًّا للمسلمين.

ولنحو هذا السبب أيضًا أوصى عمر أن لا يستعملوا أهل الكتاب؛ لأنهم أهل رشى ولأن بعضهم أولياء بعض. ويقال: أن أصل هذا المنع منقول عن النبي في حديث جرى له يوم خروجه إلى بدر[١٤٥] على أن هذه الوصية لم يمكن العمل بها لاضطرار المسلمين إلى من يعرف الحساب والكتابة، وخصوصًا في أول الإسلام إذ كانت الدواوين لا تزال بلغاتها الأصلية.

فالأرجح عندنا أن عمر كتب عهدًا لنصارى الشام (أو استكتبهم عهدًا) إن لم يكن هذا نصه فهو فحواه، ولا يستبعد وقوع بعض التغيير في نصه بعد ذلك. أن السبب فيما حواه من الشدة خوفه من نصارى الشام؛ لأنهم أقرب نصارى الشرق إلى كنيسة القسطنطينية. أما القبط فقد كانوا أعداء تلك الكنيسة، وهم الذين واطأوا المسلمين على الروم وسهلوا لهم الفتح. وأنه لم يفعل ذلك للتضييق على النصارى تعصبًا للدين أو كرهًا للنصرانية. ثم أطلق المسلمون هذا العهد على سائر أهل الذمة.

(١٨) الأمويون وأهل الذمة

كذلك كانت أحكام أهل الذمة لما أفضت الخلافة إلى بني أمية، وكانوا لا يخافون الروم على الشام؛ لأن مقر خلافتهم فيها وقد احتلوا الشواطئ وتغلبوا على أهلها، وصاروا يغزون الروم في البحر. أي أنهم ضيقوا على أهل الذمة من جهة الجزية في جملة مساعيهم في حشد الأموال لاصطناع الأحزاب والتمتع بأسباب الدنيا، فزادوا الجزية والخراج وشددوا في تحصيلهما، وضيقوا على الناس حتى أخذوا الجزية ممن أسلم. وأما من بقي على دينه من أهل الكتاب فكانوا يسومونهم سوء العذاب؛ ويحتقرونهم لأنهم ليسوا عربًا ولا مسلمين. ولا غرابة في ذلك بعدما علمت من احتقار بني أمية لغير العرب من المسلمين. وكانوا يعدون الناس ثلاث درجات أولها العرب، ثم الموالي، ثم أهل الذمة. ويؤيد ذلك رأي معاوية في أهل مصر، قال: «وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف: فثلث ناس، وثلث

[١٤٥] سراج الملوك ٢٨٤.

يشبه الناس، وثلث لا ناس. فأما الثلث الذين هم ناس فالعرب، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالي، والثلث الذين هم لا ناس فالمسالمة» يعني القبط.[١٤٦]

ولما رأى القبط أن الإسلام لا ينجيهم من الجزية أو العنف في تحصيلها، عمد بعضهم إلى التلبس بثوب الرهبنة، والرهبان لا جزية عليهم، فأدرك عمال بني أمية غرضهم فوضعوا الجزية على الرهبان، وازدادوا غيظًا منهم حتى أراد بعضهم اقتضاءها من الأموات فضلًا عن الأحياء، بأن يجعلوا جزية الموتى على أحيائهم[١٤٧] وأمثال هذه الحوادث كثيرة في عهد بني أمية، ذكرنا كثيرًا منها في الجزء الثاني من هذا الكتاب، مع الطرق التي كان يتخذها عمال بني أمية لابتزاز الأموال من أهل الذمة.

فعل الأمويون ذلك وأغضوا عن شروط عمر، حتى إذا أفضت الخلافة إلى حفيده ومريده عمر بن عبد العزيز كان من جملة ما قلده فيه أنه كتب إلى عماله بإحياء ذلك العهد كقوله: «وأمروا من كان على غير الإسلام أن يضعوا العمائم ويلبسوا الأكسية، ولا يتشبهوا بشيء من الإسلام، ولا تتركوا أحدًا من الكفار يستخدم أحدًا من المسلمين، ولا تستخدموا أحدًا من أهل الذمة»[١٤٨] ونهى النصارى عن ضرب النواقيس وقت الأذان.

ونظرًا لاهتمام بني أمية بجمع الأموال للأسباب التي قدمناها، وأهل الذمة أقدر على مساعدتهم في جمعها من سواهم، لاقتدارهم في الحساب والكتابة وأعمال الخراج، استخدموهم في هذا السبيل رغم إرادتهم، ولم يكن يهمهم ذلك من وجه ديني لنشر الإسلام أو حصر النصرانية، ولولا ذلك ما ولَّوا خالدًا القسري العراقيين، وأمه نصرانية رومية كان يراعي جانبها ويكرم النصارى من أجلها، فاعتز النصارى في أيامه. وأراد خالد أمه على الإسلام فلم تسلم، فابتنى لها بيعةً في ظهر القبلة بالمسجد الجامع في الكوفة، فكان المؤذن إذا أراد أن يؤذن ضرب لها بالناقوس[١٤٩] وكان خالد يولي النصارى والمجوس على المسلمين عكس وصية عمر بن عبد العزيز، ويطلق أيديهم في الحكومة فيستبدون بالمسلمين. وعمر بن أبي ربيعة الشاعر المشهور كانت أمه نصرانية ماتت والصليب في عنقها،[١٥٠] وكان النصارى في أيام بني أمية يدخلون المساجد ويمرون فيها

[١٤٦] المقريزي ٥٠ ج١.

[١٤٧] المقريزي ٢٩٥ ج١.

[١٤٨] العقد الفريد ٢٦٢ ج٢ وابن الأثير ٣١ ج٥.

[١٤٩] الأغاني ٥٩ ج١٩.

[١٥٠] الأغاني ٣٢ ج١.

فلا يعترضهم أحد. وكان الأخطل الشاعر النصراني يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن، وهو سكران وفي صدره صليب ولا يعترضه أحد، ولا يستنكفون من ذلك؛ لأنهم كانوا يستعينون به في هجو الأنصار.[١٥١]

على أن الخلفاء من بني أمية كانوا إذا قربوا نصرانيًّا أو يهوديًّا طلبوا إليه أن يدخل في الإسلام، فلا يمنعه من الرفض مانع، إلا من يغضب الخليفة عليه ولم يكن يحتاج إليه فينتقم منه، كما أصاب شمعلة وكان من رهط الفرس نصرانيًّا، فدخل على بعض خلفاء بني أمية فقال له: «أسلم يا شمعلة» قال: «لا والله لا أسلم أبدًا، ولا أسلم إلا طائعًا إذا شئت» فغضب وأمر فقطعت بضعة من فخذه وشويت بالنار وأطعمها. أما الأخطل فإن عبد الملك قال له مرة: «ألا تسلم فنفرض لك في الفيء ونعطيك عشرة آلاف؟» قال: «كيف بالخمر؟» قال: «وما نصنع بها؟ وإن أولها لمر وآخرها لسكر» فقال: «أما إذا قلت ذلك فإن بين هاتين لمنزلة ما ملكك فيها إلا كلعقة من الفرات بالإصبع» فضحك.

أما عمال بني أمية فكانوا يضايقون النصارى في استخراج الأموال، فمن سهل لهم استخراجها أكرموه، وفي خطط المقريزي فصول في انتقاض القبط فلتراجع هناك.[١٥٢]

(١٩) الخلاصة

وجملة القول: أن الدولة الأموية دولة عربية أساس سياستها طلب السلطة والتغلب، فاستعان أصحابها على ذلك بالعصبية القرشية واصطناع الأحزاب. فجرتهم تلك العصبية إلى انقسام العرب إلى قبائلها كما كانت في الجاهلية وانقسمت أيضًا إلى عصبيات وطنية. وبالغوا في التعصب للعرب وامتهان غير العرب من الموالي وأهل الذمة. وأعوزهم اصطناع الأحزاب إلى الاستكثار من الأموال لإنفاقها في اجتذاب قلوب الرجال. والاستكثار منها بعثهم على الظلم في تحصيلها والخروج بذلك عما يقتضيه العدل، ومدوا أيديهم إلى أموال الصدقة وغيرها، واستأثروا بالفيء، ورأوا أعداءهم العلويين يطلبون الخلافة بالحق، وسلاحهم الدين والتقوى وإذا جادلوهم غلبوهم، فاستخفوا بالدين تحقيرًا لأهله وعمدوا إلى الدهاء والحيلة والإغضاء عن الأريحية، وبالغوا في الشدة والعنف واشتهر ذلك

[١٥١] الأغاني ٧٤ و١٧٨ ج٧.

[١٥٢] المقريزي ٧٩ و٣٠٢ و٤٩٣ ج١.

عنهم ولم ينكره أحد من المؤرخين حتى أهلهم من أعقابهم. فأبو الفرج صاحب الأغاني أموي[١٥٣] وأكثر ما يعرف من مساوئ بني أمية مقتبس من كتابه.

والفضل في ثبات دولتهم لثلاثة من خلفائهم اشتهروا بالدهاء والسياسة والتدبير، حكم كل منهم نحو عشرين سنة وهم: معاوية بن أبي سفيان (حكم من سنة ٤١–٦٠هـ) وعبد الملك بن مروان (من ٦٥–٨٦هـ) وهشام بن عبد الملك (من سنة ١٠٥–١٢٥هـ) وكان المنصور العباسي لما أفضت الخلافة إليه يتتبع هشام في سياسته[١٥٤] وأما عمر بن عبد العزيز فقد كان أحسنهم تدينًا، ولكنه جاء في غير أوانه فلم يطل مقامه. ولولا هؤلاء السواس لذهبت الدولة من أيديهم عاجلًا، لما تداول الخلافة بينهم من الخلفاء الضعفاء أهل الترف واللهو والقصف. وأولهم يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٦٤هـ، فقد كان مغرمًا بالصيد كثير العناية باقتناء الجوارح والكلاب والقرود والفهود، وكان يحب الطرب والمنادمة على الشراب، فجرى عماله على مثاله وأظهروا الشراب، وفي أيامه ظهر الغناء في مكة والمدينة واستعملت الملاهي، ولم يكن المسلمون يعرفونها من قبل ذلك.[١٥٥]

ومنهم يزيد ابن عبد الملك المتوفى سنة ١٠٥هـ ويسمونه خليع بني أمية، فقد تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز وسار في طريق غير طريقه، فشغف بجاريتين اسم إحداهما سلامة والأخرى حبابة فقطع معهما زمانه وغنت يومًا حبابة:

بين التراقي واللهاة حرارة ما تطمئن ولا تسوغ فتبرد

فطرب يزيد ثم قال: «أريد أن أطير» وأهوى ليطير فقالت: «يا أمير المؤمنين لنا فيك حاجة» فقال: «والله ل أطيرن» فقالت: «على من تدع الأمة؟» قال: «عليك» وقبل يدها، فخرج بعض خدمه وهو يقول: «سخنت عينك فما أسخفك!». وخرج يومًا ليتنزه في ناحية الأردن ومعه حبابة، وبينما هما في الشراب رماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت. فتركها ثلاثة أيام لم يدفنها، حتى أنتنت وهو يشمها ويقبلها

[١٥٣] ابن الأثير ٢٢٩ ج٨.

[١٥٤] المسعودي ١٣٢ ج٢.

[١٥٥] المسعودي ٦٨ ج٢.

وينظر إليها ويبكي، فكلموه في أمرها حتى أذن بدفنها، وعاد إلى قصره كئيبًا حزينًا وسمع جارية له تتمثل بعدها:

كفى حزنًا بالهائم الصب أن يرى　　　منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى، وبقي بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس، أشار عليه أخوه مسلمة بذلك مخافة أن يظهر منه ما يسفهه عند الناس[١٥٦] ولم يحكم إلا أربع سنوات.

ومنهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٦هـ كان خليعًا سكيرًا همه الصيد وشرب الخمر، حتى جعل الخمر في برك يغوص فيها ويشرب[١٥٧] وأول شيء فعله لما ولي الخلافة أنه بعث إلى المغنين في المدينة ومكة وأشخصهم إليه، واستقدم أهل المجون والخلاعة ونادمهم، وبالغ في التهتك والمكر ولكنه لم يحكم إلا سنة واحدة.

على أن العرب أعظموا تهتك بني أمية من أيام يزيد بن معاوية، واستغربوا البيعة له، فكيف بعد الذي شاهدوه من يزيد والوليد وغيرهما، حتى قال بعض الشعراء يخاطبهم:

إن البرية قد ملت سياستكم　　　فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم　　　إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم　　　فثم لا حسرة تغني ولا جزع

فأين هؤلاء من دهاة بني أمية الذين ذكرناهم، ولم يكن فيهم من يمس الخمر أو يتماجن أو يتخالع؟ حتى هشام بن عبد الملك، مع أنه جاء في أواخر الدولة، فكان لا يشرب الخمر ولا يسقي أحدًا في حضرته مسكرًا، وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه.[١٥٨]

فلما انغمس بنو أمية في الترف والقصف، مع ما كان من تعصبهم على غير العرب واحتقارهم الموالي وإساءتهم إلى أهل الذمة وسائر أهل القرى، بما كانوا يسومونهم إياه من نهب غلتهم في أثناء السفر — إذ كان جند المسلمين في أواخر أيام بني أمية إذا

---

[١٥٦] ابن الأثير ٥٧ ج٥.

[١٥٧] الأغاني ٩٨ ج٣.

[١٥٨] الأغاني ١٦٧ ج٥.

مروا بقرية غصبوا من يمرون بهم أموالهم[١٥٩] — فأصبح الناس يتحدثون بقرب زوال دولتهم، ولم يمض إلا سنوات قليلة حتى ذهبت وقامت الدولة العباسية مقامها.

[١٥٩] ابن الأثير ١٤٦ ج٥.

العصر الفارسي الأول

من خلافة السفاح سنة ١٣٢هـ إلى خلافة المتوكل سنة ٢٣٢هـ

تمهيد

دعونا هذا العصر فارسيًّا مع أنه داخل في عصر الدولة العباسية؛ لأن تلك الدولة على كونها عربية من حيث خلفاؤها ولغتها وديانتها، فهي فارسية من حيث سياستها وإدارتها؛ لأن الفرس نصروها وأيدوها، ثم هم نظموا حكومتها وأداروا شؤونها، ومنهم وزراؤها وكتابها وحجابها. وقد حملهم على القيام بنصرتها ما علمته من عصبية بني أمية على غير العرب، واحتقار الموالي وأكثرهم من الفرس، فكانوا ينصرون كل ناقم على تلك الدولة من الشيعة والخوارج. على أنهم كانوا أكثر رغبة في نصرة الشيعة، لما رأوه في دعوتهم من قوة الحجة يومئذ؛ لأنهم يدعون إلى بيعة صهر النبي أو أبناء بنت النبي. فكان العلويون يبثون دعايتهم في العراق وفارس وخراسان وغيرها من البلاد البعيدة عن مركز الخلافة الأموية، والفرس يبايعونهم وينصرونهم على أمل التخلص من ظلم بني أمية.

ثم قام بنو العباس لطلب الخلافة، وفازوا بها على أيد أبي مسلم الخراساني، واستعانوا بانقسام العرب يومئذ ونقمة اليمنية على بني أمية، ولم يبق من العرب من ينصر الأمويين إلا مضر، فاستعان أبو مسلم باليمنية على الأمويين، حتى فاز بمشروعه. وإليك البيان.

(١) انتقال الخلافة إلى العباسيين

(١-١) الشيعة العلوية

ظهر بنو أمية وتسلطوا واستبدوا وآل علي بن أبي طالب يطالبون بالخلافة ويسعون في إدراكها. وأول من طلبها بعد علي ابنه الحسن، ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١هـ، فغضب أشياع العلويين في الكوفة من تنازله وهاجوا — وأمير الكوفة يومئذ زياد بن أبيه الداهية الشهير، فشدد في إخماد الثورة وقتل جماعة من أشياع علي، فيهم حجر بن عدي وأصحابه. فتربص العلويون ينتظرون موت معاوية، لعل انتخاب الأمة يقع على واحد من أبناء علي فترجع الخلافة إلى أهل البيت، ولم يخطر لهم أن يبايع معاوية لابنه. فلما علموا ببيعته نقموا عليه، وزادهم نقمة ما علموه من تهتكه وقصفه واشتغاله بالصيد عن أمور الخلافة — ومن قول عبد الله بن هشام السلولي في ذلك:

خشينا الغيظ حتى لو شربنا ... دماء بني أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم ... تصيدون الأرانب غافلينا[١]

وكان أوجَه العلويين يومئذ الحسين بن علي، فلما مات معاوية سنة ٦٠هـ وتولى ابنه يزيد أبى الحسين أن يبايعه. على أن أكثر الذين بايعوه من أهل التقوى عدوا بيعتهم خرقًا لحرمة الدين.[٢] وكان الحسين في المدينة، فلما طلبوا منه أن يبايع يزيد فر إلى مكة، وأكثر شيعته في الكوفة، فكتبوا إليه وحرضوه على القدوم إليهم لينصروه فأطاعهم، ولما اقترب من الكوفة قعدوا عن نصرته … وبعث إليه أمير الكوفة يومئذ عبد الله بن زياد جندًا حاربه، فدافع عن نفسه وأهله حتى قتل قتلته المشهورة في كربلاء، يوم عاشوراء من سنة ٦١هـ.

ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته، فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤هـ يطالبون بدمه وسموا أنفسهم «التوابين»، وأمير الكوفة لا يزال عبيد الله بن زياد، فأخرجوه منها وولوا عليهم رجلًا منهم. فتغلب ابن زياد عليه. فنهض المختار

[١] المسعودي ٥٠ ج٢.

[٢] ابن الأثير ٢٥٢ ج٣.

بن أبي عبيد الثقفي، وهو من جملة الذين طمعوا في السيادة لابتزاز الأموال في أثناء تلك الفوضى واختلال الأحوال. وكان المختار عالي الهمة فجاء الكوفة يطالب بدم الحسين، ويدعو إلى بيعة محمد بن الحنفية أخي الحسين من أبيه. فتبعه على ذلك جماعة من الشيعة سماهم «شرطة الله»، وزحف على ابن زياد فهزمه وقتله وقتل أكثر قتلة الحسين. ولكن محمد بن الحنفية لم يكن راضيًا عن تلك الدعوة، فبعث إلى المختار يتبرأ منه. فحول المختار دعوته إلى عبد الله بن الزبير، وكان عبد الله قد نهض عند نهوض الحسين، لأن أباه الزبير بن العوام كان من جملة الطامعين في الخلافة بعد مقتل عثمان كما تقدم، وأقام عبد الله في مكة يدعو إلى نفسه. على أن المختار لم يخلص النية في دعوته لأحد؛ لأنه إنما كان يريدها لنفسه. فلما علم ابن الزبير بغرضه، بعث أخاه مصعبًا على العراق فحارب المختار وقتله سنة ٦٧هـ.

أما الشيعة العلوية فانقسمت بعد مقتل الحسين إلى فرقتين، إحداهما تقول: إن الحق في الخلافة لولد علي من فاطمة بنت النبي، والأخرى تقول: بتحولها بعد الحسن والحسين إلى أخيهما محمد بن الحنفية، وهي الفرقة الكيسانية. وأكثرهما ظهورًا وتصديًا الفرقة الأولى، فبايعوا بعد الحسين ابنه عليًّا المعروف بزين العابدين، وتسلسلت الخلافة بعده في أعقابه حتى صار الأئمة ١٢ إمامًا وهم: علي، والحسن، والحسين، وزين العابدين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعلي الرضا، ومحمد التقي، وعلي النقي، وحسن العسكري، ومحمد المهدي. وتفرع من الشيعة العلوية أيضًا فرق أخر، بايعت غير واحد من أعقاب علي، كالزيدية نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين، والإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وفرق أخر لا محل لذكرها.

وكان بنو أمية إذا سمعوا بظهور أحد دعاة العلوية بذلوا جهدهم في قتله، فقتلوا بعضهم وسموا البعض الآخر وصلبوا آخرين، فأصبح دعاة الشيعة يتسترون خوف الفتك بهم. فلاقى العلويون في أيام بني أمية ضنكًا شديدًا، وكادوا يهلكون جوعًا وأصبح هم أحدهم قوت عياله، حتى تولى خالد القسري عامل بني أمية المتوفى سنة ١٢٦هـ فأعطاهم الأموال ورفق بهم، فعادوا إلى طلب الخلافة[٣] وخالد هذا غريب الأخلاق، فمع كونه من عمال بني أمية فقد كان ينصر العلويين ويستعمل أهل الذمة كما تقدم.

[٣] ابن الأثير ١٢٩ ج٥.

(١-٢) الشيعة العباسية

وكان من جملة المطالبين بالخلافة من أهل البيت بنو العباس عم النبي، لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها والأمويون في إبان دولتهم، وإنما كانوا يدعون إلى أنفسهم سرًّا. وكان العلويون والعباسيون في أيام ضيقهم واضطهادهم يتقاربون؛ لأنهم من بني هاشم، وكلا الرهطين أعداء بني أمية من قبل الإسلام — والمضطهدون يتقاربون على أي حال.

وظل العباسيون يتسترون في دعوتهم، وهم مقيمون في الحميمة من أعمال البلقاء بالشام، حتى ضعف شأن بني أمية فهموا بالنهوض. واتفق في أثناء ذلك أن الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده إلى ابنه أبي هاشم، وكان أبو هاشم هذا يفد على خلفاء بني أمية من المدينة إلى الشام، فيمر في أثناء الطريق بالحميمة. ففي بعض وفداته على هشام بن عبد الملك، آنس هشام منه فصاحة وقوة ورياسة، مع علمه بطمعه في الخلافة، فدس إليه في أثناء رجوعه إلى المدينة رجلًا سمه في لبن. فشعر أبو هاشم بالسم وهو في بعض الطريق، فعرج إلى الحميمة، وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فنزل عنده. ولما أحس بدنو الأجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن أهله، فأوصى إلى محمد المذكور بالخلافة بعده. وكان معه جماعة من شيعته، سلمهم إليه وأوصاه بهم. فلما مات أبو هاشم، تهوس محمد بالخلافة وأيقن بالنجاح؛ لأنه اكتسب حزب الكيسانية جميعًا، فأخذ في بث الدعاة سرًّا. ثم توفي وقد أوصى بالخلافة بعده إلى ابنه إبراهيم، وعرف بالإمام.

فأخذ إبراهيم الإمام في بث دعاته، وبدأ بخراسان لوثوقه بأهلها أكثر من سائر أهل الأمصار؛ ولأن الشيعة الكيسانية أكثرهم من خراسان والعراق، وقد نصروا العلويين مرارًا. فبعث إليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع أبي هاشم، وأوصاهم أن يطلبوا بيعة الناس باسم «آل محمد» أي: أهل النبي، ولم يعين العلويين ولا العباسيين. وكان الخراسانيون قد ملوا الدولة الأموية، فهان عليهم أن يبايعوا لآل محمد، وهم يحسبون الأمر يكون مشتركًا بين العباسيين والعلويين. وتوفق إبراهيم الإمام في أثناء ذلك إلى أبي مسلم الخراساني القائد العجيب، فأتم أمرهم وسلم لهم الدولة كما هو مشهور.

(١-٣) بيعة المنصور للعلويين ونكثه

وكان بنو هاشم — العلويون والعباسيون — لما رأوا اختلال أمر بني أمية، اجتمعوا بمكة وفيهم أعيان بني هاشم، علويهم وعباسيهم، وتداولوا في قرب انحلال دولة الأمويين، وفيمن يخلفهم من أهل البيت. وكان في جملة الحضور أبو العباس المعروف بالسفاح، وأخوه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وهو أبو جعفر المنصور، وغيرهما من آل العباس. فأجمع رأيهم على مبايعة أوجه العلويين يومئذ، وهو محمد بن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن بن علي، الملقب بالنفس الزكية. فبايعوه لتقدمه فيهم، ولما علموه له من الفضل عليهم، وبايعه أبو جعفر المنصور في جملتهم[٤] ولعل هذه المبايعة هي التي أسكتت العلويين عن طلب الخلافة، في أثناء انتشار دعاة العباسيين في طلبها، كأنهم اتفقوا أن تكون الخلافة مشتركة في أهل البيت؛ لأن العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم «آل محمد»، وليس باسم الإمام إبراهيم أو غيره من بني العباس.

أما دعاة الشيعة العلوية، الذين كانوا يدعون للعلويين في العراق وفارس وخراسان قبل انتقال البيعة إلى العباسيين، فقد رضوا بذلك الانتقال غير مخيرين. وفي جملتهم أبو سلمة الخلال المثري الفارسي الشهير، وكان قيم في حمام أعين بضواحي الكوفة، وكان شديد التمسك بدعوة العلويين، وقد بذل ماله وجاهه في سبيل نشرها. فلما سمع بانتقال البيعة إلى بني العباس، كظم غضبه وتربص ليرى ما يقول الناس. ثم علم أن إبراهيم الإمام عين أبا مسلم وأرسله إلى خراسان ومعه الوصية المشهورة (من اتهمته فاقتله)، وقد أطاعه النقباء فأطاعه أبو سلمة في جملتهم، وهو يتوقع أن تكون البيعة شورى بين الشيعيين[٥] ولما بلغه أن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قتل إبراهيم الإمام، أضمر الرجوع إلى الدعوة العلوية[٦] ثم جاءه أخوة الإمام، وفيهم أبو العباس السفاح وإخوته وسائر أهل بيته وقد انتقلت البيعة إلى أبي العباس المذكور، فأنزلهم أبو سلمة عنده ورأى نفسه عاجزًا عن نقل البيعة، فسكت فبقيت لآل العباس. وكان أبو مسلم وسائر النقباء والقواد يحاربون عساكر الأمويين في خراسان وفارس والعراق، فلما غلبوهم

[٤] ابن خلدون ٣ ج٤ وابن الأثير ٢٤٣ ج٥ والفخري ١٤٧.

[٥] الفرج بعد الشدة ١٢٠ ج٢.

[٦] المسعودي ١٥٠ ج٢.

وملكوا خراسان وما يليها جاءوا العراق وبايعوا أبا العباس، فسكت العلويون خوفًا على أنفسهم من ذلك التيار العظيم، وهم يتوقعون مع ذلك أن تكون الخلافة شورى بين الرهطين.

وعلم العباسيون بما كان يضمره أبو سلمة من نقل الخلافة إلى العلويين، فشكوه إلى أبي مسلم سرًّا. فدس إليه رجلًا قتله بالكوفة غيلة، وأشاعوا أن بعض الخوارج قتله، وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكوا في إخلاصهم، حتى تم الأمر لهم.

أما آل الحسن بن علي، الذين كانوا قد بايعوا أحدهم محمد بن عبد الله في المدينة وبايعه معهم سائر بني هاشم ومنهم أبو جعفر المنصور، فلما علموا بذهاب دولة بني أمية ومبايعة أبي العباس السفاح سنة ١٣٢هـ، جاءوا إليه في الكوفة يطالبونه ببيعتهم، فاسترضاهم أبو العباس بالأموال وقطع لهم القطائع. وكان في جملة القادمين إليه عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة فأكرم السفاح وفادته وعرض عليه ما يرضاه من المال وقال له: «احتكم علي» فقال عبد الله: «بألف ألف درهم، فإني لم أرها قط ...»، ولم يكن هذا المال موجودًا عند السفاح، فاستقرضه له من رجل صيرفي اسمه ابن أبي مقرن ودفعه إليه. واتفق — وعبد الله المذكور عند السفاح — أن بعض الناس جاءه بالجواهر التي كانت عساكر العباسيين قد اغتنمتها من مروان بن محمد، فجعل السفاح يقلب الجواهر بين يديه وعبد الله ينظر إليها ويبكي، فسأله عن السبب فقال: «هذا عند بنات مروان، وما رأت بنات عمك مثله قط ...» فحباه به، ثم أمر الصيرفي أن يبتاعه منه فابتاعه بثمانين ألف دينار (نحو مليون درهم) وأمر أبو العباس بإكرام عبد الله وإنزاله على الرحب والسعة، وهو يتوجس مما في ضميره، فبث عليه العيون فآنس عنده طمعًا فزاده عطاءً، فعاد عبد الله إلى المدينة مثقلًا بالأموال ففرقها في أهله، وكانوا أهل فاقة فلما رأوا تلك الأموال سروا.

وأما عبد الله فما زال مضمرًا المطالبة بالخلافة لابنه[٧] على ما تمت المبايعة عليه، والعباسيون يخافون ذلك والسفاح يسترضيه وسائر أهله بالأموال كما رأيت. فلما توفي السفاح سنة ١٢٦هـ خلفه أخوه أبو جعفر المنصور، وكان رجلًا شديد البطش لا يبالي بما يرتكبه في سبيل تأييد سلطانه. فكان همه قبل كل شيء أن يتحقق ما في نفس بني

[٧] العقد الفريد ٢٧ ج٣.

الحسن في المدينة؛ لأن لهم في عنقه بيعة، فبث عليهم العيون وأراد اختبارهم، فبعث بعطاء أهل المدينة على جاري العادة من قبل، وكتب إلى عامله فيها: «أعط الناس في أيديهم ولا تبعث إلى أحد بعطائه، وتفقد بني هاشم ومن تخلف منهم عن الحضور، وتحفظ بمحمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن» ففعل العامل ذلك، فلم يتخلف عن العطاء إلا محمد وإبراهيم المذكوران، فكتب إليه بذلك، فتحقق المنصور أنهما ينويان القيام عليه، وقد سكتا في أثناء خلافة أخيه؛ لأنه كان يكرمهما ويغدق عليهما والمنصور لا يرى ذلك، فلما رأوا تضييقه عزموا على الخروج، فبثوا الدعاة في خراسان وغيرها يدعون شيعتهم إلى بيعتهم. فعلم أبو جعفر بذلك، فبعث من يقبض على كتبهم في الطريق، واحتال في استطلاع أسرارهم، وأراد استقدام ابني عبد الله وكتب إليه يستقدمه بهما، فأنكر عبد الله أنه يعرف مقرهما، فأصبح هم المنصور التخلص منهما ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين، وخصوصًا بني الحسن وهم يقيمون في المدينة، فبعث إلى عامله فيها أن يقبض عليهما جميعًا، ثم أمره أن ينقلهم إلى العراق، فنقلهم وهم مثقلون بالقيود والأغلال في أرجلهم وأعناقهم، وقد حملهم على محامل بغير وطاء، ولكن ليس فيهم محمد ولا إبراهيم ابنا عبد الله لاستتارهما، فجاءوا ببني الحسن وعدتهم بضعة عشر رجلًا، فأمر المنصور بقتلهم فقتلوا إلا بضعة قليلة.

أما محمد بن عبد الله صاحب البيعة فلم يقع في الفخ، فبعث المنصور إلى عامله في المدينة يشدد في طلبه، فلم ير محمد بدًّا من القيام. فظهر بالدعوة، فبايعه أهل المدينة بعد أن استفتوا إمامهم مالك بن أنس، فأفتاهم بالخروج معه فقالوا: «إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر»، فقال: «إنكم بايعتموه مكرهين، وأن بيعة محمد بن عبد الله أصح منها؛ لأنها انعقدت قبلها»[٨] وكان أبو حنيفة أيضًا على هذا الرأي، يقول بفضل محمد هذا ويحتج إلى حقه، فحفظ لهما المنصور هذا القول فتأدت إليهما المحنة بسبب ذلك. فلما تمكن من محمد وقتله سنة ١٤٥هـ أصبح من أكبر المضطهدين لهما فضرب مالكًا على الفتيا في طلاق المكره، وحبس أبا حنيفة على القضاء كما هو مشهور.

وكان لنكث المنصور بيعة محمد بن عبد الله تأثير عظيم في أذهان العلويين؛ لأنها جاءتهم بغتة، وكانوا يظنون أن ذلك لا يصدر من أهل البيت كما صدر من بني أمية، فتحسروا على أيام بني أمية وتمنوا رجوعها — ذكروا عن محمد بن عبد الله، في أثناء

[٨] ابن الأثير ٢٥١ ج٥ وابن خلدون ٣ ج٤.

قيامه على المنصور، أنه سمع شاعرًا يرثي بني أمية فبكى، فقال له عمه: «أتبكي على بني أمية وأنت تريد ببني العباس ما تريد؟» فقال له: «يا عم، لقد كنا نقمنا على بني أمية ما نقمنا، فما بنو العباس إلا أقل خوفًا لله منهم، وإن الحجة على بني العباس أوجب منها عليهم. ولقد كان للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر».[٩]

[٩] الأغاني ١٠٦ ج١٠.

سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم

(١) القتل على التهمة

قد رأيت فيما تقدم أن بني العباس قاموا يدعون إلى أنفسهم وهم بين خطرين عظيمين: الأول أن يحاربوا بني أمية ويتغلبوا على أحزابهم، والثاني أن يأمنوا جانب العلويين في مسابقتهم إلى الخلافة. وكانت الحوادث قد علمتهم أن الدولة لا تقوم بالدين والتقوى فقط، كما قامت في عصر الراشدين وكما أرادها بنو علي، وأن العلويين إنما عجزوا عن نيلها لاعتمادهم في دعوتهم على شرف نسبهم وصدق تدينهم، وأن معاوية لم يغلب إلا بالدهاء والحيلة، وأن عبد الملك لم يستطع استبقاءها إلا بالفتك وشدة البطش. فلما انتقلت البيعة من العلويين إلى العباسيين، بمبايعة أبي هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن علي العباسي كما تقدم، ثم أفضت بعده إلى ابنه إبراهيم الإمام، وتوفق هذا إلى أبي مسلم الخراساني ورأى فيه الشدة والدهاء، جعله قائدًا على نقبائه ودعاته وأوصاه وصية هي محور سياسة العباسيين في تأييد دولتهم هذا نصها:

> إنك رجل منا أهل بيت، أحفظ وصيتي: أنظر إلى هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم. واتهم ربيعة في أمرهم، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار. واقتل من شككت فيه. وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل. وأيما غلام بلغ خمسة أشبار واتهمته فاقتله[١] …

[١] ابن الأثير ١٦٥ ج٥.

فخرج أبو مسلم من عند الإمام إبراهيم بهذه الوصية، وقد عمل بها وعول عليها، فكان يقتل كل من اتهمه أو شك فيه، فبلغ عدد الذين قتلهم في سبيل هذه الدعوة ٦٠٠٠٠٠ نفس قتلوا صبرًا[٢] بدون حرب في بضع سنين، وفي جملتهم جماعة من كبار الشيعة، وفيهم غير واحد من جلة النقباء وكبار الدعاة، كأبي سلمة الخلال الذي نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بسيفه، وكان يقال له: وزير آل محمد كما يقال لأبي مسلم: أمير آل محمد. فحالما استشار السفاح أبا مسلم في شأنه واتهمه بنقل الخلافة إلى العلويين، أشار أبو مسلم بقتله فقتلوه وقتلوا عماله على الأطراف. وفعل نحو ذلك أيضًا بسليمان بن كثر، وهو من أكبر دعاة الدولة العباسية قبله، وكان شيخًا جليلًا لم يدخر وسعًا في نصرة تلك الدعوة. فبعد قتل أبي سلمة بلغ أبا مسلم عنه مثل ما بلغه عن أبي سلمة، فأحضره إليه وقال له: «أتحفظ قول الإمام لي: من اتهمته فاقتله؟» قال: «نعم» قال: «فإني قد اتهمتك!» فخاف سليمان وقال: «أناشدك الله ...» قال: «لا تناشدني، فأنت منطو على غش الإمام»، وأمر بضرب عنقه[٣] ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة، وفيهم الأمراء والقواد. وقتل بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بالغدر، ومنهم الكرماني وأولاده وكبار رجاله[٤] وغيرهم بشر كثير، حتى سئم الناس فعله وملوا سفك الدماء، وأصبح المسلمون — حتى رجاله — لا يدعى أحدهم إلى مقابلته إلا أوصى وتكفن وتحنط. وثار من ذلك بعض الأمراء من شيعة بني العباس وصاح في رجاله: «ما على هذا اتبعنا آل محمد: أن سفك الدماء وأن يعمل بغير الحق ...»، فتبعه على رأيه أكثر من ٣٠٠٠٠ رجل، فوجه إليهم أبو مسلم جندًا قاتلهم وقتلهم.

(٢) المنصور والدولة العباسية

فبهذا وأمثاله مهد أبو مسلم الخلافة لبني العباس، فساعدهم أولًا على إخراجها من بني أمية إلى أهل البيت، ولم يكتف ببيعة أبي العباس وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ولكنه حرضهم على قتل من بقي من بني أمية بالإغراء أو التخويف على ألسنة

[٢] ابن الأثير ٢٢٧ ج٢.
[٣] ابن الأثير ٢٠٨ ج٥.
[٤] ابن الأثير ١٨٣ ج٥.

الشعراء. ويقال: إنه هو الذي أوعز إلى سديف الشاعر مولى بني هاشم أن يقول ذلك الشعر في مجلس السفاح، وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك، وكان السفاح قد أمنه وأكرمه وأمن سائر بني أمية — فيقال: أن سديفًا دخل يومًا على السفاح وعنده سليمان بن هشام فأنشد سديف قوله:

لا يغرنك ما ترى من رجال | إن تحت الضلوع داءً دويّا
فضع السيف وارفع السوط حتى | لا ترى فوق ظهرها أمويّا

فتأثر السفاح وأمر بسليمان فقتل. ودخل شاعر آخر فقال شعرًا آخر، وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بني أمية، فقتلهم وبسطت له النطوع على جثثهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعًا[5] وقل في كيفية قتلهم غير ذلك، وأن الذي قتلهم عبد الله بن علي عم السفاح، وهو مشهور بكرهه لبني أمية وشدة نقمته عليهم، ولكن لا خلاف في أنهم قتلوا غدرًا سنة ١٣٢هـ وهم آمنون كما قتل الأمراء المماليك بمصر في أوائل القرن الماضي.

والغالب أن أبا مسلم أوعز إلى العباسيين بقتلهم؛ لئلا يقفوا في سبيل دولتهم، فأشار إلى سديف أن يحرضهم على ذلك بشعره. ولم يقل سديف ذلك حبًّا ببني العباس بل كرهًا لبني أمية وانتقامًا لآل علي؛ لأنه من الشيعة العلوية وهو يظن الخلافة شورى بين الشيعتين. فلما رأى المنصور استقل بها بعد ذلك، نقم على العباسيين وهجاهم بأشعار بلغ خبرها المنصور، فكتب إلى عامله أن يأخذ سديفًا فيدفنه حيًّا ففعل.[6]

وبعد أن قتل العباسيون من كان في قبضتهم من الأمويين، عمدوا إلى استئصال شأفتهم من سائر البلاد. ولم ينج منهم إلا قليلون، أهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، ففر إلى المغرب وأسس دولة بني أمية بالأندلس كما سيأتي. وتولى استئصال شأفة الأمويين من بني العباس عبد الله بن علي، فبالغ في ذلك حتى نبش قبورهم ومثل بجثثهم، انتقامًا لما فعلوه قبلًا بالأئمة من آل علي، وخصوصًا زيد بن زين العابدين.

[5] الفخري ١٣٤ والعقد الفريد ٢٧٩ ج٢.

[6] العقد الفريد ٣٢ ج٣.

فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره وهو لم يبل، فضربه ثمانين سوطًا ثم أحرقه.[7]

وبعد أن تخلص المنصور من الأمويين، لم يدخر أبو مسلم وسعا في تخليص الدولة من أقربائه آل العباس أنفسهم، وفي جملتهم عبد الله بن علي المتقدم ذكره، وقد طمع في الخلافة فحاربه بأمر المنصور وغلبه، واستولى على ما في عسكره من الغنائم والأسلحة. فأراد المنصور أن يوجه همه إلى بني الحسن منافسيه في الخلافة، فاشتغل خاطره بأبي مسلم وأصبح خائفًا منه على سلطانه، بعد ما بلغ إليه من النفوذ والشهرة والدالة. ولم يكن همه إلا قتله ليفرغ للعلويين، فاتهمه بأنه ينوي إخراج الملك منهم فاستحق القتل عملًا بوصية الإمام.

وكان المنصور قد خاف أبا مسلم وعزم على قتله، من عهد خلافة أخيه أبي العباس، ولكن أبا العباس لم يرد الإقدام على ذلك. فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله، ولكنه استخدمه في حرب عمه عبد الله بن علي، فضرب عدويه أحدهما بالآخر، فأيهما قتل صاحبه انفرد فيسهل على المنصور قتله. فلما فرغ أبو مسلم من حرب عبد الله بن علي، احتال المنصور في استقدامه إليه من خراسان في حديث طويل، وأدخله عليه دخول الزائر الأمين، وقد أكمن له أناسًا بالسلاح وراء الستر، فأخذ سيفه منه وحادثه، وتدرج من العتاب إلى التوبيخ، حتى إذا أزفت الساعة صفق المنصور، فخرج الكامنون بأسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٧هـ فأمر به فلفوه بالبساط، ثم دعا بعض رجال خاصته وشاورهم في قتله — ولم يقل: أنه قتله — فقال له أحدهم: «إن كنت قد أخذت من رأسه شعرة فاقتله ثم اقتله»، فأشار المنصور إلى البساط، فلما رأى أبا مسلم فيه وتحقق موته قال: «عد هذا اليوم أول يوم خلافتك ...».[8]

ولما فرغ المنصور من أبي مسلم، لبث يتوقع ما يبدو من رجاله الخراسانية؛ لعلمه أنه ركب بقتله خطرًا عظيمًا، فما عتم أن ثار عليه جماعة منهم يعرفون بالراوندية، وكادوا يفتكون به لو لم يدافع عنه معن بن زائدة. فقتل الراوندية جميعًا، ولكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثورة، فبنى مدينة بغداد بشكل حصين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة، ثم عمد إلى تخليص الخلافة من آل علي، فحارب محمد بن عبد الله وقتله.

[7] ابن خلكان ٢٠٥ ج٢.

[8] المسعودي ١٦٧ ج٢.

ثم رأى من آل العباس من ينازعه عليها، منهم عمه عبد الله، وكان أبو مسلم قد غلبه ولكنه لم يتمكن من قتله، فاحتال المنصور في استقدامه بأمان بعثه إليه مع ولديه، فجاء فحبسه عنده. ثم علم سرًّا أن ابن عمه عيسى بن موسى ينوي الخروج عن طاعته، وكان واليًا على الكوفة، فتجاهل وبعث إليه وقد دبر أمرًا كتمه عن رجال بطانته، فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والإكرام، ثم أخرج من كان في حضرته من الحاشية واستبقاه وحده، وأقبل عليه وقال: «يا ابن العم ... إني مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله، ولا أرى سواك مساعدًا لي على حمل ثقله، فهل أنت في موضع ظني بك، وعامل ما فيه، بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي؟» فقال له عيسى: «أنا عبد أمير المؤمنين، ونفسي طوع أمره ونهيه ...»، فقال المنصور: «إن عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطانته، واعتمد على ما بعضه يبيح دمه، وفي قتله صلاح ملكنا، فخذه إليك واقتله سرًّا ...» فأطاعه عيسى، فسلم إليه عمه فمضى به إلى الكوفة. وأضمر المنصور أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص. وسلمه إلى أعمامه إخوة عبد الله ليقتلوه به، فيكون قد استراح من الاثنين معًا. أما عيسى فكأنه شك في نية المنصور، والناس يومئذ يتهمون بعضهم بعضًا خوفًا من وصية الإمام، فاستشار بعض ذوي مشورته فحذروه من عاقبة ذلك، فحبس عمه ولم يقتله. ولما طلبه المنصور منه دفعه إليه حيًّا، فقتله في بيت جعل أساسه على الملح.[9]

وأمثلة ما أتاه المنصور من الدهاء والفتك في تأسيس دولته كثيرة. وكان يعطي الأمان ثم ينكث، كما رأيت فعله بعمه عبد الله، وكما فعل بابن هبيرة عامل بني أمية على واسط، لما بويع السفاح وأرسل أخاه المنصور لمحاربته، فجرت السفراء بينهما واتفقا على أن يدخل ابن هبيرة في أمان بني العباس، فكتب له المنصور أمانًا ظل ابن هبيرة أربعين ليلة وهو يشاور فيه العلماء حتى تحقق صحته ورضي به. فبعثه إلى أبي جعفر، فأنفذه أبو جعفر إلى أبي العباس فأمره بإمضائه. وكان رأي أبي جعفر في بادئ الأمر أن يفي بما أعطاه، ولكن أبا مسلم (وكان لا يزال حيًّا) أشار على السفاح أن يقتله قائلًا: «إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد. لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة ...»، فبعد أن جاء ابن هبيرة إلى أبي جعفر مستأمنًا غدر به وقتله[10] لأنه اتهمه. ثم اتهم أبا

[9] المستطرف ٦٣ ج١ وابن الأثير ٢٥٧ ج٥.

[10] ابن خلكان ٢٧٩ ج٢.

مسلم وقتله بعد أن أمنه كما رأيت. وشاع نكث الأمان والغدر عن المنصور وتحدث به الناس. فلما قام محمد بن عبد الله العلوي في المدينة، خافه المنصور كما تقدم، فبعث إليه يعرض عليه الأمان ويعده خيرًا، فأجابه محمد: «أي أمان تعطيني؟ أمان ابن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله، أم أمان أبي مسلم؟».[١١]

وظل المنصور وأبو مسلم قدوة لمن جاء بعدهما في الدهاء والفتك. على أنهم لم يكونوا يبطشون أو يفتكون إلا بمن نازعهم على الخلافة، فهذا يقتلونه على الشك. أما أحكامهم فيما خلا ذلك ففي نهاية العدل والرفق، كما سيأتي أما من كان في نفسه مطمع في الخلافة أو ما يتعلق بها فحكمه حكم المجرمين، فكل من يطلب الخلافة لنفسه أو يسعى فيها لأحد كانت حياته في خطر، فإذا دعي للمثول بين يدي الخليفة اغتسل وتحنط استعدادًا للموت.

وكان المنصور أيضًا قدوة لعبد الرحمن بن معاوية، مؤسس دولة بني أمية في الأندلس، وقد فر من العراق فالشام إلى المغرب خوفًا من القتل، فنصره رجاله وخصوصًا مولى له اسمه بدر، سعي في تأييد سلطانه مثل سعي أبي مسلم في الدولة العباسية، فلما استتب له الأمر سلبه كل نعمة وسجنه ثم أقصاه حتى مات، وفعل نحو ذلك في رؤساء الأحزاب الذين نصروه، وسيأتي الكلام على ذلك.

واشتهر فتك العباسيين بالذين ينصرونهم في تأييد دولتهم، حتى صار الخلفاء أنفسهم يشيرون إلى ذلك إذا أعوزهم الاستدلال به. فالأمين لما رأى طاهر بن الحسين يتفانى في نصرة أخيه المأمون، وقد تولى قيادة جند الخراسانيين وغلب على جند الأمين وكاد يذهب بدولته، كتب إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، اعلم أنه ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه إلا السيف، فانظر لنفسك أو دع …».[١٢] وفي الواقع أن المأمون لما استتب له الأمر في الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل أبي مسلم، فأهدى له خادمًا كان رباه وأمره أن يسمه ففعل.[١٣]

---

[١١] ابن الأثير ٢٥٤ ج٥.

[١٢] المسعودي ٢١٣ ج٢.

[١٣] ابن خلكان ٢٣٧ ج١.

(٣) سياسة الدولة العباسية في معاملة الرعية

(٣-١) الموالي الفرس

قد رأيت أن الدولة العباسية قامت بالفرس وغيرهم من الرعايا، وفيهم الموالي وأهل الذمة وكانوا ناقمين على دولة بني أمية، فنصروا أهل البيت انتقامًا منها، والجمهور الأهم منهم الفرس.

(٣-٢) الفرس والعرب قبل الإسلام

الفرس أهل سياسة وسلطان، وقد أنشأوا الدول وساسوا الناس ووضعوا الأحكام من قديم الزمان. وضخمت دولتهم وقويت شوكتهم حتى حاربوا اليونان والرومان، ونبغ فيهم القواد والعلماء والحكماء، وترجموا العلم والفلسفة، وكان لهم شأن كبير في التاريخ القديم، واشتهر فيهم فضلًا عن الأسر المالكة والداهقين والأساورة بيوتات شريفة، أشهرها سبعة كان الشرف فيها. وعلى إطلال اصطخر عاصمة الفرس القدماء، وغيرها من بقايا مدنهم القديمة، نقوش كتابية، مثل التي خلفها الفراعنة واليونان والرومان وغيرهم.

وكان في مملكة فارس قبائل كثيرة من العرب، يقيمون على حدودها بين النهرين في العراق والجزيرة، وكانت لهم دولة عربية تحت رعاية الفرس. وهم المناذرة في الحيرة، وكثيرًا ما كان الفرس يتعلمون لغة العرب وينظمون الشعر العربي، حتى ملوكهم فإنهم لم يكونوا يستنكفون من ذلك — حكي أن بهرام بن يزدجرد بن سابور نشأ بين العرب بالحيرة وتعلم العربية ونظم فيها شعرًا،[١٤] وكانوا يستخدمون العرب في دواوينهم، للكتابة أو الترجمة بينهم وبين من يفد على ملك الفرس من عرب الحجاز أو اليمن أو نجد، وخصوصًا بعد أن دخلت اليمن في حوزتهم على عهد كسرى أنو شروان.

وأشهر كتاب العرب في دواوين الفرس آل عدي بن زيد من المضرية، وكان عدي وأبوه وجده من مهرة الكتاب، على قلة من يحسن الكتابة من العرب في ذلك العهد، وكانوا يخدمون الفرس في دواوينهم. فجده حماز بن زيد بن أيوب كان كاتبًا عند النعمان في

[١٤] المسعودي ١١٣ ج١.

الحيرة، وتقرب من الفرس وولد له زيد، فأوصى به إلى دهقان كان صديقًا له وهو من أهل الدولة، فرباه الدهقان وعلمه الفارسية فنبغ في اللسانين، فتقدم الدهقان إلى كسرى أن يوليه البريد. ولم يكن ينال هذا المنصب إلا أبناء المرازبة، فتقدم يزيد في الدولة حتى صار كسرى يستشيره في مهامه، وولد لزيد ابنه عدي وتثقف وتعلم مثل أبناء الأساورة، وأتقن ألعاب الفرس على الخيل بالصوالجة، فقربه كسرى وجعله كاتبًا في ديوانه بالمدائن، وصار من أصحاب السطوة والكلمة النافذة وكسرى يأذن له مع الخاصة ويبعث به في المهمات الكبرى إلى ملك الروم وغيره. وإذا فسد العرب على الفرس وتمردوا توسط عدي في إصلاحهم، وإذا مات ملك العرب في الحيرة لا يولي كسرى من يخلفه إلا بمشورة عدي. فشق ذلك على ملوك الحيرة حسدًا له؛ لأنهم يمنية وعدي مضري، فوشى به بعضهم إلى كسرى حتى قتل، وتولى بعده ابنه زيد بن عدي في المكاتبة عن كسرى إلى ملوك العرب في أمورها وفي خواص أمور الملك. وكانت لكسرى وظائف يؤديها إليه العرب كل عام، فكان زيد يتولى ذلك وغيره.[١٥]

وجملة القول: أن العرب كانوا يخدمون الفرس في أيام دولتهم قبل الإسلام، كما خدم الفرس العرب في أيام دولتهم بعد الإسلام، على أن الفرس بلغ من ضخامة سلطانهم وسعة ملكهم قبل الإسلام أن كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد ويعدون سائر الناس عبيدًا لهم، أي: أنهم أصيبوا بما أصاب العرب بعد ذلك، وبما يصاب به غيرهم من الأمم التي توفق إلى السيادة فيغلب عليها الغرور وتترفع عن سواها.

فلما ظهر الإسلام وقامت دولة الخلفاء مقام دولة الأكاسرة، كان ذلك شديدًا على الفرس، وخصوصًا بعد ما لا قوة من ضغط بني أمية، واحتقارهم، فكانوا ينتقضون فيحاربهم الأمويون، ويبالغون في إهانتهم وظلمهم ويضربن مدائنهم بالمجانيق ويقتلون أهاليها، حتى أفنوا أكثر البيوتات القديمة ووجوه الأساورة الذين كانوا يأوون إلى أصخر[١٦] فلا لوم عليهم بعد ذلك إذا نصروا كل قائمة على الدولة الأموية. على أنهم لم يفوزوا إلا بطلبها للعباسيين كما رأيت، وكانوا يعدون ذلك فوزًا لأنفسهم، تخلصًا من عصبية العرب عليهم، وطمعًا في الرجوع إلى ما كانوا عليه من السلطة والشوكة.

---

[١٥] الأغاني ٢٠ ج٢.

[١٦] ابن الأثير ٤٩ ج٣.

(٣-٣) استخدام الموالي الفرس

فلما قبض العباسيون على أزمة الملك، جعلوا عاصمة مملكتهم بين شيعتهم في العراق، فأقاموا أولًا في الكوفة ثم في الهاشمية، حتى بنى المنصور مدينة بغداد على دجلة فجعلوها دار الخلافة. وقربوا الموالي الفرس، وخصوصًا أهل خراسان، فجعلوهم بطانتهم ورجال دولتهم، ولاسيما الذين حاربوا مع أبي مسلم في طلب الخلافة لهم. وأشهرهم خالد بن برمك جد الوزراء البرامكة، فإنه كان من قواد جند أبي مسلم، وشهد معه الوقائع وأبلى بلاءً حسنًا في نصرة أهل البيت، وكان أبوه برمك من مجوس بلخ، وكان يخدم بيتًا من بيوت النار هناك اسمه النوبهار، اشتهر هو وبنوه بسدانته، وكان برمك عظيم المقدار عند الفرس. فأسلم خالد ودخل في جند أبي مسلم، وكان عاقلًا حازمًا فلم يجعل للعباسيين محلًّا للشك في صداقته، كما فعل أبو مسلم. فقدمه أبو العباس وولاء الوزارة، ثم تولاها للمنصور وخدمه بعد مقتل أبي مسلم في محاربة الأكراد، وكانوا قد تغلبوا على فارس[١٧] وتوالت الوزارة في أعقابه إلى يحيى ابنه، فجعفر ابن ابنه، وهو الذي نكب البرامكة على عهده لسبب سنذكره.

وكذلك فعل العباسيون في استخدام الموالي في مهماتهم. وأول من استخدمهم لذلك المنصور، فإنه استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم في مهماته وقدمهم على العرب، فاقتدى به الخلفاء بعده حتى سقطت دولة العرب، كما سيجيء. ولما حضرته الوفاة أوصى بثلث ماله لمواليه[١٨] وأوصى بإكرامهم. ومن أقواله في وصيته لابنه المهدي: «وانظر إلى مواليك فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم، فإنهم مادتك لشدتك إن نزلت بك ... وأوصيك بأهل خراسان، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم، أن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عما كان منهم، وتخلف من مات منهم في أهله وولده».[١٩]

[١٧] ابن خلكان ١٠٦ ج١.
[١٨] الفخري ١٢٠.
[١٩] ابن الأثير ٧ ج٦.

ولا غرو إذا أكرم العباسيون أهل خراسان، بعد أن آثروهم على أهلهم وأبنائهم وقتلوا من خالفهم. ولكن العرب كانوا يستغربون ذلك لأول وهلة، فكانوا إذا جاءوا مجلس الخليفة رأوا الخراسانيين يذهبون ويجيئون ويدخلون على الخليفة كأنهم من أهله، والعرب يقفون ببابه لا يؤذن لهم إلا بمشقة — ذكروا أن أبا نخيلة الشاعر العربي وفد على أبي جعفر المنصور، ووقف ببابه واستأذن فلم يؤذن له، وهو يرى الخراسانية تدخل وتخرج وتهزأ به، فيرون شيخًا أعرابيًّا جلفًا فيعبثون به، فسأله صديق له رآه في تلك الحال: «كيف ترى ما أنت فيه من هذه الدولة؟»، فقال:

أكثر خلق الله من لا يدري من أي خلق الله حين يلقى
وحلة تنشر ثم تطوى وطيلسان يشترى فيغلى
لعبد عبد أو لمولى مولى يا ويح بيت المال ماذا يلقى[20]

وكان المهدي بن المنصور إذا أراد الشورى جمع خاصته للمداولة، وأول من يتكلم منهم الموالي[21] وقس على ذلك في سائر الأحوال. فأصبحت بطانة الخليفة ورجال دولته وخاصة حكومته من الموالي الفرس، وهم نظموا الحكومة ودواوينها، ورتبوا أحوالها ومنهم الوزراء والقواد والعمال والكتاب والحجاب كأنها دولتهم؛ لأن الغالب في هذه المناصب أن تنتقل من الرجل إلى بعض أولاده، مثل منصب الخلافة، فاشتهر بعض البيوتات بالوزارة أو الولاية، كآل برمك وآل وهب وآل قحطبة وآل سهل وآل طاهر وغيرهم.

وكانت أمور الدولة ترجع إلى الوزراء: يولون ويعزلون، وإذا تولاها أحدهم ولى الأعمال رجالًا من أصحابه أو مريديه، ومن ناحية أخرى تغيرت الأحوال على أهل البلاد، واطمأنت خواطرهم وتفرغوا للعمل في التجارة أو الصناعة أو الزراعة، ونسوا ما كانوا فيه من ضغط بني أمية واستبدادهم، وأطلقت حرية العمل وحرية الدين، وذهبت عصبية العرب، ورتع الناس في بحبوحة الأمن.

ولما استبد الأتراك في الدولة وضعفت شوكة الفرس، بعد المأمون كما سيأتي، ظل الموالي من أصحاب النفوذ في دولة الخلفاء، يعتمد عليهم الخليفة في أموره الخاصة

[20] الأغاني ١٤٨ ج١٨.

[21] العقد الفريد ٥٣ ج١.

والعامة من الكتابة إلى القيادة، ولم يعد التقدم فيهم للفرس بنوع خاص، ولكنهم أصبحوا أخلاطًا منهم ومن سواهم، وإنما تجمعهم كلمة الموالي ويتفانون في خدمة الخليفة أو الأمير.

(٤) أهل الذمة في الدولة العباسية

لما أخذ الموالي الفرس في تنظيم الحكومة وترتيب دواوينها، أحسوا بافتقارهم إلى من يعينهم على ذلك من أهل الذمة في العراق والشام، وكانوا أهل معرفة في الحساب والكتابة والخراج فضلًا عن العلوم، فأطمعوهم بالرواتب والجوائز وسهلوا لهم أسباب المعيشة وقربوهم وأكرموهم. فاطمأنوا لتلك الدولة وتقاطروا إلى بغداد، وخدموا العباسيين بعقولهم وأقلامهم، بما آنسوه من تسامحهم وإطلاق حرية الدين لهم، فاستخدمهم العباسيون في دواوينهم وولوهم خزائنهم وضياعهم.

فالجهابذة (الصيارف) كان أكثرهم من اليهود، والكتاب كان فيهم جماعة كبيرة من النصارى. وكثيرًا ما كان النصارى يتقلدون ديوان الجيش، وربما عظمت منزلة صاحب هذا الديوان — وهو نصراني — حتى يتسابق أكابر رجال الدولة من المسلمين إلى تقبيل يده. وممن تقلدوا ديوان الجيش من النصارى في الدولة العباسية ملك بن الوليد، قلده إياه المعتضد بالله، وإسرائيل النصراني، قلده إياه الناصر لدين الله. وقد أدرك بعضهم رتبة الوزارة، فتقلد أمرها أبو العلاء صاعد بن ثابت في أيام المتقي بالله.[٢٢]

وسرى ذلك الاعتدال والتسامح في الدين إلى الدولة الفاطمية بمصر، وكان لأهل الذمة فيها شأن عظيم، فتقلد الوزارة أو الكتابة (وهي كالوزارة في مصر) غير واحد منهم، وقويت شوكتهم في الدولة، فاستوزر العزيز بالله الفاطمي رجلًا نصرانيًّا اسمه عيسى بن نسطوروس، وآخر يهوديًّا اسمه منشا، فعز النصارى واليهود في أيامهما[٢٣] ومن نافذي الكلمة في الدولة الفاطمية من أهل الذمة، فهد بن إبراهيم النصراني كاتب برجوان، صاحب النفوذ الأعظم في أيام الحاكم بأمر الله. فكان فهد هذا يوقع عن برجوان، ويخاطب بالرئيس. وله نفوذ عظيم. وارتفع شأن النصارى في أيامه، حتى كادت الدولة

---

[٢٢] تاريخ الوزراء ٩٥ والفرج ١٤٩ ج٢.

[٢٣] ابن الأثير ٣٢ ج٩. والسيوطي ١٧ ج٢.

تكون في أيديهم[٢٤] على أن الكتابيين — أهل الذمة — كانوا في أيام الحاكم هم أهل الدولة، وكذلك في أيام الحافظ[٢٥] وكتاب الجيش في أكثر الأحايين من اليهود.

ناهيك بمن كان الخلفاء والأمراء يستخدمونهم من أطباء أهل الذمة وحكمائهم وتراجمتهم وكتابهم، وخصوصًا نصارى الشام، فإنهم خدموا التمدن الإسلامي في نقل العلوم من اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها إلى اللغة العربية، على ما فصلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب، وبينا ما كان من محاسنة الخلفاء لهم تقديمهم ورعاية جانبهم وإكرامهم، وفيهم النصراني واليهودي والمجوسي والسامري والصابي وغيرهم، والكل راتعون في بحبوحة السكينة والطمأنينة يتكسبون من خزائن الخلفاء والأمراء.

وكان الخلفاء في صدر الدولة العباسية يكرمون الأساقفة ويجالسونهم، فالهادي كان يستدعي إليه الأسقف تيموثاوس في أكثر الأيام ويحاوره في الدين، ويبحث معه ويناظره، ويطرح عليه كثيرًا من المشكلات، وله معه مباحث طويلة ضمنها كتابًا ألفه الأسقف المذكور في هذا الموضوع. وكذلك كان يفعل معه هرون الرشيد[٢٦] وغيره، وأغضوا عن بعض ما في عهد عمر بن الخطاب من التضييق على النصارى، كمنعهم من أحداث الكنائس[٢٧] أو الاحتفال بالأعياد، أو منعهم من خدمة الدولة، وسهلوا لهم الاختلاط بهم وأظهروا احترام مذهبهم، حتى أصبح النصارى يهدون الخلفاء أيقونات بعض القديسين فيقبلونها منهم، وكثيرًا ما كان الأساقفة يطلبون من الخلفاء أن يثبتوهم في مناصبهم للاعتزاز بذلك على أخصامهم أو منازعيهم.

(٤-١) اضطهاد أهل الذمة في العصر العباسي

على أن ذلك لم يمنع تضييق بعض الخلفاء على النصارى، بمقتضى عهد عمر، وهدم كنائسهم — فإن الملوك المستبدين تختلف سياستهم باختلاف أخلاقهم وأطوارهم، فقد يتراءى لبعضهم التضييق على النصارى لسبب أو لغير سبب، كما فعل هرون الرشيد

[٢٤] المقريزي ٤ و٣١ ج٢.
[٢٥] المقريزي ٤٠٦ ج١.
[٢٦] تاريخ المشارقة (خط) ١٤٣.
[٢٧] المقريزي ١١٥ ج٢.

والمتوكل من خلفاء بني العباس، فالمتوكل المتوفى سنة ٢٤٧هـ كان شديد الوطأة على النصارى، ولعله أشد الخلفاء العباسيين وطأة عليهم؛ لأنه أمر بهدم الكنائس المحدثة بعد الإسلام، ونهى أن يستعان بهم في الأعمال، أو أن يظهروا الصلبان في شعانينهم، وأمر أن يجعل على أبوابهم صور شياطين من الخشب، وأن يلبسوا الطيالسة العسلية، ويشدوا الزنار، ويركبوا السروج بالركب الخشب بكرتين في مؤخر السرج، وأن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب، قدر كل واحدة أربع أصابع ولون كل واحدة غير لون الأخرى، ومن خرج من نسائهم تلبس إزارًا عسليًّا، ومنعهم عن لبس المناطق وغير ذلك.[٢٨]

ولا يستغرب هذا التضييق من المتوكل، فإنه نقم مثل هذه النقمة على سائر أهل الدولة وغيرهم، وشدد النكير على الشيعة وأهلك العلماء والكتاب، وكان شديد التعصب على الشيعة، فاضطهدهم وعذبهم، ولاقى أهل الذمة منه الشدائد[٢٩] على أنه لم يرتكب هذا الشطط بغير سبب دعا إليه، فقد حمله عليه انتصار النصارى لأعداء الدولة — وذلك أن أهل حمص المسلمين وثبوا بعاملهم سنة ٢٤١هـ فأعانهم النصارى عليه، فكتب العامل إلى المتوكل فأمره بإخراج النصارى وهدم كنائسهم، وكان هذا من أسباب نقمته عليهم.[٣٠]

ويقال نحو ذلك فيما صدر في أيام الرشيد من الأوامر بهدم الكنائس في الثغور، وأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم[٣١] — فعل الرشيد ذلك على أثر رجوعه من حرب الروم في هرقلة، فالظاهر أن نصارى الثغور (الحدود بين مملكة الروم ومملكة الإسلام) ساعدوا أبناء طائفتهم الروم في التجسس على أحوال المسلمين واستخدموا الكنائس لهذه الغاية، فأمر الرشيد بالتضييق عليهم انتقامًا منهم، وخصص أمره هذا بأهل الثغور على الحدود، وشدد على الخصوص في مخالفتهم هيئة المسلمين في لباسهم، دفعًا لتنكرهم وتجسس أحوال المسلمين — وإلا فالرشيد من أحسن خلفاء بني

[٢٨] ابن خلدون ٢٧٥ ج٣ وابن الأثير ٢٠ ج٧ والمقريزي ٤٩٤ ج٢.

[٢٩] تاريخ المشارقة (خط) ١٤٦.

[٣٠] ابن الأثير ٢٩ ج٧.

[٣١] ابن الأثير ٨٢ ج٦.

العباس عدلًا ورفقًا بأهل الذمة، وكان أحد عمال أخيه الهادي قد هدم بعض الكنائس بمصر، فلما أفضت الخلافة إليه أمر بإعادة بنيانها.[٣٢]

وهكذا يقال في اضطهاد النصارى بمصر على عهد الدولة الفاطمية، مع ما تقدم من منزلتهم وحرية الدين عندهم، وأقدم ما قاسوه من تضييق الحكام في طقوسهم وكنائسهم في أيام الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ، وسبب ذلك ما ذكرناه من تقدم النصارى في مصالح الدولة في أيامه حتى صاروا كالوزراء، وتعاظموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم، فتزايدت مكايدتهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن إبراهيم النصرانيين، فغضب الحاكم بأمر الله — وكان إذا غضب لا يملك نفسه فيبلغ غضبه إلى حد الجنون. فأمر بقتل هذين الرجلين وشدد على النصارى فأمرهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار في أوساطهم، ومنعهم من عمل الشعانين والتظاهر بما كانت عادتهم فيه، وقبض على ما في الكنائس وأدخله في الديوان، ومنع النصارى من شراء العبيد، وهدم كنائسهم وأجبرهم على الإسلام، وغير ذلك من التشديد والعنف[٣٣] مما لا يقاس النصارى مثله من قبل، ولعله أعظم ما أصابهم من الاضطهاد في إبان التمدن الإسلامي. ولا جناح على التمدن الإسلامي منه؛ لأن مرتكبه أتاه عن حمق أو جنون.

وقد سوغ للحاكم المبالغة في اضطهاد النصارى حرب كانت بين الروم والمسلمين يومئذ، فخرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامع كان في القسطنطينية، فانتقم الحاكم منهم بالتضييق على أهل مذهبهم في بلاده، وكان في جملة ما هدمه من الكنائس كيسة القيامة بالقدس. فلما تولى الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بعد الحاكم، عقدت الهدنة بينه وبين ملك الروم سنة ٤١٨هـ واتفقا على إعادة بناء جامع القسطنطينية، وأن يعاد بناء كنيسة القيامة، وأن يؤذن لمن أظهر الإسلام في أيام الحاكم أن يعود إلى النصرانية إذا شاء، فرجع إليها كثيرون.[٣٤]

وربما كان السبب الذي حمل الحاكم على ذلك التضييق طفيفًا، فعظمه تعصبه وحمقه فأمر بالهدم والقتل. على أنه كثيرًا ما كلف رعاياه من المسلمين وغيرهم أمورًا مضحكة تشبه الجنون الصريح، كإصداره المنشورات بمنعهم من أكل الملوخيا أو من

[٣٢] المقريزي ٥١١ ج٢.
[٣٣] المقريزي ٤٩٥ ج٢.
[٣٤] المقريزي ٣٥٥ ج١.

البقلة المسماة بالجرجير، أو منعهم من عمل الفقاع، ومنع النساء من التبرج أو المسير في الطرق، والأمر بسبب السلف ولعنهم، ونقش ذلك على المساجد وأبواب الحوانيت على المقابر، ونحو ذلك من الأوامر التي تدل على اختلال في عقله. على أننا قلما نراه أتى أمرًا إلا لسبب، وإن كان ضعيفًا — فالسبب في منعه الناس من أكل الملوخيا مثلًا أن معاوية بن أبي سفيان عدو الشيعة كان يحبها، والدولة الفاطمية شيعية. ومنعهم من أكل بقلة الجرجير؛ لأنها منسوبة إلى عائشة أم المؤمنين، ومنعهم من أكل المتوكلية؛ لأنها تنسب إلى المتوكل وهو من أعداء الشيعة. ومنع الناس من شرب الفقاع لأن علي بن أبي طاب كان يكرهه[٣٥] وقس على ذلك سائر ضروب الحماقة والغرابة، ومن هذا القبيل اضطهاد النصارى وتخريب كنائسهم. على أنه عاد، لسبب طفيف أو بلا سبب، فأمر ببناء تلك الكنائس[٣٦] وخير النصارى في الرجوع إلى دينهم فارتد كثير منهم — وقد تقدم أن ذلك كان في أيام ابنه الظاهر. ومن أعماله الغريبة أنه ابتنى المدارس، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم وخربها، وألزم الناس بإغلاق الأسواق نهارًا وفتحها ليلًا، فظل الناس على ذلك دهرًا طويلًا[٣٧] فمن كانت هذه أعماله لا يستغرب منه اضطهاد، ولا يعد اضطهاده عارًا على الدولة أو الأمة.

على أن أفظع ما قاساه النصارى واليهود من الاضطهاد، إنما كان في دور الاضمحلال أو التقهقر في العصور الإسلامية الوسطى، وخصوصًا بعد الحروب الصليبية؛ لأنها كانت سببًا كبيرًا في إثارة التعصب بين الأمتين. فالنصارى تذكروا تقدم المسلمين عليهم واضطهاد حكامهم لدينهم، وزاد حقد المسلمين على رعاياهم النصارى لما كان من نصرتهم الإفرنج سرًّا، فبالغ أمراء المسلمين في الفتك بهم. فنصارى «قارا» مثلًا — بين دمشق وحمص — كانوا يسرقون المسلمين في أثناء تلك الحرب، ويبيعونهم خفية للإفرنج، فلما مر بها السلطان الملك الظاهر في أثناء عودته من بعض غزواته سنة ٦٦٤هـ أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم، واتخذ صبيانهم مماليك فتربوا بين الأتراك في الديار المصرية، فصار منهم أجناد وأمراء[٣٨] كما فعل العثمانيون بتجنيد الإنكشارية بعد ذلك بزمن غير بعيد.

[٣٥] المقريزي ٣٤١ ج٢.

[٣٦] ابن الأثير ٨٦ ج٩.

[٣٧] السيوطي ١٧ ج٢.

[٣٨] أبو الفداء ٤ ج٤.

وتزايدت الضغائن بعد تلك الحروب بين المسلمين وأهل الذمة في بلادهم، حتى أصبحت كل من الطائفتين تبذل جهدها في أذى الأخرى، ولما كانت الحكومة إسلامية فالنصارى هم المغلوبون. فإذا احترقت حارة للمسلمين اتهموا النصارى واليهود بإحراقها، فتأمر الحكومة بإحراقهم أو إحراق كنائسهم[٣٩] وهذا التعصب من مقتضيات تلك العصور المظلمة؛ لأن الدول النصرانية كانت تعامل المسلمين في بلادهم مثل هذه المعاملة أو أشد منها. وكثيرًا ما كانوا يهددون أسرى المسلمين بالقتل أو يتنصروا[٤٠] وإذا دخلوا بلدًا إسلاميًّا بالحرب عنوة ضربوا نواقيسهم في الجوامع،[٤١] ولما تغلب نصارى الأندلس على المسلمين أجبروهم على حمل علامة كان يحملها اليهود وأهل الدجن، ولما غلبوهم في آخر الدولة خيروهم بين النصرانية والموت فتنصروا عن آخرهم.[٤٢]

(٤-٢) تعصب العامة على النصارى

قلنا: إن الخلفاء والأمراء قدموا النصارى في مصالح الدولة، وأغدقوا عليهم الأموال وأكرموهم ورفعوا منزلتهم، وإنهم فعلوا ذلك لاحتياجهم إليهم في إبان ذلك التمدن؛ لنقل العلوم أو الطب أو الحساب أو الكتابة أو غيرها مما تحتاج إليه الدولة في تنظيم شؤونها، لاشتغال المسلمين يومئذ بالرياسة. وكان أولو الأمر من الجهة الأخرى يقدمون المسلمين في المعاملات الرسمية على سواهم من أهل الذمة، كما كان الأمويون يقدمون العرب على غير العرب، فنشأ التحاسد بين عامة المسلمين وعامة المسيحيين. وذلك طبيعي في كل مملكة يتنازع العمل فيها ملتان أو طائفتان، ولا يزال ذلك جاريًا على نحو هذا الشكل إلى يومنا هذا.

نشأ هذا التحاسد أولًا بين العامة ونحوهم من أهل المهن العلمية أو الحرف الصناعية، الذين يحومون حول الخلفاء والأمراء للارتزاق بما يعوزهم من أسباب المدنية، أو يرضيهم من عوامل الرخاء والترف كالشعر والغناء والكتابة والحساب وغيرها. وأما أهل الطبقة العليا (الشرفاء) والأغنياء ورجال الدولة، فقلما كانوا يتعصبون أو

---

[٣٩] المقريزي ٨ ج٢ وأبو الفداء ١١٧ ج٤ وسراج الملوك ١٨٩.

[٤٠] ابن الأثير ٢٩ ج٧.

[٤١] ابن الأثير ٦٢ ج٨.

[٤٢] نفح الطيب ١٢٦٩ ج٢.

يتباغضون، وإنما كانوا ينظرون إلى الرجال من حيث هم بقطع النظر عن مذاهبهم، فالشريف الرضي الذي كتب إلى الخليفة القادر بالله:

عطفًا أمير المؤمنين فإننا — في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت — أبدًا، كلانا في المعالي معرق
إلا الخلافة ميزتك فإنني — أنا عاطل منها وأنت مطوق

رثى أبا إسحق الصابي بقصيدته المشهورة التي مطلعها:

أرأيت من حملوا على الأعواد؟ — أرأيت كيف خبا ضياء النادي؟

فلم يقع ذلك موقع الاستحسان عند العامة، فعابه بعضهم لكونه شريفًا يرثي صابئًا فقال له: «إنما رثيت فضله».[٤٣]

وأما العامة ومن جرى مجراهم، أو استعان بهم على بعض المصالح أو المناصب، فكانوا يُظهرون التعصب على النصارى، ويسعون في أذيتهم لدى ولاة الأمور، فإذا كان صاحب الأمر حازمًا لا يصغي للوشاية — ذكروا أن رجلًا نصرانيًّا من أهل بغداد اتهمه بعض المسلمين سنة ٢٨٤هـ أنه شتم النبي ﷺ فاجتمع أهل بغداد وصاحوا بالقاسم بن عبيد الله وزير المعتضد بالله يومئذ وطالبوه بإقامة الحد عليه، وكأنه اعتقد براءة الرجل فلم يجب طلبهم،[٤٤] واتصل الأمر بالخليفة وكان له شأن كبير. والحكم صاحب الأندلس في أوائل القرن الثالث للهجرة صلب أحد عماله؛ لأنه ظلم أبناء أهل الذمة.[٤٥]

فلما اقتربت الدولة من الشيخوخة أخذ هذا التعصب يسري من العامة إلى الخاصة، لرغبة الناس يومئذ في التقرب من رجال الدولة بالتزلف والتملق التماسًا للكسب، فينتحلون الأسباب المساعدة على ذلك، ويتسابقون إلى دس الدسائس واختلاق الوشايات. وأسهل وسائل التزلف في الدولة الإسلامية التدين، لاشتراك الدين والسياسة في مصالحها، فكان بعضهم يستعينون في إظهار التدين والغيرة على الإسلام بالطعن في الأديان الأخرى،

[٤٣] ابن خلكان ١٢ ج١ و٢ ج٢.
[٤٤] ابن الأثير ١٩٢ ج٧.
[٤٥] ابن الأثير ١٥٧ ج٦ ص ١٣٦.

فإذا كان صاحب الأمر ضعيفًا انطلى عليه ذلك، واضطهد أهل تلك الأديان؛ ولذلك كان التعصب على أهل الذمة، ولا سيما النصارى، يزداد بتقدم الدولة الإسلامية نحو الشيخوخة. وقد اشتد في الأجيال الإسلامية الوسطى على أثر الحروب الصليبية، فأصبح الحكام وأرباب المناصب العلمية وغيرها يجاهرون باحتقار غير المسلمين، ويبالغون في اضطهادهم ويعاملونهم معاملة الأعداء. وتمكنت العداوة بين الفئتين، وكل منهما تحاول أذية الأخرى، حتى أصبح النصارى يودون التخلص من دولتهم بأية وسيلة كانت. فلما جاء التتر لفتح بغداد سنة ٦٥٦هـ كان هوى أهل الذمة معهم. وتعاظم هذا التباغض على الخصوص قبيل النهضة الأخيرة، أي: منذ قرن وبعض القرن، حتى في المعاملات الرسمية ولا سيما في البلاد البعيدة عن المدنية — فقد اطلعنا صديق عالم على صورة رخصة من جانب الشرع الشريف في ديار بكر، بدفن رجل مسيحي توفي فيها ننشرها لغرابة عبارتها وهي:

من جانب الشرع الشريف في ديار بكر إلى مطران طائفة كفرة السريان

«أيها المكروه بالنظر والمعتقد، أن يعقوب الكافر من طائفتكم المكروهة حيث إن الملعون قد فطس وهلك؛ فلأجل إدخال جثته الكريهة ضمن الأرض، قد صدر الاسترحام من مرشد محلته وجرى أخذ الخراج، وإن تكن الأرض لا تقبل جثته الخبيثة؛ ولكي لا تكون سببًا لفساد الهواء، قد أعطيناه الرخصة بعنوان الشرع الشريف أن تدفن، ضمن مدينتكم المخصوصة بموجب مذهبكم الباطل إلى زمرة جهنم. اقتضى إعطاء هذه الرخصة لكي لا يكون مانع من طرف أحد في ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٢٠٣». انتهى.

فأي مسلم أو مسيحي من أهل هذا العصر يطلع على هذا ولا ينكره أو يستغربه؟ ولولا ثقتنا بصدق الناقل لأنكرناه نحن أيضًا. وقد هون علينا تصديقه أن صديقًا آخر مقيمًا في القاهرة أكد لنا وجود رخص كثيرة في بعض البطركخانات بمصر في مثل هذه العبارة. وقد أخذ هذا التعصب في الزوال من بدء هذه النهضة، ومتى نضجت نرجو أن يزول تمامًا بإذن الله.

(٤-٣) تحاسد النصارى

على أنك لو تدبرت ما كان يلحق النصارى من الأذى في إبان التمدن الإسلامي لرأيت سببه في كثير من الأحوال وشاية بعض طوائف النصرانية بالبعض الآخر، كالنساطرة واليعاقبة في العراق. وكثيرًا ما كان أهل النفوذ من النصارى أنفسهم أشد وطأة على أهل دينهم من حكامهم المسلمين، كما كان عيسى بن شهلا الطبيب لما تولى الطبابة. ونال منصبًا في دار الخلافة، فاغتنم تلك الفرصة وبسط يده على المطارنة والأساقفة يأخذ أموالهم لنفسه، حتى إنه كتب إلى مطران نصيبين كتابًا يلتمس منه فيه من آلات البيعة أشياء عظيمة المقدار ويهدده، ومن أقواله له: «ألست تعلم أن أمر الملك بيدي، إن شئت أمرضته وإن شئت عافيته؟»، فبعث المطران بالكتاب إلى الربيع حاجب الخليفة فانتقم الخليفة منه.

واعتبر ما أجراه بختيشوع بن خبرائيل الطبيب مع حنين بن إسحق المترجم الشهير، لما رأى من منزلته عند الخليفة المتوكل، فحسده عليها وعمل على الكيد له من طريق الدين، وذلك أنه اصطنع أيقونة (صورة) للسيدة العذراء وفي حجرها السيد المسيح. وأوعز إلى بعض خاصته أن يحملها هدية إلى الخليفة في وقت عينه له، وذهب إلى مجلس الخليفة في الميعاد المضروب، وكان هو المستقبل للأيقونة من يد الخادم والحامل لها، وهو الذي وضعها بين يدي المتوكل، فاستحسنها المتوكل جدًّا، وجعل بختيشوع يقبلها بين يديه مرارًا كثيرة، فقال له المتوكل: «لم تقبلها؟» فقال له: «يا مولانا إذا لم أقبل صورة سيدة العالمين فمن أقبل؟» فقال له المتوكل: «وكل النصارى يفعلون كذلك؟» فقال: «نعم يا أمير المؤمنين وأفضل مني؛ لأني أنا قصرى حيث أنا بين يديك. ومع تفضيلنا معشر النصارى، فإني أعرف رجلًا من النصارى في خدمتك، وأفضالك وأرزاقك جارية عليه، يتهاون بها ويبصق عليها، وهو زنديق ملحد لا يقر بالوحدانية ولا يعرف آخرة، يستتر بالنصرانية وهو معطل مكذب بالرسل»، فقال له المتوكل: «من هذا الذي هذه صفته؟» فقال له: «حنين المترجم» فقال المتوكل: «أوجه أحضره، فإن كان الأمر على ما وصفت نكلت به وخلدته في المطبق، مع ما أتقدم به في أمره من التضييق عليه وتجديد العذاب» فقال: «أنا أحب أن يؤخر مولاي أمير المؤمنين أمره إلى أن أخرج وأقيم ساعة، ثم تأمر بإحضاره»، فقال: «إني أفعل ذلك». وخرج بختيشوع توًّا إلى حنين وأخبره: «أن الخليفة أهديت إليه أيقونة كذا، وقد استحسنها. وإن نحن تركناها عنده ومدحناها بين يديه، احتقرنا وقال لنا: هذا ربكم وأمه مصوران. وقد سألني أمير المؤمنين عن رأيي فيها،

فقلت له: مثلها يكون في الحمامات والكنائس وغيرها مما لا نبالي به. فطلب إلي أن أبصق عليها فبصقت، فإذا دعا بك أفعل مثل فعلي»، فصدقه حنين. ولما دعاه الخليفة فعل كما قال له بختيشوع، فحالما بصق على الأيقونة أمر الخليفة بحبسه، ووجه إلى ثيودوسيوس الجاثليق يومئذ فأحضره، فلما رأى الأيقونة وقع عليها وقبلها، ولم يزل يقبلها ويبكي طويلًا، ثم أخذها بيده وقام قائمًا فدعا لأمير المؤمنين وأطنب في دعائه، فدعاه إلى الجلوس والأيقونة في حجره، فطلب الجاثليق إليه أن يتركها له. ثم سأله الخليفة عما يستحق الذي يبصق عليها، فقال: «إذا كان مسيحيًّا عارفًا فإني أحرمه دخول الكنيسة ومن القربان، وأمنع النصارى من ملامسته وكلامه وأضيق عليه»، فأعطى الخليفة الأيقونة للجاثليق مع جائزة، وأمر بحنين فجلد بالسياط والحبال، وأمر بنقض منازله وحبسه، ولم ينج من ذلك حتى اعتل المتوكل واحتاج إلى مشورته فأفرج عنه.[46]

فإذا كان هذا فعل المتوكل في هذه الحال، وهو كما وصفناه من شدة وطأته على النصارى وغيرهم من أهل الذمة، فكيف في غيره من الخلفاء المعتدلين؟ وقد رأيت من حديث حنين هذا أن الخلفاء كانوا يفرضون على النصارى صدق التدين في النصرانية، فضلًا عن إعفائهم من الإسلام، إلا من أراده باختياره. وكانوا أيضًا يشاركون النصارى في احتفالاتهم بالأعياد الكبرى، كالميلاد والشعانين، ويخرجون معهم إلى أماكن النزهة كأنهم أمة واحدة[47] ولم يكن ذلك مقصورًا على العراق والشام، فإن المصريين كانوا يحتفلون بأعياد النصارى السنوية كما يحتفل بها النصارى أنفسهم، وكان الخليفة يفرق في الناس الهدايا في عيد الميلاد والغطاس، ويفرح المصريون جميعهم معًا.[48]

وكانت الحكومة إذا أنشأت معهدًا خيريًّا كان حظ أهل الذمة منه مثل حظ المسلمين، وخصوصًا المستشفيات ودور المرضى، فإنها كانت تبنى لمعالجة المسلم والذمي، فإذا لم يكن فيها ما يكفي الاثنين قدموا المسلم.[49]

[46] طبقات الأطباء ١٩٤ ج١.

[47] ابن الأثير ١١٣ ج٨. والفرج ١٥٦ ج٣.

[48] المقريزي ٤٩٤ ج١.

[49] طبقات الأطباء ٢٢١ ج١.

على أن المسلمين في إبان تمدنهم أطلقوا حرية الدين لرعاياهم، على اختلاف طوائفهم ونحلهم، فلم يسمع أنهم أكرهوا طائفة من الطوائف على الإسلام تعصبًا للدين، حتى في أيام بني أمية مع ضغطهم على غير العرب في طلب المال، فقد رأيت ما كان من خالد القسري وغيره. وأما بنو العباس فكانوا أقرب إلى الاعتدال وحرية الدين؛ ولذلك تعددت البدع الدينية في أيامهم من المجوس وغيرهم، ناهيك بالفرق الإسلامية وتعددها. وكان أكثر الخلفاء تسامحًا في الدين المأمون، فكان هو نفسه شيعيًّا، وكان وزيره يحيي بن أكثم سنيًّا، ووزيره أحمد بن أبي داود معتزليًّا[٥٠] يكفيك من تسامحه في الدين انتصاره للمعتزلة في القول بخلق القرآن — وأول من قال بذلك رجل يهودي اسمه لبيد الأعصم، الذي يقال: إنه سحر النبي ﷺ. فكان لبيد يقول: إن التوراة مخلوقة، ثم قال: بخلق القرآن، وعنه أخذ طالوت ابن أخته، وأخذه إبان بن سمعان عن طالوت، وأخذه الجعد بن درهم عن إبان في أيام هشام بن عبد الملك الأموي، وأظهر مقالته في خلق القرآن وإنكار ما فيه، وإن فصاحته لا تعجز الناس بل يقدرون على مثلها وأحسن منها[٥١] فغضب عليه هشام وبعث به إلى خالد القسري أمير العراقيين وأمره بقتله، فحبسه ولم يقتله. فالح عليه، فأخرجه يوم الأضحى، وبعد أن صلى قال: «أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم، فإنه يقول: ما كلم الله موسى ولا اتخذ إبراهيم خليلًا، تعالى الله عما يقول الجعد علوًّا كبيرًا» ثم ذبحه.[٥٢] ولما تولى مروان بن محمد كان يقول بخلق القرآن مثل الجعد[٥٣] حتى إذا تولى المأمون نصر المعتزلة — ولعله أخذ الاعتزال من يحيي بن المبارك مؤدبه — وتبعه الواثق بالله فقال مثل قوله، فعظم ذلك على عامة المسلمين وأنكروه وسموا الواثق كافرًا[٥٤] كما سموا المأمون أمير الكافرين[٥٥] وكان ما كان من المحنة في ذلك أيام المتوكل. وانقسم المسلمون إلى حزبين، والخلفاء ضد المعتزلة وقد شددوا النكير على القائلين: بخلق القرآن، وتناشدت الشعراء ذلك طعنًا فيهم وتكفيرًا لهم، كقول أبي خلف المعافري:

[٥٠] ابن خلكان ٢٢٣ ج٢.
[٥١] المقريزي ٣٤٦ ج٢.
[٥٢] ابن الأثير ١٢٣ ج٥ و٢٨ ج٧.
[٥٣] ابن الأثير ٢٠٤ ج٥.
[٥٤] ابن الأثير ٨ ج٧.
[٥٥] ابن الأثير ١٣١ ج٦.

لا والذي رفع السما ء بلا عماد للنظر
ما قال خلق في القرآ ن بخلقه إلا كفر
لكن كلام منزل من عند خلاق البشر[٥٦]

وبالجملة فقد كانت الأفكار من حيث الدين مطلقة الحرية في تلك العصور، لا يكره الرجل على معتقده أو مذهبه، فربما اجتمع عدة إخوة في بيت واحد وكل منهم على مذهب. فأولاد أبي الجعد ستة، كان منهم اثنان يتشيعان واثنان مرجئين واثنان خارجيين.[٥٧]

فسياسة الدولة العباسية في معاملة الرعايا من المسلمين وأهل الذمة إنما هي المحاسنة والعدل والرفق. وقد أتينا بأمثلة من عدل الخلفاء الأولين من بني العباس ورفقهم في الجزء الثاني من هذا الكتاب. وكانوا يحاسنون الفرس وسائر أهل النفوذ من الموالي على الخصوص، ولاسيما بعد أن صارت الحكومة إليهم وقبضوا على جندها ومالها، فكان الخلفاء يقدمونهم ويكرمونهم ويطلقون أيديهم في شؤون الدولة، فإذا داخلهم شك في إخلاصهم ولو على سبيل الوشاية فتكوا بهم فتكًا ذريعًا، كما اتفق للبرامكة وغيرهم من وزراء العصر العباسي الأول.

(٥) العصبية العربية في العصر العباسي

(٥-١) سياسة التقسيم

على أن المنصور كان همه منصرفًا إلى العرب؛ لأنهم أهل عصبية إذا اجتمعوا تغلبوا على الدولة وفعلوا ما أرادوه، لما يعلمه من جرأتهم في طلب الحق وتقبيح الظلم جهارًا ولا يحملون ضيمًا، وهو كما علمت بما ارتكبه في تأسيس دولته من الغدر والفتك، مما لا تصبر عليه النفوس الأبية. وقد زاده حذرًا منهم ما كان يسمعه من أقوالهم الدالة على إباء الضيم ولو كان فيه ما يسوءه، كما اتفق له وهو في بعض حجاته، وكان يطوف بالكعبة ليلًا، إذ سمع قائلًا يقول: «اللهم أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض،

[٥٦] نفح الطيب ١٥٨ ج٣.
[٥٧] المعارف ١٥٦.

وما يحول بين الحق وأهله من الطمع»، فخرج المنصور إلى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله، فطلب أن يؤمنه حتى يقول الحق فأمنه. فقال له: «إن الذي حال بين الحق وأهله هو أنت يا أمير المؤمنين». قال المنصور: «ويحك! وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي، والحلو والحامض عندي؟». فقال الرجل: «لأن الله تعالى استرعاك المسلمين وأموالهم، فجعلت بينك وبينهم حجابًا من الجص والآجر، وأبوابًا من الحديد وحجابًا معهم الأسلحة وأمرتهم ألا يدخل عليك إلا فلان وفلان، ولم تأمر بإيصال المظلوم والملهوف ولا الجائع والعاري ولا الضعيف والفقير، وما أحد إلا وله من هذا المال حق ... إلخ».

فهذا وأمثاله نبه المنصور لجرأة العرب، فجعل يفكر في إذلالهم ويستنبط له الحيل، وكان للعرب ديوان خاص لهم فيه الرواتب على أنسابهم ومراتبهم، وفيهم اليمنية والمضرية. فلما فرغ المنصور من تأييد دولته بمقاتلة العلويين والخوارج وغيرهم، وقد بنى بغداد وحصنها وأنشأ فيها منازل الجند، نظر إلى من حوله منهم على الإجمال، فإذا هم ثلاث فرق كبرى: اليمنية والمضرية والخراسانية، فاتفق سنة ١٥١هـ أن بعض الجند شغبوا عليه وحاربوه على باب الذهب، وهو قصره في بغداد، فأوجس خيفة من تكرار ذلك؛ لعلمه أن دولته إنما قامت بالجند، فإذا اجتمعوا عليه أخرجوها من يده، وهو يعلم أيضًا أن لكل من هذه الفرق هوى مع بعض دعاة الخلافة العلويين أو غيرهم، فليس أهون عليهم من ردها إلى دولة جديدة.

وكان كبير بني العباس يومئذ قثم بن العباس بن عبيد الله بن عباس، وهو شيخهم وله الحرمة والتقدم عندهم، فاستشاره المنصور في ذلك قائلًا: «أما ترى ما نحن فيه من التياث الجند علينا؟ وقد خفت أن تجتمع كلمة هؤلاء فيخرج هذا الأمر من أيدينا، فماذا ترى؟». قال: «يا أمير المؤمنين عندي رأي إن أظهرته لك فسد، وإن تركته أمضيته وصلحت خلافتك وهابك جندك». قال له: «أفتمضي في خلافتي شيئًا لا أعلمه؟» قال له: «إن كنت عندك متهمًا فلا تشاورني، فإن كنت مأمونًا عليها فدعني أفعل رأيي». فقال له المنصور: «فأمضه». فانصرف قثم إلى منزله فدعا غلامًا له فقال: «إذا كان الغد فتقدمني واجلس في دار أمير المؤمنين، فإذا رأيتني قد دخلت وتوسطت أصحاب المراتب، فانهض وخذ بعنان بغلتي، واستحلفني بحق رسول الله وبحق العباس وبحق أمير المؤمنين إلا ما وقفت لك وسمعت مسألتك وأجبتك عنها، فإني سأنتهرك عند ذلك وأغلظ لك فلا تخف وعاود المسألة، فإني سأضربك فعاود وقل لي: أي الحيين أشرف، اليمن أم مضر؟ فإذا

أجبتك فاترك البغلة وأنت حر». ففعل الغلام كما أمره، وفعل قثم به ما قاله، إلى أن قال: «مضر أشرف؛ لأن منها رسول الله ﷺ وفيها كتاب الله، وفيها بيت الله، ومنها خليفة الله». فامتعضت اليمن من قوله؛ لأنه لم يذكر لهم شيئًا، وقال بعض قوادهم: «ليس الأمر كذلك مطلقًا بغير فضيلة لليمن». ثم قال لغلام له: «قم إلى بغلة الشيخ فاكبحها» ففعل حتى كاد يعقبها، فامتعضت مضر وقالوا: «يفعل هذا بشيخنا؟» فأمر بعضهم غلامه فضرب يد ذلك الغلام فقطعها، فنفر الحيان ودخل قثم على المنصور، وافترق الجند العربي من ذلك الحين، فصارت مضر فرقة واليمن فرقة والخراسانية فرقة، وقال قثم للمنصور: «قد فرقت بين جندك وجعلتهم أحزابًا كل حزب منهم يخاف أن يحدث حدثًا فتضربه بالآخر».[58]

وكان المهدي بن المنصور قد جاء من خراسان، فقدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة والبصرة وغيرها، فهنأوه بمقدمه فأجازها وكساهم، وفعل المنصور بهم مثل ذلك، فقال قثم للمنصور: «قد بقي عليك بالتدبير بقية، وهي أن تعبر بابنك «المهدي» فتنزله في ذلك الجانب من بغداد، وتحول معه قطعة من جيشك، فيصير ذلك بلدًا وهذا بلدًا، فإن فسد عليك أولئك ضربتهم بهؤلاء، وإن فسد عليك هؤلاء ضربتهم بأولئك، وإن فسد عليك بعض القبائل ضربتهم بالقبائل الأخرى» فقبل رأيه واستقام ملكه، وبنى المهدي بلدًا سماه الرصافة — فاستعان المهدي في استبقاء دولته بسياسة التقسيم.

وما زال شأن العرب يضعف في الدولة العباسية تدريجًا، وحزب الفرس يقوى حتى أصبحت الدولة في أيام الرشيد بين عاملين كبيرين: أحدهما فارسي والآخر عربي كل منهما يحاول الاستئثار بالسلطة. وكانت بطانة الخليفة أيضًا حزبين، أحدهما ينتمي إلى الفرس والآخر إلى العرب، مرجعهما إلى ابني الرشيد الأمين والمأمون؛ لأن الأول أمه عربية هاشمية (زبيدة) وأم الثاني أمة فارسية يقال: إن الرشيد اشتراها لتلد له؛ لأن امرأته زبيدة أبطأت الحمل، فولدت له عبد الله المأمون، ثم حملت زبيدة فولدت محمدًا الأمين[59] فوقع بين الوالدتين من التحاسد مثل الذي وقع بين سارة وهاجر امرأتي إبراهيم الخليل. وسرى هذا التحاسد في البطانة ومنه إلى سائر رجال الدولة، وهو بني هاشم وسائر

[58] ابن الأثير ٢٨٥ ج٥.

[59] المسعودي ٢١١ ج٢.

العرب مع الأمين، وهوي سائر رجال الدولة من الفرس وغيرهم مع المأمون، وكان زعيم الحزب العربي الربيع بن يونس وأبناؤه من بعده.

والربيع يتصل نسبه بكيسان مولى الحرث مولى عثمان بن عفان، فجده مولى مولى. ودخل الربيع في جملة موالي المنصور، فولاه حجابته ثم جعله وزيره، وكان المنصور شديد الميل إليه حسن الاعتماد عليه، فسأله يومًا عما يتمناه منه فقال: «أن تحب ابني الفضل». فقال المنصور: «كيف اخترت له المحبة دون كل شيء؟». فقال: «لأنك إذا أحببته كبر عندك صغير إحسانه وصغر عندك كبير إساءته». ومات الربيع في أيام الهادي سنة ١٧٠هـ. ولما تولى الرشيد الخلافة واستوزر البرامكة، سقط في يد الفضل بن الربيع لخروج الوزارة من يده، فرام التشبه بهم ومعارضتهم، ولم يكن له من القدرة ما يدرك به اللحاق بهم، فكان في نفسه منهم إحن وشحناء، فسعى بهم عند الرشيد، وكان سعيه من جملة أسباب نكبتهم.

(٥-٢) ذهاب عصبية العرب بذهاب دولة الأمين

وكان المأمون، فضلًا عن نسبه الفارسي من أمه، قد ربى في حجر جعفر بن يحيي البرمكي، وهو الذي سعى له في ولاية العهد[٦٠] ورباه على حب الفرس. والفضل بين الربيع سعى في تأييد بيعة الأمين. ولما توفي الرشيد بعد مقتل البرامكة، كان الفضل بن الربيع هو الذي حمل الأمين على نقض بيعة المأمون[٦١] واختلف الإخوان على البيعة، وكان المأمون عند أخواله بخراسان، والأمين في أهله ببغداد، وانتشب القتال بين الفريقين — وهو قتال بين الفرس والعرب؛ لأن العرب في معظم المملكة العباسية كانوا من حزب الأمين.[٦٢] وقد نصر الخراسانيون ابن أختهم المأمون، بتدبير الفضل بن سهل. وكان الأمين يحرض جنده في بغداد بمشورة الفضل بن الربيع. وكان العرب من الجند العباسي قد أنهكتهم الحضارة والترف، وتبددوا بسياسة التقسيم، فلم يستطيعوا دفاعًا. فلما ضاق الحال بالأمين، ولم يبق عنده مال للتجنيد، استنجد رعاع أهل بغداد، وفيهم العيارون والشطار

[٦٠] ابن الأثير ٩٤ ج٦.
[٦١] ابن الأثير ٨٩ ج٦.
[٦٢] المقريزي ١٧٨ ج١.

وكانوا طوائف كبيرة. وأمر بعض قواده أن يتتبعوا أصحاب الأموال والودائع والذخائر من أهل الملة وغيرهم، فلم يزده ذلك إلا ضعفًا. وانقضت تلك الحروب بفوز المأمون، وسيأتي تفصيل ذلك. فأخرج الخراسانيون الخلافة من العرب وسلموها إلى المأمون، كما أخرجوها قبلًا من بني أمية وسلموها إلى أجداده.

فاستفحل أمر الفرس في أيام المأمون وازداد العرب ضعفًا، حتى كثيرًا ما كانوا يتعرضون له في الشوارع يشكون إغضاءه عنهم، ومن أقوالهم: «يا أمير المؤمنين، انظر إلى عرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان ...».[٦٣]

فلما أفضت الخلافة إلى المعتصم سنة ٢١٨هـ، وقد جمع ما جمعه من الأتراك والفراغنة، كانت الضربة القاضية على العرب في الدولة العباسية؛ لأنه كتب إلى عماله في الأطراف بإسقاط من في دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم، ففعلوا وهم يستعيذون بالله من ذلك، وانحط شأن العرب من ذلك الحين.[٦٤] ومنعوا من الولايات. وآخر من ولي مصر منهم عنبسة بن إسحق، صرف عنها سنة ٢٤٢هـ[٦٥] فتمكن الفرس من الدولة وزادت رغبتهم في نزعها من العرب على الإطلاق، فقام مرداويج في أصفهان سنة ٣٢٢هـ يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة إلى الفرس، ويبطل دولة العرب[٦٦] فلم يفلح، على أن النفوذ تحول بالتدريج إلى الخدم، كما سترى.

(٥-٣) الشعوبية والعرب

وفي أيام المأمون ومن جاء بعده تظاهر الشعوبية بالطعن على العرب، وكان المأمون يقربهم ويجعلهم من بطانته ويجيزهم، ومنهم سهل بن هارون قيم بيت الحكمة، وكان شديد التعصب على العرب — وأبو عبيدة الراوية الشهير، وعلان الشعوبي. وألف الشعوبية الكتب في ذكر مثالب العرب والرد على القائلين بتفضيلهم على سواهم من الأمم.

---

[٦٣] ابن الأثير ١٧٦ ج٦.

[٦٤] المقريزي ٩٤ و٣١١ و٣١٣ ج١ وابن خلدون ١٣٠ ج١.

[٦٥] المقريزي ٢٩٤ ج٢.

[٦٦] الفخري ٢٥٣.

والشعوبية يقولون: بالمساواة بين بني الإنسان؛ ولذلك سموهم أيضًا: «أهل التسوية»، ومن أقوالهم في الرد على العرب: أن النبي ﷺ نفسه ساوى بين المسلمين على اختلاف جنسياتهم بقوله: «المسلمون إخوة، تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم». وقوله في خطبة حجة الوداع: «ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى». وما جاء في القرآن: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾. والشعوبية ينوبون بدفاعهم عن كل أمم الأرض في ذلك العهد، إلا العرب، فإذا افتخروا (أي: الشعوبية) بملوكهم ذكروا الفراعنة والنماردة والعمالقة والأكاسرة والقياصرة، وافتخروا بسليمان الحكيم والإسكندر الكبير وبملوك الهند. وإذا فاخروهم بالأنبياء والمرسلين ذكروا الأنبياء من آدم إلى أيامهم، وإنهم جميعًا من غير العرب، إلا أربعة هم: هود، وصالح، وإسماعيل، ومحمد ﷺ. وإذا فاخروهم بالعلم والصناعة والفلسفة، ذكروا اختراع لعبة الشطرنج ورمانة القبان والاسطرلاب، وفخروا بفلسفة اليونان وأشعارهم وسائر علومهم وعلوم الهند والفرس وغيرهم. وبلغ من جسارة بعض الشعوبية في بعض ردوده أن قال: «فما الذي تفخر به العرب على العجم؟ فإنما هي كالذئاب العادية والوحوش النافرة، يأكل بعضها بعضًا ويغير بعضها على بعض، فرجالها موثقون في حلق الأسر، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الإبل».[٦٧] واستشهدوا على ذلك بأبيات من أقوال العرب تدل على ضعف غيرتهم على العرض وقالوا: «لا يفلح العربي إن لم يكن معه نبي ينصره».[٦٨] وعيروهم باستلحاق الأدعياء ونظموا الأشعار طعنًا فيهم. وممن نظم المطاعن عليهم الحسن بن هانئ وبشار بن برد وغيرهما، على أن بشارًا كان تارة مع هؤلاء وتارة مع هؤلاء.

وقام المتعصبون للعرب فألفوا الكتب في الرد على الشعوبية. ومن أشهر ما ألف في ذلك كتاب «تفضيل العرب» لابن قتيبة، وقد رد الشعوبية عليه في مناظرات يطول شرحها. وعلى أي حال فإن السياسة وطبيعة العمران قضت بذهاب دولة العرب.

[٦٧] العقد الفريد ٦٩ ج٢.

[٦٨] ابن الأثير ٥٧ ج٧.

(٦) نكبة الوزراء الفرس

(٦-١) الوزراء الفرس قبل البرامكة

قد رأيت أن الخلفاء العباسيين قربوا الموالي الفرس وولوهم المناصب الكبرى، فاتخذوا منهم الوزراء والعمال، فاعتز الفرس وتاقت نفوسهم إلى الاستبداد بالدولة والرجوع إلى ما كانوا فيه على عهد الأكاسرة. وهم يعلمون أن ذلك لا يتيسر لهم في إسلام إلا بصبغة دينية تحت راية الخلافة الإسلامية. وربما كان ذلك الأمل في جملة ما حملهم على التشيع لأهل البيت في أيام بني أمية ونصرتهم في طلب الخلافة.

فلما انتقلت البيعة من العلويين إلى العباسيين وبويع هؤلاء بالخلافة، ثم جعلها المنصور محصورة فيهم دون العلويين، وقاتل آل الحسن وقتلهم بعد أن قتل أبا مسلم وغيره من شيعته، لم ير الفرس بدًّا من الرضوخ لسلطانه خوفًا من بأسه. على أنهم ظلوا على مذهب الشيعة، وتربصوا يتوقعون فرصة يثبون فيها على الدولة أو ينشؤون لأنفسهم دولة شيعية.

وكان الخلفاء يلاحظون ذلك ويحاذرون الوقوع فيه، فيستخدمون الفرس في أكبر مصالح الدولة على حذر. فإذا رأوا من أحدهم ميلًا إلى التشيع عزلوه أو قتلوه؛ ولذلك كان الوزراء يكتمون تشيعهم، والخلفاء يبثون عليهم العيون في منازلهم، كما فعل المهدي بوزيره يعقوب بن داود، وأصله من موالي العرب، وكان في بادئ أمره كاتبًا عند إبراهيم بن عبد الله العلوي الحسني أخي محمد بن عبد الله الذي قام في المدينة وقتله المنصور. وكان يعقوب قد خرج مع محمد هذا على المنصور، ثم رجع في جملة الراجعين، وكتم ميله واتصل بالمهدي فاستخدمه وأحبه كثرًا ووثق به، حتى آخاه وأعلن ذلك في الدواوين، فقال سلم الخاسر في ذلك:

قل للإمام الذي جاءت خلافته	تهدي إليه بحق غير مردود
نعم القرين على التقوى أعنت به	أخوك في الله يعقوب بن داود

وأحرز يعقوب المذكور نفوذًا عظيمًا، حتى غلب على أمور المهدي وسهل له الإسراف والاشتغال عن مصالح الدولة، وتفرغ هو للعمل، والعرب لا يعجبهم ذلك، فجعلوا يعرضون به بالأشعار ونحوها، والمهدي يسمع أقوالهم ولا يبالي بها — روي أن المهدي حج مرة فمر بمكان عليه كتابة قرأها فإذا هي:

لله درك يا مهدي من رجل   لولا اتخاذك يعقوب بن داود

فقال المهدي لمن معه اكتبوا تحته: «على رغم أنف الكاتب لهذا وتعسًا لجده».

فلما لم يجد أعداؤه حيلة في تغيير قلب المهدي عليه تحولوا إلى الوشاية من جهة لا بد للخليفة أن يتنبه لها، فقالوا له: «إن يعقوب يميل إلى العلوية، وأنه كان معهم عند قيامهم على أبيه» فاشتغل خاطره، وكان يعقوب يكتم ذلك عنه، فأراد أن يمتحنه. فدعا به يومًا وهو في مجلس فرشه موردة وعليه ثياب موردة وعلى رأسه جارية جميلة، ثم أظهر المهدي أنه مسرور منه فأهداه المجلس بما فيه والجارية أيضًا، ثم تقدم إليه بمهمة طلب قضاءها — وهي أن رجلًا من العلوية يريد المهدي أن يتخلص منه، فأوصى يعقوب أن يقتله، فوعده بذلك بعد أن أقسم الإيمان. وذهب إلى منزله واستقدم ذلك العلوي وكلمه فرآه لبيبا، وتوسل الرجل إليه أن يحقن دمه، فحن له يعقوب وعفا عنه وأوصاه بالفرار وساعده بالمال. وكانت الجارية في بعض جوانب البيت تسمع ما جرى، فنقلت الحكاية كما جرت. فبعث المهدي حتى قبض على الرجل وخبأه، وأتى بيعقوب فاعترف له بما فعله فحبسه بالمطبق عدة سنين، ولم يخرج إلا في السنة السادسة من خلافة الرشيد، شفع له يحيي بن خالد البرمكي؛ لأنهما من طينة واحدة ومذهب واحد، وكان يعقوب قد عجز فخيره الرشيد في الإقامة حيث يشاء، فاختار مكة فسيروه إليها وتوفي فيها سنة ١٨٧هـ وهي السنة التي نكب فيها البرامكة.

(٧) الوزراء البرامكة

(٧-١) مرتبتهم في الدولة

لما توفي المهدي والهادي وأفضت الخلافة إلى الرشيد استوزر البرامكة؛ لأن خالدًا جدهم من قواد أبي مسلم، وقد جاهد في نصرة العباسيين جهادًا حسنًا، فأستوزره أبو العباس واستعمله المنصور في الحروب كما تقدم. وكان خالد كبير العقل واسع الصدر، لم يبلغ أحد من ولده مبلغه في الجود والرأي والبأس والعلم، واشتهر ابنه يحيى بموفور العقل وسداد الرأي، وكان مقربًا من المهدي يعول على رأيه. وولد ليحيى سنة ١٤٨هـ غلامه الفضل، قبل ولادة الخيزران للرشيد بسبعة أيام، وربى الطفلان معًا فأرضعت الخيزران

الفضل من لبن ابنها، فكان الفضل بن يحيي أخا الرشيد من الرضاعة، وفي ذلك يقول سلم الخاسر:[٦٩]

أصبح الفضل والخليفة هرو   ن رضيعي لبان خير النساء

ولما ترعرع هرون عهد المهدي إلى يحيى بتربيته، فشب الرشيد في حجره وكان يدعوه: «يا أبت»، فلما مات المهدي سنة ١٦٩هـ في جرجان كان أكبر رجال الدولة المقربين يومئذ يحيى بن خالد والربيع بن يونس. وخاف الرشيد اختلال الأمر إذا علم الناس بموت أبيه وهم في تلك الحال، فاستشار يحيى فأشار عليه برأي كان فيه الصواب، حتى رجعوا إلى بغداد وقد هاج الناس، وفيها الخيزران أم الهادي والرشيد، فبعثت إلى الربيع ويحيى لتشاورهما، فأجابها الربيع ولم يجبها يحيى، وأوصاه أن يقوم بأمر الرشيد كما كان في أيام أبيه ووبخ الربيع.

وأول شيء خطر للهادي بعد قبضه على أزمة الخلافة أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد، ويحول الإرث إلى ابنه لتبقى الخلافة في نسله، كما كان يفعل معظم الخلفاء في مثل هذه الحال. فأعلن الهادي عزمه لبعض خاصته فوافقوه، وخلعوا هرون وبايعوا جعفر بن الهادي، وتنقصوا من الرشيد في مجلس الجماعة. فأمر الهادي ألا يسار بين يديه بالحربة، على جاري العادة في المسير بين يدي ولي العهد، فاجتنبه الناس وتركوا السلام عليه، ورضي هو بذلك. ولكن يحيى لم يرض، بل حرضه على التمسك بحقه في ذلك، فوشى بعضهم إلى الهادي أن يحيى يفسد الرشيد عليه، فبعث الهادي إلى يحيى فقال له: «يا يحيى، ما لي ولك؟». قال: «ما يكون من العبد إلى مولاه إلا طاعته». فقال: «لم تدخل بيني وبين أخي وتفسده عليّ؟» فقال: «من أنا حتى أدخل بينكما؟ إنما صيرني المهدي معه، ثم أمرتني أنت بالقيام بأمره فانتهيت إلى أمرك». فطابت نفس الهادي بهذا القول. فاغتنم يحيى رضاءه وقال: «يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الإيمان هانت عليهم أيمانهم، وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد للبيعة»، قال: «صدقت» وصرفه.

فلما لقي الهادي القواد الذين خلعوا الرشيد حملوه على معاودة الخلع، فبعث إلى يحيى فحبسه، فكتب إليه يحيى وهو في الحبس: «إن عندي نصيحة»، فأحضره وسأله

[٦٩] ابن الأثير ٢٧٧ ج٥.

عما عنده فقال يحيى: «يا أمير المؤمنين، أرأيت إن كان الأمر الذي لا نبلغه ونسأل الله أن يعدمنا قبله؟ (يعني موت الهادي) أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الرشد، أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم؟». وقال: «ما أظن ذلك». قال: «يا أمير المؤمنين، أفتأمن أن يسمو إليها أكابر أهلك مثل فلان، ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك؟ والله إن هذا الأمر لو لم يعقده المهدي لأخيك لقد كان ينبغي أن تعقده أنت له، فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدي؟ ولكني أرى أن تقر الأمر على أخيك، فإذا بلغ (جعفر) أشده أتيت بالرشيد فخلع نفسه له وبايعه». فقبل الهادي قوله وعمل به.[٧٠]

وتوفي الهادي ولم يملك إلا سنة، وأفضت الخلافة إلى الرشيد، ويحيى أول من بشره بها وأتاه بالخاتم وهو نائم، فعرف الرشيد فضله في ذلك وقال له: «يا أبت أنت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك الأمر». ودفع إليه خاتمه وجعل إصدار الأمور وإيرادها إليه. وكان يعظمه، فإذا ذكره قال: «أبي» وفي هذه الوزارة يقول الشاعر:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة	فلما ولي هرون أشرق نورها؟
بيمن أمين الله هرون ذي الندى	فهرون واليها ويحيى وزيرها

وخلف يحيى أولادًا أحسنهم الفضل في جوده ونزاهته، وجعفر في كتابته وفصاحة لسانه، ومحمد في بعد همته، وموسى في شجاعته وبأسه. وقد تولوا أرفع المناصب وتصرفوا في الدولة، وخصوصًا جعفر والفضل، فضلًا عما اشتهروا به من الجود والسخاء، وكان أبوهم يحيى جوادًا مثلهم، فاشتق الناس من اسمهم فعلًا للسخاء فقالوا: «تبرمك الرجل» أي: جاد وسخا.

وأراد الرشيد إكرام يحيى، فولى ابنيه الفضل وجعفر أعظم الأعمال، فقسم المملكة بينهما، فجعل جعفر عاملًا على الغرب كله من الأنبار إلى إفريقية، وقلد الفضل الشرق كله من شيروان إلى أقصى بلاد الترك. فشخص الفضل إلى خراسان سنة ١٧٦هـ فجعلها مركز عمله، وأزال سيرة الجور منها وبنى المساجد والحياض والربط وأحرق دفاتر

[٧٠] ابن الأثير ٢٩ ج٦.

البقايا، وزاد الجند ووصل الزوار والقواد والكتاب، لكنه لم يقم فيها إلا قليلًا، فاستخلف على عمله وشخص إلى العراق سنة ١٧٩هـ، فأكرمه الرشيد ثم ولاه الوزارة، ورأى بعد قليل أن ينقلها إلى جعفر فخاطب أباهما قائلًا: «قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر، وقد استحييت من مكاتبته في هذا المعنى فاكتب أنت إليه». فكتب يحيى إلى الفضل: «قد أمر أمير المؤمنين — أعلى الله أمره — أن تحول الخاتم من يمينك إلى شمالك»، فأجابه الفضل: «قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين في أخي، وما انتقلت عني نعمة صارت إليه، ولا غربت عني رتبة طلعت عليه».[٧١]

وتمكن جعفر عند الرشيد وغلب على أمره، وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه، حتى اتخذ الرشيد ثوبًا له زيقان، فكان يلبسه هو وجعفر جملة. وتصرف جعفر في المملكة تصرفًا مطلقًا، لم يكن يمضي أمرًا إلا أمضاه الرشيد، ولو كان فيه هبة نصف مملكته أو تزويج بعض بناته. وفي حكايته مع عبد الملك بن صالح الهاشمي ما يمثل ذلك الإطلاق أحسن تمثيل: كان الرشيد متغيرًا على عبد الملك؛ لأنه من بني عمه وله طمع في الخلافة، فاتفق أن عبد الملك المذكور كان مرة في مجلس شراب بمنزل جعفر، فلما أراد الانصراف قال له جعفر: «اذكر حوائجك» فشكا إليه أن الرشيد متغير عليه، فقال له: «قد رضي عنك أمير المؤمنين وزال ما عنده منك»، فقال: «وعلي ٤٠٠٠٠٠٠ درهم دينا»، قال: «تقضى عنك وإنها لحاضرة، ولكن كونها من أمير المؤمنين أشرف بك وأدل على حسن ما عنده لك». قال: «وإبراهيم ابني أحب أن أرفع قدره بصهر من ولد الخلافة». قال: «قد زوجه أمير المؤمنين العالية ابنته». قال: «وأوثر التنبيه على موضع برفع لواء على رأسه». قال: «قد ولاه أمير المؤمنين مصر». وخرج عبد الملك والحضور يعجبون من إقدام جعفر على ذلك من عند نفسه، وخافوا أن يغضب الرشيد من هذه الجسارة، فما عتم أن علموا بإمضاء الرشيد كل ذلك وهو يقول: «أحسن أحسن».[٧٢]

ناهيك بما كان من إطلاق يده في خزائن الدولة وفي رقاب الناس. ومع ذلك فإن الرشيد حالما أوجس منه على سلطانه نكبه ونكب سائر أهله نكبتهم المشهورة، واختلف المؤرخون في سببها وهو ما نذكره.

---

[٧١] الفخري ١٨٦.

[٧٢] ابن خلكان ١٦ ج١.

(٨) نكبة البرامكة

(٨-١) الرشيد والشيعة

كان البرامكة من الشيعة، وكان جدهم خالد قد بايع للعلويين قبل العباسيين مثل سائر أهل خراسان وفارس. فلما غلب العباسيون وشاهد فتكهم بأبي سلمة ثم بأبي مسلم وسواه ممن يريد الخلافة للعلويين، رأى من الحكمة وسداد الرأي أن يغضي عن ذلك الأمر، وأخلص الخدمة للسفاح ثم للمنصور. وسار ابنه يحيى وأولاده على نحو ذلك، وهواهم لا يزال مع الشيعة العلوية من إيثار آل علي، لكنهم كانوا يكتمون ميلهم وخصوصًا في خلافة الرشيد؛ لأنه كان شديد الوطأة على العلويين وشيعتهم يتتبع خطواتهم ويقتلهم[٧٣] وكان يكره الشيعة منذ صباه، وهم يخافونه من قبل الخلافة. فلما تولى الخلافة أمر بإخراج الطالبيين جميعًا من بغداد إلى المدينة.[٧٤]

واشتهر بذلك حتى أصبح الشعراء يتقربون إليه بهجائهم، وكان شعراء العلويين يهجونه لهذا السبب، وهم لا يجسرون على الظهور في حياته. فلما مات ودفن في طوس، قال دعبل بن علي يعرض بما ارتكبه العباسيون جميعًا بقتل العلويين، من قصيدة مدح بها أهل البيت وهجا الرشيد، وأشار إلى اجتماع القبرين في طوس — قبر الرشيد وقبر الرضا — قال:

وليس حي من الأحياء نعلمه ... من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم ... كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة ... فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين أن قتلوا ... ولا أرى لبني العباس من عذر
أربع بطوس على القبر الزكي إذا ... ما كنت تربع من دير إلى وطر
قبران في طوس: خير الناس كلهم ... وقبر شرهم، هذا من العبر!
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا ... على الزكي بقرب الرجس من ضرر

[٧٣] العقد الفريد ١٤٢ ج١.

[٧٤] ابن الأثير ٤٧ ج٦.

هيهات كل امرئ رهن بما كسبت   له يداه فخذ ما شئت أو فذر[٧٥]

وكان البرامكة يكرهون تعصب الرشيد على العلوية، ويعدون عمله حرامًا[٧٦] ويكظمون. على أنهم كانوا يساعدون الشيعة سرًّا بما يبلغ إليه إمكانهم، وكان كبارهم يجتمعون إلى جعفر، وجيه البرامكة يومئذ وصاحب الصوت الأعلى عند الرشيد، ويذكرون أعمال الرشيد، وجعفر يحاذر أن يبلغ ذلك إليه، ولكن حساده في بلاط الخليفة — وأكثرهم من العرب أو من ينتمي إليهم — كانوا يسعون به إلى الرشيد، وأشدهم غيظًا منه وأقدرهم على الكيد به زبيدة أم الأمين؛ لأنه فضل ابن ضرتها المأمون على ابنها. وقد اضطغنت عليه منذ كانوا في الكعبة، وقد جاءها لتعليق كتابي العهد للأمين والمأمون، فلما حلف الأمين اليمين على جاري العادة وهم بالخروج من الكعبة، رده جعفر وقال له: «إن غدرت بأخيك خذلك الله»، وطلب إليه أن يحلف على ذلك ثلاثًا، فشق طلبه على أمه زبيدة فحقدتها عليه، وكانت من جملة من حرض الرشيد على الإيقاع به[٧٧] فضلًا عما بينهما من العداوة العنصرية، وناهيك بمن كان يحسد البرامكة من أمراء العرب، وخصوصًا آل الربيع وآل مزيد الشيباني، فإن البرامكة أضعفوا نفوذهم في الدولة وأغروا الرشيد بهم[٧٨] غير حسادهم من الفرس، حتى عمهم محمد بن خالد، فإنه كان من جملة حسادهم والساعين في أذاهم.[٧٩]

هؤلاء جميعًا كانوا يوغرون صدر الرشيد على جعفر، تارة من حيث تشيعه وطورًا من حيث استبداده بالدولة، وآونة من حيث استئثاره هو وأهله بالأموال، والرشيد يحفظ ذلك ويتدبره، وقد غلب عليه ما غرس في نفسه من أفضال يحيى عليه، وآثار أبنائه في تنظيم دولته وإحياء معالمها، وإن يكن ساءه ما يبديه جعفر أحيانًا من نصرة العلويين أو استنصارهم، فإن جعفر لما ولاه الرشيد المغرب استخلف على مصر رجلًا شيعيًّا[٨٠] فكان الرشيد صابرًا على ذلك يترقب الفرص.

[٧٥] الأغاني ٥٧ ج١٨.
[٧٦] الأغاني ٧٦ ج٢٠.
[٧٧] المسعودي ١٩٥ ج٢.
[٧٨] ابن الأثير ٥٧ ج٦ وابن خلكان ١٧٩ ج٢.
[٧٩] ابن الأثير ٧١ ج٦.
[٨٠] السيوطي ١٠ ج٢.

(٨-٢) الشيعة العلوية بخراسان

وكان الخراسانيون ومن والاهم من أهل طبرستان والديلم — قبل قيام العباسيين — من شيعة علي، وإنما بايعوا للعباسيين مجاراة لأبى مسلم أو خوفًا منه. فلما رأوا ما حل به من القتل غدرًا، غضبوا وتعاقدوا على الأخذ بثأره، ثم رأوا المنصور فتك بالراوندية إخوانهم وهم من أصحاب أبي مسلم، ثم بنى بغداد وتحصن فيها، فتربصوا وإذا هو قد حارب العلويين وبطش فيهم، وفر من بقي من ولد علي إلى أطراف المملكة الإسلامية في خراسان والمغرب، وأخذوا يبثون دعاتهم وينشرون دعوتهم سرًّا، فكان الخراسانيون من أقوى أنصارهم انتقامًا من المنصور، لقتله أبي مسلم وعملًا بتعاقدهم عليه.

فكان العباسيون إنما يخافون على دولتهم من خراسان؛ لأنها شيعة العلويين وأهلها أشداء ولهم رهبة في قلوب الناس، منذ نقلوا الخلافة من بني أمية إلى بني العباس. وكان داعية الشيعة هناك في أيام الرشيد يحيى أخا محمد بن عبد الله الذي حاربه المنصور وقتله. فظهر يحيى هذا في الديلم سنة ١٧٦هـ وقويت شوكته حتى خافه الرشيد، فسرح إليه الفضل بن يحيى، فاستنزله الفضل من بلاد الديلم بالحسنى، على أن يشترط ما أحب ويكتب له الرشيد بذلك خطه، فكتب له أمانًا أمضاه الرشيد وجلة بني هاشم، وجاء الفضل ومعه يحيى إلى بغداد، فوفى له الرشيد بكل ما أحب وأجرى له أرزاقًا سنية.

ثم خطر له أن يحبسه خوفًا منه، ولعل بعض الأعداء الشيعة حرضوه على حبسه، لكنه لم يكن يستطيع ذلك لعهد الأمان الذي بيده. فاستشار الفقهاء في الأمان فقال بعضهم: الأمان صحيح، فحاجه الرشيد فقال الآخر — وهو أبو البختري القاضي: هذا أمان منتقض من وجه كذا، فمزقه الرشيد وصمم على حبس الرجل، فدفعه إلى جعفر فحبسه وهو يرى أنه مظلوم؛ لأنه جاء على الأمان وقد نكث الرشيد الأمان، فحدثته نفسه أن يطلقه بما له من النفوذ والدالة، ولم يكن يظن الرشيد يسأل عنه. فبعث إلى يحيى المذكور من الحبس فخاطبه، فتوسل الرجل إليه وقال: «اتق الله في أمري ولا تتعرض أن يكون غدًا خصمك محمد ﷺ، فوالله ما أحدثت حدثًا ولا آويت محدثًا» فرق له جعفر وقال: «اذهب حيث شئت من بلاد الله». قال: «وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ؟» فوجه معه من أداه إلى مأمنه.[٨١]

[٨١] ابن خلدون ٨ ج٤ وابن الأثير ٥٠ و٧٠ ج٦.

(٨-٣) الرشيد وجعفر

وكان حساد جعفر يراقبون حركاته، وخصوصًا الفضل بن الربيع؛ لأنه كان يرشح نفسه للوزارة بعد أبيه فسبقه إليها أولئك العجم، وكانت له عيون على جعفر فأخبروه بما فعله، فرفع الخبر إلى الرشيد فأنكره، ولكنه انتهر الفضل وأظهر أن جعفر إنما فعله بأمره. ثم بعث إلى جعفر فدعاه إلى الطعام معه، وجعل يلقمه ويحادثه ثم سأل عن يحيى فقال: «هو بحاله في الحبس» فقال: «بحياتي؟» ففطن جعفر فقال: «لا وحياتك ...»، وقص عليه أمره وقال: «قد علمت أنه لا مكروه عنده»، فقال الرشيد: «نعم ما فعلت، ما عدوت ما في نفسي». وقد كظم غيظه وعزم على الإيقاع به من ذلك الحين، ولما قام جعفر عنه قال في نفسه: «قتلني الله إن لم أقتلك!» ولكنه مكث يترقب الفرص ويدبر الحيل، لما يعلمه من نفوذ البرامكة بما يبذلونه من الأموال للناس على اختلاف طبقاتهم، حتى بني هاشم أنفسهم.

وأراد أن يغالطه لئلا ينتبه جعفر لما في نفس الرشيد عليه، فأظهر أنه يريد أن يوليه خراسان، فأخذ الخاتم ودفعه إلى أبيه يحيى، وعقد له على خراسان وسجستان ثم عزله عنها بعد عشرين يومًا[٨٢] فهو إما ولاه إياها تمويهًا أو ولاه ثم خافه.

وكان في جملة حساد البرامكة علي بن عيسى بن ماهان، فسعى بموسى بن يحيى أخي جعفر واتهمه في أمر خراسان، وأعلم الرشيد أنه يكاتبهم ليسير إليهم ويحرضهم على خلع الطاعة، فصدق الرشيد الوشاية فحبسه ثم أطلقه، ولكنه تغير على البرامكة جميعًا وظهر ذلك في بعض معاملاته. فكان يحيى بن خالد مثلًا يدخل على الرشيد بغير إذن، فعرض الرشيد في بعض حديثه استهجانه ذلك فكف يحيى عنه. وكان يحيى إذا دخل على الرشيد قام له الغلمان، فأوصى الرشيد مسرورًا خادمه ألا يقوموا له، فشعر يحيى بهذا التغير وتناقل الناس خبر ذلك، ولبثوا يتوقعون شرًّا يصيب البرامكة وليس من يجرؤ على إخبارهم به. على أنهم كانوا يعرضون في أثناء الغناء بما يخافون عليهم — ومن ذلك ما كان يغنيه ابن بكار أحيانًا:

[٨٢] ابن الأثير ٦١ ج٦.

ما يريد الناس منا؟ ما تنام الناس عنا؟
إنـمـا هـمـهـم أن يظهروا ما قد دفنا

وكان الرشيد يستعظم الإقدام على ذلك الأمر، ويخاف أنصار البرامكة إذا هو فتك بهم، فأراد أن يستطلع أفكار خاصته في هذا الشأن ليرى وقعه في قلوبهم، والمغنون أحسن وسيلة لذلك لمخالطتهم الناس في حال سكرهم وطربهم، والسكر يبعث صاحبه على الإفشاء بما في ضميره والتصريح بما يجول في خاطره، فسأل الرشيد مغنية إسحق الموصلي مرة: «بأي شيء يتحدث الناس؟» فقال: «يتحدثون بأنك تقبض على البرامكة وتولى الفضل ابن الربيع الوزارة» فأظهر الرشيد الغضب وصاح به: «ما أنت وذاك؟ ويلك!» فأمسك.[٨٣]

وكان للرشيد عيون على البرامكة في منازلهم ودواوينهم، يحصون عليهم أنفاسهم فلا يخلو أن تبدر منهم بادرة تلميحًا أو تصريحًا، والوشاة يعظمونها له.

وكان في جملة جواسيس الرشيد خادمان خزريان رباهما وأهداهما إلى جعفر، فكانا ينقلان إليه كل ما يدور في مجالس جعفر يوميًّا. وكان لجعفر مجلس أنس يعقده في منزله مرة في الأسبوع، يحضره أرباب الدولة وأهل الوجاهة من الفرس، يلبسون أثوابًا لونها واحد يخلعها عليهم جعفر ويلبس هو مثلهم. ففي أحد هذه المجالس دار الكلام على أبي مسلم وبطشه، وكيف استطاع وحده أن ينقل الدولة الإسلامية من عائلة إلى عائلة. فقال جعفر: «لا يستغرب ذلك منه ولا فضل له به؛ لأنه لم يدركه إلا بقتل ٦٠٠٠٠٠ نفس سفك دماءهم صبرًا، وإنما الرجل من ينقل الدولة من قوم إلى قوم بغير سفك دم»[٨٤] وكان الغلامان الخزريان يسمعان قوله فنقلاه إلى الرشيد، وأفهماه أنه يعرض بنقل الدولة من العباسيين إلى الفرس أو العلويين، فازداد خوف الرشيد منه.

فلما كانت السنة التي نكبوا فيها (سنة ١٨٧هـ) كان الرشيد قادمًا من الحج وقد صمم على الفتك بجعفر، فأظهر رضاءه عنه وولاه كورة خراسان، أراد بذلك أن يطمئنه ليأخذ الخاتم منه بحجة الولاية، وخلع عليه وعقد له لواءً وعسكرًا بالنهروان، فضرب

[٨٣] الأغاني ١١٣ ج٥.

[٨٤] زينة المجالس (فارسي).

الناس مضاربهم هناك ومكثوا يتأهبون للسفر، وفيهم نخبة من أصحاب جعفر، وبقي هو ببغداد يتأهب للحاق بهم.

وكان له صديق من الهاشميين غيور عليه اسمه إسماعيل بن يحيى، قد علم ما في نفس الرشيد على جعفر وأهله، فأراد أن يتوسط في إصلاح ما بينهما، فجاء جعفر في أثناء تأهبه للخروج إلى خراسان، وخلا به وحادثه في شؤون شتى حتى تطرق إلى الموضوع الذي جاء من أجله، فقال له: «يا سيدي أنت عازم على الخروج إلى بلدة كثيرة الخير واسعة الأقطار عظيمة المملكة، فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلتك عنده». فلما سمع جعفر قوله غضب كان ما يجول في نفس الرشيد لم يخطر بباله وقال: «والله يا إسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك إلا بفضلي، ولا قامت هذه الدولة إلا بنا. أما كفى أني تركته لا يهتم بشيء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته، وقد ملأت بيوت أمواله مالًا، وما زلت للأمور الجليلة أدبرها حتى يمد عينه إلى ما ادخرته واخترته لولدي وعقبي بعدي، وداخله حسد بني هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع؟» والله لئن سألني شيئًا من ذلك ليكونن وبالًا عليه!» كأنه يهدده بذهاب خراسان. فلما سمع إسماعيل تهديده ورأى غضبه، خرج من عنده واحتجب عنه وعن الرشيد؛ لأنه صار متهمًا عندهما.

فسمع ذلك الحديث أحد جواسيس الرشيد ونقله إليه، فصمم على الفتك به. ولعله كان ينوي القبض عليه وحبسه فقط، فلما بلغه هذا التهديد عزم على قتله. وأكبر الإقدام على ذلك، فاستشار زبيدة امرأته وصرح بما يجول في خاطره قائلًا: «إني خائف إن تمكن هؤلاء من خراسان أن يخرج الأمر من يدي» فحرضته على سرعة الفتك به، ويقال: إنها ذكرت له أمورًا ارتكبها جعفر في بيت الرشيد[٨٥] تتعلق بالعباسية أخته. فاغتنم الرشيد بعد جعفر عن رجاله ومريديه، وهم في عسكره بالنهروان وهو في بغداد، وبعث خادمه مسرورًا ليأتيه برأسه، فذهب إليه وقتله كما هو مشهور. ووجه الرشيد من أحاط بأبيه يحيي وسائر أولاده وبأخيه الفضل ليلًا، فحبسهم وقبض ما وجده لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك، وأرسل إلى سائر البلاد يقبض على أموالهم ووكلائهم ورقيقهم وأسبابهم، ولم يتعرض لمحمد بن خالد؛ لأنه كان من جملة الساعين بهم، وأسند الوزارة بعدهم إلى الفضل بن الربيع عدوهم. ثم ندم الرشيد على قتل البرامكة وكان إذا ذكرهم

٨٥ الأتليدي ١١٣.

بكى[٨٦] وقد أصاب جعفر من الرشيد، كما أصاب بزرجمهر وزير كسرى أبرويز، إذ اتهمه كسرى بالزندقة فقبض عليه وقتله ثم ندم على قتله.[٨٧]

فالرشيد فتك بالبرامكة؛ لأنه خافهم على سلطانه، عملًا بسياسة العباسيين في تأييد دولتهم، إذ اتهم جعفر وشك فيه فقتله، وهي غير سياستهم في معاملة رعاياهم، فإنها كانت مؤسسة غالبًا على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية ويستدعيه الحق، مع رفق وحلم وبذلك ومحاسنه. ولاسيما الرشيد فقد كان إذا وعظته بكى، وإذا استعطفته عفا وإذا استجديته سخا، حتى جرى خبره مجرى الأمثال. أما العلويون فكان لا يخاف الله فيهم[٨٨] ولا فيمن يدعو إليهم أو ينصرهم.

(٩) الأمين والمأمون أو العرب والفرس

لما قتل البرامكة على هذه الصورة غضب أهل خراسان، وتضاعفت نقمتهم على الدولة العباسية، وتعاقدوا على الأخذ بثأر أبي مسلم والبرامكة، وتربصوا يترقبون الفرص. وتوجهت آمالهم إلى المأمون؛ لأن أمه فارسية، وقد شب في حجر جعفر البرمكي على الميل إلى الشيعة العلوية — ولم تكن الشيعة يومئذ مذهبًا دينيًّا كما هي اليوم، وإنما كانت حزبًا سياسيًّا يراد به جماعة الفرس أو غيرهم من أنصار العلويين. فتمكن حب الفرس ومذهبهم من نفس المأمون منذ نعومة أظفاره، وكان يحيى بن خالد قد اختار الفضل بن سهل السرخسي لخدمة المأمون. والفضل أصل من مجوس خراسان، أسلم على يد المأمون[٨٩] سنة ١٩٠هـ وتشيع طمعًا في نصرة الفرس في خراسان، وكان همامًا فقدمه يحيي في الدولة حتى صار من خاصته، ثم جعله قهرمانا له. وتوسم الفضل في المأمون نجابةً وتعقلًا، فتوقع أن تصير الخلافة إليه فلزمه وخدمه وتقرب منه. وكان المأمون يجله ويقدمه، ولم يكن الفضل طامعًا في أقل من الوزارة — يحكى أن مؤدب المأمون قبل الخلافة لما رأى جميل رأيه في الفضل وإكرامه إياه، نقل ذلك للفضل وقال

[٨٦] الأغاني ٧٤ ج١٧.

[٨٧] المسعودي ١١٩ ج١.

[٨٨] الفخري ١٧.

[٨٩] ابن خلكان ٤١٣ ج١ وابن الأثير ٧٩ ج٦.

له: «لا أستبعد أن يحصل لك منه ١٠٠٠٠٠٠ درهم»، فاغتاظ الفضل وقال: «والله ما صحبته لأكتسب منه مالًا قل أو جل، ولكني صحبته ليمضي حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب».[٩٠]

وكان الرشيد لما بايع لأولاده بولاية العهد جعل للأمين العراق والشام إلى آخر المغرب وهو الخليفة بعده، وجعل للمأمون خراسان وسائر المشرق[٩١] على أن يتولى الخلافة بعد أخيه الأمين. وكل ذلك بتدبير جعفر وغيره من أحزاب الشيعة، وفي جملتهم الفضل بن سهل، وأراد الرشيد سنة ١٩٢هـ أن يسير إلى خراسان، فأمر ابنه المأمون أن يبقى في بغداد حتى يرجع وكان الرشيد مريضًا، فخاف الفضل أن يموت الرشيد في الطريق فيذهب سعيه هدرًا، فجاء إلى المأمون وقال له: «لست تدري ما يحدث بالرشيد، وخراسان ولايتك ومحمد الأمين المقدم عليك، وأن أحسن ما يصنعه بك أن يخلعك، وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم، وزبيدة وأموالها كما تعلم، فاطلب إلى أمير المؤمنين أن تسير معه». فطلب المأمون ذلك من أبيه فامتنع أولًا، ثم أجاب — ولا بد لامتناعه من سبب كان يجول في خاطره، وهو يتوقع قرب أجله ويرى لأولاده عليه رقباء[٩٢] يحصون أنفاسه ويستطيلون بقاءه.

فسار المأمون مع أبيه والفضل معهما، واهتم الفضل في أثناء الطريق بتأييد أمر المأمون، فأخذ له البيعة على كل من في عسكر الرشيد من القواد وغيرهم، وأقر له الرشيد وهو في طوس والأمين في بغداد، وله عيون مع الرشيد أشدهم غيرة عليه الفضل بن الربيع، وزير الرشيد بعد البرامكة. فلما بلغ الأمين اشتداد المرض على أبيه بعث إلى ابن الربيع وغيره يستحثهم على بيعته. فلما مات الرشيد هناك سنة ١٩٣هـ احتال ابن الربيع على من كان في ذلك العسكر، والمأمون غائب في مرو وحرضهم على اللحاق بالأمين، فأطاعوه رغبة منهم في الرجوع إلى أهلهم وأولادهم في بغداد، وأغفلوا العهود التي أخذت عليهم للمأمون، وحملوا ما كان في عسكر الرشيد إلى الأمين، وتمت البيعة له. ثم حسن الفضل بن الربيع للأمين أن يخلع أخاه المأمون من ولاية العهد، ففعل.

[٩٠] الفخري ٢٠٣.

[٩١] ابن الأثير ٦٩ ج٦.

[٩٢] ابن الأثير ٨٣ ج٦.

(٩-١) الفضل بن سهل وعلي الرضا

فلما بلغ المأمون موت أبيه، ورجوع رجاله إلى أخيه بالأموال والأحمال، وقد نكثوا عهده، خاف على نفسه فجمع خاصته بمرو وشاورهم في الأمر، وأظهر لهم ضعفه وأنه لا يقوى على أخيه، فنشطوه ووعدوه خيرًا. وقال له الفضل بن سهل: «أنت نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم، اصبر وأنا أضمن لك الخلافة»، فاطمأن خاطر المأمون بهذا الوعد الصريح، وقال له: «قد صبرت وجعلت الأمر إليك فقم به» وسماه ذا الرياستين، أي: رياسة السيف ورياسة القلم.

فبذل الفضل جهده في نصرة المأمون؛ لأنه إنما يعمل لنفسه ووطنه وأمته، واستمال الناس وضبط الثغور، وتعاظمت العداوة بين الأخوين، وقطعت الدروب بينهما من بغداد إلى خراسان، وأبطل كل منهما اسم أخيه من الخطبة، وتجردت الجيوش وحدثت معارك هائلة فاز فيها جند المأمون، وهم الفرس بقيادة طاهر بن الحسين، وانتهت الحرب بفتح بغداد وقتل الأمين سنة ١٩٨هـ، وقد حملوا رأسه إلى المأمون في خراسان. فلما تحقق المأمون صدق ما عاهده الفضل عليه، أصبح آلة بيده لا يخالفه في شيء. فاستبد الفضل في الدولة، وولى أخاه الحسن بن سهل كور الجبال والعراق وفارس والأهوار والحجاز واليمن، على أن يكون مقامه في بغداد، ثم اغتنم هذه الفرصة لنقل الخلافة إلى العلويين. وكان داعيتهم يومئذ في خراسان علي بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، المعروف بعلي الرضا. فبذل الفضل جهده في تحريض المأمون على بيعة علي الرضا بولاية العهد بعده، أي: أن يخرج الخلافة من بني العباس إلى العلويين. وربما جعل تلك البيعة شرطًا لمساعدته في استرجاع الخلافة له، أو أنه حسن له ذلك ولم يشترطه، فأجابه المأمون إلى طلبه، أما وفاء لوعده، أو مجاراة له للمكر به، أو أنه فعله عن حسن ظن في العلويين؛ لأنه رضع حب الشيعة من طفولته وكان يظهر التشيع[٩٣] فبايع لعلي الرضا سنة ٢٠١هـ وجعله الخليفة بعده، ولقبه «الرضا من آل محمد»، وأمر جنده بطرح السواد لباس العباسيين ولبس الخضرة، وكتب بذلك إلى الآفاق.

فلما بلغ ذلك الخبر إلى بغداد ضج الهاشميون وأتباعهم، وأعظموا الأمر وامتنعوا عن البيعة لعلي المذكور، وقالوا: لا تخرج الخلافة من ولد العباس، وقد تحققوا أن تلك

---

[٩٣] المسعودي ٢٢٤ ج٢.

البيعة إنما هي دسيسة من الفضل بن سهل، فأنكروا ولاية أخيه الحسن بن سهل على بغداد. وأقروا أخيرًا على خلع المأمون وبيعة عمه إبراهيم بن المهدي، فبايعوه ولقبوه «المبارك»، وبعث الهاشميون إلى المأمون يهددونه بالقتل إذا بقي على عزمه.

وكان الفضل بن سهل يخفي هذه الأخبار عن المأمون؛ لئلا يخاف فيندم وينكث البيعة فيخلع عليًّا فيذهب سعيه عبثًا. وكان علي الرضا مطلعًا على ما حدث في بغداد، وأبت نفسه أن يحدث ذلك بسببه، ولا يطلع المأمون عليه فجاءه بنفسه وأخبره بما صار إليه حال بغداد، وأنهم بايعوا إبراهيم بن المهدي. فاستغرب المأمون الخبر ولم يصدقه، وقال: «بل هم ولوه عليهم في أثناء غيابي، كذلك أخبرني الفضل». فقال له: «إن الفضل قد كذبك» فأدرك المأمون دسيسة الفضل، وأنه إنما نصره لهذا الغرض، وشك فيه فحل قتله عنده، فدس إليه أناسًا قتلوه في الحمام بسرخس مغافصة، ثم حاكمهم على قتله وقتلهم به.[٩٤]

وفكر في بيعة علي الرضا، فأعظم أن يرجع عنها وخاف إذا رجع أن يثور عليه أهل خراسان ويقتلوه، فعمد إلى سياسة الفتك فدس إليه من أطعمه عنبًا مسمومًا فمات[٩٥] فذهبت الأسباب التي أغضبت أهل بغداد، فخلعوا إبراهيم بن المهدي وعادوا إلى بيعة المأمون. فهرب إبراهيم والفضل بن الربيع وسائر الذين كانوا مع الأمين في تلك الثورة، وجاء المأمون بغداد سنة ٢٠٤هـ واستقر بها. ودفعًا للشبهة فيما اشتهر به من حب آل أبي طالب، اضطهدهم ومنعهم من الدخول عليه وأمرهم بلبس السواد.[٩٦]

فاضطرب أمر الشيعة في بغداد، مع بقاء النفوذ للفرس وهم يكتمون تشيعهم إلى آخر خلافة الواثق، فلما تولى المتوكل سنة ٢٣٢هـ اضطهد الشيعة وشدد النكير عليهم؛ لأنه كان قد ربي من حداثته بين جماعة أهل عصبية عربية يكرهون الفرس أو الشيعة، منهم علي بن الجهم الشاعر الشامي من بني شامة، وعمرو بن فرخ الرخجي، وأبو السمط من ولد مروان بن أبي حفصة، الذي كان يت قرب إلى الرشيد يهجو العلويين وهو من موالي بني أمية. وكانوا يخوفون المتوكل من الشيعة على الإجمال، ويشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم والإساءة إليهم، ثم حسنوا له الوقيعة في أسلافهم الذين

---

[٩٤] ابن الأثير ١٤٣ ج٦ والفخري ١٩٩ والأغاني ٣١ ج٩ وابن خلكان ٤١٤ ج١.

[٩٥] ابن الأثير ١٤٤ ج٦ والفخري ١٩٩.

[٩٦] ابن الأثير ١٥٦ ج٦.

يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين. فأثرت أقوالهم فيه، وشب على كره الشيعة وكره الخلفاء الذين كانوا ينصرون الشيعة قبله، وهم المأمون والمعتصم والواثق[٩٧] كما أثرت تربية البرامكة في المأمون وحببوا إليه الشيعة وأهلها.

فلما تولى المتوكل أمر بهدم قبر الحسين بن علي، وهدم ما حوله من المباني ومنع الناس من إتيانه، وبالغ في بغضه عليًّا وأهل بيته حتى جعله سخرية — ذكروا أنه كان في جملة ندمائه مخنث اسمه عبادة، كان يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو أصلع تشبهًا بالإمام علي، ويرقص ويقول: «قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين» (يعني عليًّا)، والمتوكل يشرب ويضحك[٩٨] وغلبت السنة في الدولة من ذلك الحين وقوامها الأتراك، كما سيأتي. وبذهاب أمر الشيعة من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها، وبخلافة المتوكل ينقضي العصر الفارسي الأول.

(١٠) الأسرار في الدولة العباسية

واشتهر بنو العباس على الخصوص بحفظ الأسرار والتكتم فيما ينوونه، وكانوا يفرضون ذلك على مواليهم ورجال بطانتهم، ولا سيما فيما يحتاجون إليه لتثبيت دعائم دولتهم، كما رأيت من تصرف الخلفاء مع قوادهم ووزرائهم من أول دولتهم، وخصوصًا المنصور مع أعمامه وأبي مسلم وغيرهم، وتصرف الرشيد مع البرامكة، والمأمون مع الفضل بن سهل وعلي الرضا وطاهر بن الحسين. وكانوا يرون كتمان مشروعاتهم شرطًا من شروط نجاحها، كما فعل قثم بن العباس في التفريق بين فرق الجند بحيلة لم يشأ أن يطلع المنصور عليها. وكانوا يستعينون على ذلك بالعيون والأرصاد، وكل منهم يتجسس على صاحبه، فيبث الخليفة العيون على قواده ووزرائه، ووزراؤه يقيمون الأرصاد عليه. فربما كان خادم الرجل وجاريته عينًا عليه، وقد يقيم الخليفة الجواسيس والرقباء على أولاده أو إخوته، أو يقيم ولاة العهد الرقباء على آبائهم، كما فعل الأمين والمأمون بأبيهم الرشيد، فقد كان رقيب المأمون على أبيه مسرورًا الخادم، ورقيب الأمين جبرائيل بن بختيشوع الطبيب، وكانوا يحصون أنفاسه[٩٩] كما تقدم.

[٩٧] ابن الأثير ٢٢ ج٧.

[٩٨] أبو الفداء ٤٠ ح ٢.

[٩٩] ابن الأثير ٨٣ ج٦.

ولما تولى المأمون الخلافة وأتى بغداد كان يتجسس على إبراهيم بن المهدي، فألزمه رجلًا ينقل إليه كل ما يسمعه من لفظه جدًّا أو هزلًا[١٠٠] وهكذا كان سائر الخلفاء، وخصوصًا في أواخر الدولة؛ لأن التجسس يكثر إذا مالت الدولة إلى السقوط وتدانت من الهرم، كما سيجيء. وكان للوزراء عيون على الخلفاء، وللخلفاء عيون على العمال، هم أصحاب البريد أو أصحاب الأخبار، غير ما كانوا يبثونه من الخدم والجواري والمغنيات لهذه الأغراض — كانوا يفعلون ذلك خوفًا على سلطانهم، فبالغوا في التكتم إلى ما يفوق الوصف. فكان للمأمون على كل واحد صاحب خبر، وكان يغتفر كل شيء إلا الفدح في الملك وإفشاء السر والتعريض بالحريم.[١٠١]

وبمحافظتهم على الأسرار والتكتم في أعمالهم، أشكل على الناس كثير من الحوادث التي جرت في أيامهم ولم يفهموا أسبابها، فنكبة البرامكة مثلًا تكهن المؤرخون في تدوينها رجمًا بالغيب، وذهبوا في أسبابها كل مذهب. وكم من قتيل لم يعرف قاتله فحسبوه مات من أكلة عنب أو تمر أو غير ذلك، وإنما قتل مسمومًا بدسيسة بعض الخلفاء أو القواد أو ولاة العهد إلى طبيبه أو صاحب داره.[١٠٢]

(١١) اختلاط الأنساب بعد الإسلام

قد رأيت ما كان للعرب من العناية في حفظ أنسابهم حتى كانوا يحتقرون من لم يكن مولودًا من أبوين عربيين، فإذا كان أبوه غير عربي سموه المذرع، وإن كانت أمه أعجمية سموه الهجين. وإذا كانت أمه أمة استعبدوه، فإذا أنجب اعترفوا به، وإلا ظل عبدًا، والعرب لا تورث الهجين، وهو من قبيل احتقارهم غير العرب كما تقدم.

[١٠٠] الأغاني ٨٢ ج٢٠.

[١٠١] المسعودي ٢٢٥ ج٢ وطبقات الأطباء ١٧١ ج١.

[١٠٢] طبقات الأطباء ١٨٢ ج١.

(١١-١) أبناء الإماء

ولما جاء الإسلام وغلب العرب على أمم الشرق من فارس والترك وغيرهما، وكثرت السبايا في أثناء الفتوح، اتخذوا من النساء أظئارًا ودايات ومراضع، واقتنوا الجواري للفراش، وكانوا في بادئ الرأي يكرهون التزوج بهن ويحتقرون أبناءهن، وخصوصًا في الحجاز مركز الجامعة العربية، حتى نشأ في المدينة ثلاثة من كرام الرجال أمهاتهم من الإماء، وهم علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله، وفاقوا أهل المدينة فقهًا وعلمًا وورعًا فرغب الناس في السراري.[١٠٣]

على أن بني أمية ظلوا يحتقرون أبناء الإماء، تعصبًا للعرب على العجم، فبلغ عبد الملك يومًا أن علي بن الحسن تزوج جارية له وأعتقها، فكتب إليه يؤنبه فأجابه علي: «إن الله رفع بالإسلام الخسيسة وأتم النقيصة وأكرم به من اللؤم، فلا عار على مسلم، وهذا رسول الله ﷺ قد تزوج أمته وامرأة عبده»، فلما تلا عبد الملك جوابه قال: «إن علي بن الحسين يشرف من حيث يتضع الناس». على أن العرب أصبحوا بعد الإسلام يرفعون من شأن الهجناء، اعتمادًا على أن النسب ليس من قبيل الأم، وإنما النسب للآباء عملًا بقول الشاعر:

لا تشتمن امرأً من أن تكون له   أم من الروم أو سوداء عجماء
فإنما أمهات القوم أوعية   مستودعات، وللأحساب آباء

أم بنو أمية فظلوا على احتقارهم بني الإماء إلى أواخر دولتهم، وكانوا لا يستخلفونهم، وقالوا: لا تصلح لهم العرب؛ ولذلك لما قام زيد بن علي بن الحسين يطالب بالخلافة في أيام هشام بن عبد الملك عيره هشام بقوله: «أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وأنت ابن أمة؟» قال: «يا أمير المؤمنين، إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات، وقد كانت أم إسماعيل أمة لأم إسحق، فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبيًّا وجعله للعرب أبًا، فأخرج من صلبة خير البشر محمدًا»،[١٠٤] فالعلويون كانوا أقرب للاختلاط بغير العرب، استنكافًا من شدة تعصب بني أمية للعرب؛ ولذلك كان الموالي أكثرهم شيعة العلويين.

[١٠٣] العقد الفريد ٢٣٩ ج٣.

[١٠٤] المسعودي ١٣٠ ج٢.

وكان العرب في صدر الإسلام بهذا الاعتبار طائفتين، فيهم من يحقر أبناء الإماء وفيهم من لا يجعل لنسب الأم قيمة — ذكروا أن عبد الملك بن مروان سابق ولديه سليمان ومسلمة، فسبق سليمان فقال عبد الملك:

ألم أنهكم أن تحملوا هجناءكم	على خيلكم يوم الرهان فتدرك
وما يستوي المرآن: هذا ابن حرة	وهذا ابن أخرى ظهرها مشترك
وتضعف عضداه ويقصر سوطه	وتقصر رجلاه فلا يتحرك
وأدركنه خالاته فنزعنه	إلا إن عرق السوء لا بد يدرك

وهاك ما قاله حاتم الطائي:

وما أنكحونا طائعين بناتهم	ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا
فما زادها فينا السباء مذلةً	ولا كلفت خبزًا ولا طبخت قدرا
ولكن خلطناها بخير نسائنا	فجاءت بهم بيضًا وجوههم زهرا
وكائن ترى فينا من ابن سبية	إذا لقي الأبطال يطعنهم شزرا
ويأخذ رايات الطعان بكفه	فيوردها بيضًا ويصدرها حمرا
كريم إذا اعتز اللئيم تخاله	إذا ما سرى ليل الدجى قمرًا بدرا[١٠٥]

على أن طبيعة العمران غلبت على ما أراده الأمويون من حفظ النسب العربي، وقضى الاختلاط بالأعاجم باختلاط الأنساب، حتى في الخلفاء من بني أمية، فبايعوا في أواخر دولتهم لأبناء الإماء. وأول من تولى الخلافة من الخلفاء الهجناء يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦هـ، ولكن أمه كانت من نسل يزدجرد بن كسرى، سباها قتيبة ببلاد الصغد وأرسلها إلى الحجاج فقدمها الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك فأولدها يزيد،[١٠٦] ويقال: أن بني أمية حظروا مبايعة بني الإماء، ليس لاستهانة بهم ولكنهم كانوا يرون زوال دولتهم على يد ابن أمة، فلما تولى يزيد المذكور ظنوه الذي يذهب ملكهم على يده،

[١٠٥] العقد الفريد ٢٣٠ ج٣.

[١٠٦] ابن الأثير ٢٧٥ ج٤ و١٤٧ ج٥.

فلم يلبث سبعة أشهر حتى مات، ووثب مكانه مروان بن محمد وأمه أمة كردية، فذهب ملكهم على يده.

(١١-٢) الخلفاء الهجناء

أما بنو العباس فقامت دولتهم بالموالي، وقد ضعفت في أيامهم العصبية العربية لكثرة الاختلاط، فأصبحوا لا يعتدون بالأم على الإطلاق، وكان أكثر خلفائهم من بني الإماء من إبراهيم الإمام فما بعده، وفيهم الإماء من الفرس والترك والروم والأكراد والبربر والأحباش والزنج وغيرهم، وإليك أسماء بعض خلفاء بني العباس من أبناء الإماء:

اسم الخليفة	جنس أمه	اسم الخليفة	جنس أمه
إبراهيم الإمام	بربرية	المأمون	فارسية
المنصور	بربرية	المنتصر بالله	حبشية رومية
الرشيد	حرشية	المستعين بالله	صقلية
إبراهيم بن المهدي	زنجية	المعتز	جارية؟
المهتدي	رومية	المستضيء	أرمنية
المقتدر	تركية	الناصر	تركية
المكتفي	تركية		

وقس على ذلك الخلفاء من الدول الأخرى. فإن المستنصر بالله الفاطمي أمه أمة سودانية، وعبد الرحمن الداخل الأموي أمه بربرية. ناهيك بأبناء الخلفاء الذين لم يتولوا الخلافة حتى في صدر الإسلام، فإن محمد بن الحنفية أمه جارية سندية سوداء.

فإذا كان هذا حال اختلاط النسب في الخلفاء، فكيف في سائر طبقات الناس؟ فالنسب العربي لم يكن خالصًا إلا في الجاهلية وصدر الإسلام إلى أواسط الدولة الأموية، وظل بعد ذلك محفوظًا من حيث الآباء فقط، أما من حيث الأمهات فإنه اختلط اختلاطًا عظيمًا. ونحن نعلم الآن أن الولد يرث من أمه كما يرث من أبيه، وربما كان من حيث الأخلاق أقرب إلى أمه مما إلى أبيه. فالعرب بعد القرن الثاني للهجرة قل فيهم الدم

العربي الخالص، إلا في البادية أو حيث لم يكثر اختلاطهم بالأعاجم. فضلًا عما أثر فيهم من طبائع الأقاليم التي نزلوها وعادات أهلها.

فالعرب الحضر في القرن الثالث للهجرة هم غير العرب في صدر الإسلام، فكيف في حضر هذه الأيام وقد توالى فيهم الاختلاط والتزاوج؟ ناهيك بمن يتعرب وينتسب إلى البلاد، فأهل الشام ومصر والعراق والمغرب مثلًا يعدون من العرب، وهم في الحقيقة أخلاط من العرب والترك والديلم والجركس والروم والفرس والأرمن والكرج وغيرهم، ولكن الرجل إذا نزل بعض هذه البلاد عد في بادئ الرأي غريبًا، فإذا قطنها وتناسل فيها كان أولاده مولدين، فإذا توالت عليهم الأجيال سموًّا عربًا.

العصر التركي الأول

من خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ إلى تسلط الديلم سنة ٢٣٤هـ

تمهيد

نريد بهذا العصر المدة التي استبد فيها الأتراك بالدولة العباسية، وهم الأجناد، تمييزًا له عن العصر العباسي الفارسي الذي استبد فيه الفرس، وهم الوزراء. وليس بين العصرين حد فاصل ينتهي إليه الواحد ويبتدئ منه الآخر، بل هما تعاصرا مدة كان الأول في أواخره، والآخر في أوائله.

(١) الأتراك القدماء

الترك أمة قديمة جدًّا مؤلفة من قبائل وبطون وأفخاذ، كانت مواطنهم على جبال الألطاي أو جبال الذهب في أواسط آسيا بين الهند والصين وسيبريا. وهم يذهبون في أصل اجتماعهم مثل مذهب الرومانيين في مؤسس دولتهم «روملس»، فيعتقدون أن برتزينا أول قوادهم رضع من ثديي الذئبة، فلما شب قادهم في الحروب والغزو بخيامهم وأنعامهم؛ لأنهم أهل بادية، فحاربوا الأمم المجاورة لهم وخصوصًا سكان الصين. وخلف برتزينا غير واحد من أبنائه، وكانوا قد شاهدوا مدن الصين وعمراتها فأحب بعضهم أن يبني المدن فمنعه بعض أمرائه، ومن نصائحه في هذا الشأن قوله: «نحن يا مولاي أقل من عشر أهل الصين عددًا وقوتنا إنما هي بإطلاق حريتنا، إذا رأينا في أنفسنا قوة على الحرب هجمنا وإلا رجعنا إلى البادية، وأهل المدن محبوسون داخل الأسوار كأنهم في قفص»، فأعجبه رأي الرجل وعدل عن التحضر. وتلك كانت حال العرب في صدر الإسلام، فإن بداوتهم كانت من أهم أسباب تغلبهم.

وما زال الأتراك أهل بادية وغزو وخيام، يزدادون قوةً وعددًا حتى اجتمع منهم نحو ٤٠٠٠٠٠ رجل حاربوا أهل الصين والفرس والرومان خمسين سنة، وظفروا في معظم

حروبهم، وقد عقدوا مع الرومان في أيام جوستنيان صلحًا، وظلت العلائق حسنة بينهم وبين خلفائه، وتبودلت السفارات بين الأمتين غير مرة. وفي أيام خاقان ديزابول أرسل إليه الرومانيون في جبال الذهب وفدًا عقدوا معه محالفة على محاربة الفرس في زمن كسرى أنوشروان فلم يقووا عليه، وكانوا قد انتشروا في بلاد تركستان، وأقام بعضهم في المدن.

(٢) الأتراك بعد الإسلام

ولما ظهر الإسلام وانتشر العرب في أنحاء العالم، وطئت حوافر خيولهم بلاد الترك، وهم يعبرون عنها بما وراء النهر، ففتحوا بخارا وسمرقند وفرغانة وأشروسنة وغيرها من تركستان في أيام بني أمية. ولما تولى العباسيون كانت تلك المدن خاضعة للمسلمين يؤدون عنها الجزية والخراج، وكانوا يحملون في جملة الجزية، أولادًا من أهل بادية تركستان يبيعونهم بيع الرقيق، وهم في الغالب من السبي أو الأسرى على جاري العادة في تلك الأعصر. فضلًا عمن كان يقع منهم في أيدي المسلمين في أثناء الحروب بالأسر أو السبي ويعبرون عنهم بالمماليك، ويفرقونهم في بلاط الخلفاء ومنازل الأمراء. فأخذوا يدينون بالإسلام مثل سواهم من الأمم التي خضعت للعرب في ذلك العهد، ومنهم العبيد والموالي كما تقدم.

وكان الأتراك يومئذٍ يمتازون عن سائر الشعوب التي دانت للمسلمين بقوة البدن والشجاعة والمهارة في رمي النشاب والصبر على الأسفار الشاقة فوق ظهور الخيل، والثبات في ساحة الوغى مع قلة العناية بالعلوم ولا سيما الفلسفة والعلم الطبيعي، وقلما اشتغل أحد منهم بدرسها في إبان التمدن الإسلامي. واشتهر ذلك عنهم حتى أصبحوا إذا سمعوا بتركي يشتغل بالعلم الطبيعي ذكروه مع الاستغراب، كما فعل ابن الأثير لما أشار إلى معرفة قتلمش علم النجوم فقال: «ومن العجب أن قتلمش هذا كان يعلم علم النجوم، وقد أتقنه مع أنه تركي ويعلم غيره من علوم القوم». ويعرف الأتراك في تاريخ الإسلام بأسماء كثيرة تختلف باختلاف أصولهم، وفروعهم، وقبائلهم كثيرة مثل قبائل العرب.

(٣) الجند التركي في الدولة العباسية

(٣-١) المعتصم والأتراك

أول من استخدم الأتراك في الجندية من الخلفاء المنصور العباسي، ولكنهم كانوا شرذمة صغيرة لا شأن لها في الدولة، وإنما كان الشأن الأكبر يومئذٍ للخراسانيين «الفرس» والعرب. ولما اشتد التنافس بين العرب والفرس في أيام الرشيد، وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الأمين وتسلط الفرس أنصار المأمون وأخواله، واستبدوا في الدولة، كانت الحضارة قد أضرت بالمسلمين وأذهبت منهم قوة التغلب والفتح. ففكر المعتصم أخو المأمون في ذلك قبل أن تفضي الخلافة إليه، وكانت أمه تركية وفيه كثير من طبائع الأتراك التي ذكرناها مع الميل إليهم؛ لأنهم أخواله، كما كان يميل المأمون إلى الفرس. وشاهد المعتصم من جرأة الفرس وتطاولهم بعد قتل أخيه الأمين، حتى أصبح يخافهم على نفسه. ولم يكن له ثقة بالعرب، وقد ذهبت عصبيتهم وأخلدوا إلى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم، فرأى أن يتقوى بالأتراك وهم لا يزالون إلى ذلك العهد أهل بداوة وبطش، مع الجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش. فجعل يتخير منهم الأشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم في العراق، أو يبعث في طلبهم من تركستان وغيرها. فاجتمع عنده عدة آلاف، وفيهم جمال وصحة، فألبسهم أثواب الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة، وميزهم بالزي عن سائر الجنود.[١] وأكثر الأتراك الذين اجتمعوا عنده ينسبون إلى فرغانة وأشروسنة.

فلما أفضت الخلافة إليه كان الأتراك عونًا له، وتكاثروا حتى ضاقت بغداد عنهم، وصاروا يؤذون العوام في الأسواق فينال الضعفاء والصبيان من ذلك أذى كثير، وربما أردوا الواحد بعد الواحد قتيلًا على قارعة الطريق. فاتفق أن المعتصم خرج بموكبه يوم عيد فقام إليه شيخ فقال له: «يا أبا إسحق!» فأراد الجند ضربه فمنعهم، وقال: «يا شيخ ما لك؟» قال: «لا جزاك الله عن الجوار خيرًا جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمائك الأتراك فأسكنتهم بيننا، فأيتمت بهم صبياننا وأرملت نساءنا وقتلت رجالنا»، والمعتصم يسمع ذلك، فدخل منزله ولم ير راكبًا إلى مثل ذلك اليوم. فخرج فصلى بالناس العيد، ولم يدخل بغداد بل سار يلتمس معسكرًا لأجناده، حتى أتى سامرًا فاتخذها معسكرًا

[١] المسعودي ٢٤٦ ج٢.

فأعجبته وسماها سر من رأى، واختط فيها الخطط وأقطع أتراكه القطائع على حسب القبائل ومجاورتهم في بلادهم، وأفرد أهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار. فبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت القصور وكثرت العمارات واستنبطت المياه، وتسامع الناس إن دار الملك قد انتقلت إلى هناك فقصدوها، وجهزوا إليها من أنواع الأمتعة وسائر ما ينتفع به الناس، فكثر العيش واتسع الرزق. وما زالت سامرا قاعدة الدولة العباسية من سنة ٢٢١هـ إلى أيام المعتمد، فعاد إلى بغداد سنة ٢٧٩هـ، وهو أول من عاد إليها منذ بنيت سامرا.[٢]

وكان المعتصم ينظم المماليك فرقًا عليهم القواد منهم، مثل نظام الجند في ذلك الزمن. ولم يكتف بجمع المماليك الأتراك بالشراء أو المهاداة، ولكنه رغب أمراء الأتراك وأولاد ملوكهم في القدوم إليه والإقامة في ظله. وممن جاء منهم على هذه الصورة جف بن بلتكين من أولاد ملوك فرغانة، وكانوا قد وصفوه له بالشجاعة والتقدم في الحروب، فوجه المعتصم إليه من أحضره، وأحضر غيره من أبناء الأمراء فبالغ المعتصم في إكرامهم، ولما بنى سر من رأى «أو سامرا» أقطعهم فيها القطائع، وظلت قطائع جف تعرف باسمه هناك عدة قرون.[٣]

وكان أكثر الأتراك لما جمعهم المعتصم إليه يدينون بالمجوسية أو الوثنية على ما كانوا عليه في بلادهم، وفيهم جماعة قد دخلوا الإسلام. أما غير المسلمين فلما صاروا من جند الخليفة، وتربوا في ظل المسلمين أسلموا، وفيهم من أظهر ذلك تزلفًا للخلفاء كالافشين، وكان مجوسيًّا وأظهر الإسلام طمعًا في الكسب من الغنائم بالحروب.

وكان المعتصم شديد الرغبة في استبقاء أتراكه على فطرتهم، ويخاف تحضرهم واختلاطهم بالأمم الأخرى فتذهب عصبيتهم وتضعف نجدتهم، فابتاع لهم الجواري التركيات فأزوجهم منهن ومنعهم أن يتزوجوا أو يصاهروا أحدًا من المولدين، إلى أن ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم إلى بعض، وأجرى للجواري أرزاقًا قائمة، وأثبت أسماءهن في الدواوين فلم يكن يقدر أحد منهم أن يطلق امرأته أو يفارقها.[٤]

[٢] ابن الأثير ١٨١ ج٧.

[٣] ابن خلكان ٤١ ج٢.

[٤] اليعقوبي: تقويم البلدان ٣٣.

(٣-٢) الجند التركي ومصالح الدولة

فاشتد ساعد الأتراك بذلك وقويت شوكتهم وغلبوا على أمور الدولة، وخصوصًا بعد أن أنقذوا المملكة من بابك الخرمي، وفتحوا عمورية ونصروا الإسلام فتحول النفوذ إليهم. وبعد أن كانت أمور الدولة في قبضة الوزراء الفرس أصبحت في أيدي القواد الأتراك، أو صار النفوذ فوضى بين الوزراء والقواد، واشتهر من الوزراء في أثناء تلك المدة جماعة من كبار الرجال، كابن وهب وابن الفرات وعلي بن عيسى وابن مقلة وغيرهم. وكانوا يسابقون الأتراك إلى النفوذ وابتزاز الأموال بالمصادرات ونحوها من المظالم كما سيجيء.

وكانت الدولة قد تجاوزت طور الشباب وأخذت في التقهقر، وانغمس الخلفاء في الترف والقصف وعجزوا عن القيام بشؤون الحكومة، فأصبحوا لا يبلغون منصب الخلافة إلا بالجند (الأتراك)، وهؤلاء لا يعملون عملًا إلا بالمال، فمن استطاع استخدام الجند ملك، ولا عصبية هناك ولا جنسية ولا جامعة دينية ولا وطنية. فأصبح الأتراك محور تلك الحركة وهم أهل شجاعة وحرب كما تقدم، فأصبح البطش والفتك أكبر عوامل السيادة.

وكانت جنود الدولة العباسية في أوائلها العرب من مضر واليمن، والفرس — ونريد بالفرس سكان ما بين العراق وأطراف خراسان شرقًا إلى نهر جيحون (الأندوس)، ويدخل في ذلك أهل خوزستان وفارس وكرمان ومكران وسجستان وقوهستان وخراسان وغيرها — وقد قام هؤلاء بنصرة المسلمين انتقامًا من بني أمية أو رغبة في الملك، ومعظمهم من الجنود الأحرار بلا بيع ولا عتق، وإنما سموا الموالي إشارة إلى أنهم ليسوا عربًا على اصطلاح ذلك العصر. واختار الخلفاء جماعة منهم قدموهم في مصالح الدولة، فنبغ منهم الوزراء والأمراء والعلماء، وولاهم الخلفاء الولايات، فاستقلوا بها وأنشأوا الدول المستقلة تحت رعاية الخلافة العباسية كما سيأتي.

فلما تولى المعتصم واقتنى الأتراك بالترغيب أو الشراء، أصبح الجند العباسي أكثره من المماليك الأتراك وأخلد الخلفاء بعده إلى نصرتهم واختصوا بعضهم بالخدمة في بلاطهم، وجعلوا من بطانتهم في جملة الخدم أو الحرس، وتقدم بعضهم في مناصب الدولة حتى قادوا الجند واستبدوا بالأحكام. فانتقلت سياسة الدولة من أيدي الموالي الفرس — وأكثرهم من الشيعة — إلى الجند الأتراك وأكثرهم من السنة. وتمكن هذا المذهب منهم منذ جاهر الخلفاء العباسيون باضطهاد الشيعة، وأولهم المتوكل على الله. ورسخ الأتراك في مذهب السنة من ذلك الحين، ولا يزالون عليه إلى اليوم.

أما استبدادهم في بلاط الخلفاء فابتدأ في أيام المتوكل؛ لأنه لما تولى الخلافة سنة ٢٣٢هـ، وكان ما كان من كرهه الشيعة واستبداده فيهم، زاد في تقديم الأتراك ورعايتهم فزاد طمعهم في الدولة. ثم أغراهم ابنه المنتصر بعده، ولم تطل مدة حكمه أكثر من بضعة أشهر فمات وضميره يخزه. وتولى بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨هـ ثم المعتز بالله سنة ٢٥١هـ، وقد استفحل أمر الأتراك استفحالًا عظيمًا — ومما يحكى عن استبدادهم بالخلفاء أنه لما تولى المعتز قعد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم: «انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة …»، وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال: «أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته …»، فقالوا له: «فكم تقول: إنه يعيش وكم يملك؟» قال: «مهما أراد الأتراك …»، فلم يبق في المجلس إلا من ضحك.[٥]

وقد قتلوا المعتز هذا شر قتلة، فإنهم جروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه، وأقاموه في الشمس بالدار فكان يرفع رجلًا ويضع أخرى لشدة الحر وبعضهم يلطمه بيده.[٦] والمستكفي سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات في الحبس[٧] وبلغ من فقر القاهر بالله أنهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة، وفي رجله قبقاب خشب[٨] — فلا غرو إذا أصبح الخلفاء آلة في أيدي الأتراك: إذا تنازعوا على السلطة كان الخليفة مع الحزب الغالب،[٩] وبعد أن كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم.[١٠]

فلما تقدم الأتراك في الدولة العباسية، وعلم إخوانهم في بلادهم بذلك، تقاطروا مئات وألوفًا يطلبون الارتزاق بالجندية، ورغبوا في الإسلام وجعلوا يدخلون فيه بالألوف وعشرات الألوف. فقد أسلم منهم سنة ٣٥٠هـ ٢٠٠٠٠٠ خركاه دفعة واحدة، والخركاه الخيمة ولا يقل أهل الخيمة الواحدة عن خمسة أنفس، فعدد الذين أسلموا في هذه الدفعة

[٥] الفخري ٢٢٠.

[٦] ابن الأثير ٧٧ ج٧.

[٧] ابن الأثير ١٧٧ ج٨.

[٨] ابن الأثير ١٧٣ ج٨.

[٩] ابن الأثير ٢٦٤ ج٩.

[١٠] ابن الأثير ١٧٦ ج٨.

نحو مليون نفس. وأسلم سنة ٤٣٥هـ ١٠٠٠٠ خركاه من أهل بلاساغون وكاشغر دفعة واحدة، وضحوا عشرين ألف رأس غنم.[١١]

وكان الجند الأتراك يومئذ أشبه شيء بالفرق التي كانت عند الرومان، ويسمونها Praetorian أو هم كالباشبوزق في الدولة العثمانية يستخدمهم من شاء بالمال. فكل من وصلت يده إلى السلطة اقتنى الغلمان الأتراك إما بالشراء أو بالأجرة. وتألفت منهم الفرق بتوالي الأعوام، وكل منها تنسب إلى صاحبها كالساجية نسبة إلى أبي الساج، والصلاحية إلى صلاح الدين، وقس على ذلك الأسدية والنظامية وأمثالهما. وكثيرًا ما كانت الحروب تشب بين هذه الفرق تنازعًا على النفوذ أو على الأموال. ولما استولى الديلم على بغداد في أيام بني بويه توالت الحروب بين الترك والديلم وغلمان الخلفاء أو الموالي. وما من دولة قامت في ذلك العصر إلا استخدمت الأتراك في جندها، سواء كانت شيعية أو سنية. فكانوا يحملون إلى بغداد أو غيرها من المدائن الإسلامية تباعًا، وقلما يتوالدون فيها؛ ولذلك كانوا يتفاهمون بالتركية، وقد يتعلمون العربية ولا يتكلمونها تكبرًا.

وكان للأمراء والقواد عناية كبيرة في تدريب جنودهم الأتراك على الحركات العسكرية، فضلًا عن تعليمهم الفرائض الدينية. على أنهم كانوا يعلمونهم هذه الفرائض وهم أحداث — فإذا جاء التاجر بمملوك للبيع عرضه على الأمير أو السلطان، فإذا أعجبه اشتراه وأنزله في الطبقة التي يماثلها من مماليكه، وسلمه إلى الطواشي برسم الكتابة. فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن. وكان في دولة المماليك المصرية لكل طائفة من الغلمان فقيه يحضر إليها كل يوم ويعلمها القرآن والخط وآداب الشريعة الإسلامية وملازمة الصلوات. فإذا شب المملوك علمه الفقيه شيئًا من الفقه، فإذا صار إلى سن البلوغ أخذوا في تعليمه فنون الحرب من رمي النشاب، ولعب الرمح ونحو ذلك. وإذا ركب الأتراك لرمي النشاب أو اللعب بالرمح لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم. فإذا أتقن فنون الحرب تنقل في أطوار الخدمة رتبة بعد رتبة، حتى يصير من الأمراء، ولا يصل إلى هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه، وقد ينبغ منهم الفقهاء والأدباء والشعراء والحساب.[١٢]

---

[١١] ابن الأثير ٢١٠ ج٨ و٢١٦ ج٩.

[١٢] المقريزي ٢١٣ ج٢.

على أن أهل البلاد كانوا يهابون الأتراك ويخافون بطشهم، فإذا جاءوا بلدًا خافهم أهله، إذ كثيرًا ما كانوا ينزلون في دور الناس[١٣] ويتعرضون للحرم والغلمان، فأصبح عامة بغداد يكرهونهم كرهًا شديدًا.

(٤) الخدم ونفوذهم في الدولة العباسية

أقدم من سمعنا به من الخدم النابغين في الدولة العباسية مسرور خادم الرشيد، ولم يكن له شأن كبير. وأول من قرب الخدم واستكثر منهم الأمين بن الرشيد، فإنه لما تولى الخلافة طلب الخصيان وابتاعهم وغالى فيم، فصيرهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه، وعين منهم جماعة سماهم الجرادية وجماعة من الحبشان سماهم الغرابية. ولم يقرب الأمين الخدم لحمايته أو سياسة دولته، ولكنه فعل ذلك انهماكًا في الترف والقصف. ومن أقوال الشعراء في عصره يصفون انصرافه إلى اللهو بالغلمان ويسمون بعضهم قولهم:

ألا يا أيها المثوى بطوس	عزيبًا ما تفادي بالنفوس
لقد أبقيت للخصيان هقلًا	يحمل منهم شؤم البسوس
فأما نوفل فالشأن فيه	وفي بدر فيا لك من جليس
وما للمعصمي شيء لديه	إذا ذكروا بذي سهم خسيس
وما حسن الصغير أخس حالًا	لديه عند مخترق الكؤوس
لهم من عمره شطر وشطر	يعاقر فيه شرب الخندريس
وما للغانيات لديه حظ	سوى التقطيب والوجه العبوس
إذا كان الرئيس كذا سقيمًا	فكيف صلاحنا بعد الرئيس؟
فلو علم المقيم بدار طوس	لعز على المقيم بدار طوس[١٤]

وكان لهوه من أعظم أسباب سقوطه.

---

[١٣] ابن الأثير ٢٦٤ ج٩.

[١٤] ابن الأثير ١٢٠ ج٦.

(٤-١) سبب نفوذهم

ولم يكن للخدم شأن في أيام المأمون ولا المعتصم ولا الواثق، فلما استبد الأتراك وعلت كلمتهم في أيام المتوكل فما بعده، وصاروا يولون الخلفاء ويعزلونهم أو يقتلونهم، كان في جملة ما استعانوا به على الاستبداد بهم أن يحجروا عليهم قبل الخلافة، ويحبسوهم في القصور ليزيدوهم ضعفًا. وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يميلون إلى حبس أولادهم وأقاربهم[١٥] خوفًا من تواطئهم مع بعض الأتراك على خلعهم أو قتلهم. ولا عشير لهم في أثناء الحجر إلا الخدم والخصيان، فألفوا أخلاقهم وتحققوا بالاختبار أن حياتهم تتوقف بالأكثر على أمانة أولئك الخدم لما آنسوه من غيرتهم عليهم، وخصوصًا الخصيان إذ لا عصبية فيهم تمنعهم من التفاني في خدمة أسيادهم ولا مطمع لهم في الملك لأولادهم وأهلهم. فأصبح ولاة العهد إذا أفضت الخلافة إليهم بالغوا في تقريب الخدم بالعطايا والإكرام، التماسًا لحمايتهم إذا أراد الأتراك الفتك بهم. فعمدوا إلى الاستكثار من الخدم، وكانوا يقدمونهم ويكرمونهم ويستشيرونهم في أمورهم، فازداد الخدم نفوذًا وسطوة حتى أصبح الأتراك يخافونهم، وقد ارتقى كثيرون منهم في العصر التركي من الخدمة في المنازل إلى قيادة الجند أو الإمارة على الأقاليم.

(٤-٢) فرق الخدم وطبقاتهم

ولما تكاثر الخدم في دور الخلفاء جعلوهم طبقات وفرقًا تعرف بأسماء خاصة، وفيهم الرومي والتركي والحبشي والأرمني والسندي والبربري والصقلبي، في فرق أشبه بفرق الجند ولهم الرواتب والجواري.

والمراد في الأصل بالخدم الغلمان أو العبيد أو المماليك الذين يقيمون في دور الخلفاء أو الأمراء للخدمة فيما يحتاجون إليه من مهام المنازل. فكانوا يبتاعون الغلمان وفيهم الحائك والسائس والحجام والخباز وغيرهم. ثم صاروا يستكثرون منهم للاستعانة بهم في حماية تلك المنازل أيام الشدة، على قدر ما يستطيعون بذله من المال في ابتياعهم. وأثمانهم تتفاوت من مئة دينار إلى ألف دينار أو أقل أو أكثر. وربما بلغ عدد الخدم عند

[١٥] الفخري ٢٩٧.

بعض الأمراء إلى خمسمائة غلام أو ألف أو أكثر. فغلمان بغا الشرابي أحد قواد الأتراك بلغ عددهم ٥٠٠، وزاد عدد غلمان يعقوب بن كلس وزير الفاطميين بمصر على ٤٠٠٠.

أما في دور الخلفاء فكان الغلمان فرقًا تعرف بأسماء خاصة، كفرق الغلمان الأصاغر، والغلمان الحجرية، والرجال المصافية والركابية وغيرها. والفرق بين فرق الجند التركي وفرق الغلمان، أن الأجناد عساكر الدولة ينتظمون في خدمة المملكة، ويتقاضون رواتبهم من بيت المال، وفيهم المبتاع والمأجور، وأما الغلمان فهم مختصون بالأمير أو الخليفة لخدمته الشخصية أو حماية داره، وهم ملكه وينفق عليهم من ماله الخاص. وقد تتحول فرق الغلمان إلى فرق من الجند، أو يعملون معًا في خدمة الدولة على ما تقتضيه الأحوال. وقد يبتاع الخليفة العبيد؛ ليتقوى بهم على أعدائه مما لا ضابط له. وكثيرًا ما تستبد بعض فرق الخدم بالخليفة أو الأمير حتى تغلبه على أمره، وتفعل ما تشاؤه فيضطر الخلفاء أحيانًا إلى الفتك بهم غيلة بمساعدة فرق أخرى.[١٦]

وكان في دور الخلفاء صنف من الخدم الخصيان يغلب استخدامهم في دور النساء، وكانوا يستكثرون منهم أيضًا وأكثرهم من الطواشية السود. وكان أهل بغداد يسخرون بهم ويهزأون بأشكالهم ويتعرضون لهم في الطرق وينادونهم بعبارات التهكم كقولهم: «يا عقيق صب ماء واطرح دقيق ... يا عاق يا طويل الساق»، وهم يشكونهم إلى الخلفاء، وأصاب الناس في أيام المعتضد شدة بسبب ذلك، فإن بعض أهل بغداد تعرضوا لبعض الطواشية السود سنة ٢٨٤هـ فاجتمعوا وكلموا المعتضد بما يلحقهم من ذلك، فأمر المعتضد بجماعة من العامة ضربوا بالسياط[١٧] على أن الخصيان كثيرًا ما كانوا يرتقون في الدولة إلى مصاف الأمراء.

(٤-٣) القواد والوزراء من الخدم

وأول من استكثر من الخدم وقربهم ورفع منزلتهم المقتدر بالله، فقد تولى سنة ٢٩٥هـ وعنده من الخدم والخصيان ١١٠٠٠ خادم من الروم والسودان[١٨] وكثير من المال

[١٦] ابن الأثير ١٢٦ ج٨.

[١٧] المسعودي ٣٤٠ ج٢.

[١٨] الفخري ٢٣٤ يريد البيزنطية.

والجوهر، فتمكن من الحكم ٢٥ سنة رد فيها رسوم الخلافة إلى ما كانت عليه. وكان يقدم الخدم ويستعين بهم، وقد ولاهم قيادة الجند وغيرها. وفي أيام نبغ مؤنس الخادم، فقدمه وكان يستشيره في أموره، فتصرف مؤنس في مصالح الدولة كما يشاء، وتولى رياسة الجيش وإمارة الأمراء وبيوت الأموال، واستبد بكل شيء، لكنه على الإجمال خدم الخليفة المقتدر خدمات ذات بال فلقبه الخليفة بمؤنس المظفر، ثم كانت بينهما وحشة تكررت حتى أدت إلى حروب انتهت بقتل المقتدر، وحملوا رأسه إلى مؤنس فلما رأى رأس مولاه بكى ولطم وجهه.

فالخلفاء إنما لجأوا إلى تحكيم الخدم والخصيان استبقاءً لحياتهم أو إحياءً لنفوذهم، ودفع استبداد جند الأتراك. ولم يكن ذلك خاصًّا بالدولة العباسية، بل شمل معظم الدولة الإسلامية المعاصرة. ولا هو من مخترعات الإسلام؛ لأنه كان شائعًا في معظم الدول القديمة، فاسطفان المعتق (المولى) استبد بشؤون الدولة الرومانية من قتل وتنصيب وعزل، وكذلك سليمان الخصي وغيرهما.

أما في الإسلام فاشتهر من الخدم في مناصب الدولة جماعة كبيرة، تولوا القيادة أو الإمارة أو بيت المال أو غير ذلك من المناصب الكبرى. فبدر غلام المعتضد تولى قيادة الجند ونقش اسمه على التروس والأعلام، وأبلى في خدمة مولاه بلاءً حسنًا حتى قتل في سبيل نصرته سنة ٢٨٩هـ[١٩] وبحكم أصله من الغلمان، وارتقى حتى صار أمير الأمراء وهي أعلى رتب الدولة العباسية في عصرها الثاني[٢٠] وجوهر قائد جند الفاطميين الذي فتح لهم مصر وبنى القاهرة في أواسط القرن الرابع للهجرة كان مملوكًا روميًّا، وبلغ من تعظيمهم أمره وإكرامه أنه لما أقلع عن المغرب قادمًا إلى مصر لفتحها ترجل أولاد الخليفة المعز وأهله، ومشوا بين يديه،[٢١] وكان قبله كافور الأخشيدي، وهو خصي أسود ارتقى بمصر حتى استقل بأحكامها سنة ٣٥٥هـ، ويانس الصقلي الخصي أصله خادم مؤنس الخادم تقدم مع ذلك في أعمال الدولة، وعظمت منزلته حتى ولي الولايات وتداخل في السياسة. وبرجوان الستاذ كان خصيًّا أبيض ارتقى في الدولة الفاطمية إلى رتبة الوزارة، ووزر للعزيز بالله والحاكم وتلقب بأمين الدولة، وهو أول من لقب بذلك

---

[١٩] ابن الأثير ٢٠٥ ج٧.

[٢٠] ابن الأثير ١٣٣ ج٨.

[٢١] المقريزي ٣٧٧ ج١.

في الدولة الفاطمية[22] وقراقوش الطوشي وزير صلاح الدين الأيوبي بلغ أرقى مناصب الحكومة في الدولة الأيوبية. وعميد الملك أحد كبار القواد الأتراك كان من الخصيان، وكذلك شقير الخادم صاحب البريد في مصر والشام أيام بني طولون. ومؤتمن الخلافة في الدولة الفاطمية كان خادمًا خصيًّا، وقس على ذلك تقدم الصقالبة في دولة بني أمية بالأندلس، وتقدم الخصيان في دولة السلاجقة وبني بويه وسائر دول الإسلام في تلك العصور.

(٥) تأثير النساء في سياسة الدولة

للمرأة تأثير كبير في أعمال الرجل، مهما يكن نوعها وفي أي عصر كان وأية أمة كانت، وإن اختلف مقدار ذلك التأثير باختلاف عادات الأمم وآدابها. فإذا كانت الدولة ملكية مطلقة كان للمرأة شأن كبير في سياستها، حتى في الإسلام مع شيوع الطعن في آرائهن وقولهم: أن مشاورتهن في الأمور مجلبة للعجز ومدعاة إلى الفساد. وما من عظيم من عظماء الإسلام إلا ونهى عن مشورتهن وإدخالهن في الأمور. قال المنصور في وصيته لابنه المهدي: «إياك أن تدخل النساء في أمرك»، وقال النخعي: «من اقتراب الساعة طاعة النساء»، وقال أبو بكر: «ذل من أسند أمره إلى امرأة»، ولعلي أقوال كثيرة في النهي عن مشورة النساء، ومع ذلك فقد أثرت المرأة في سياسة الدولة تأثيرًا عظيمًا.

(٥-١) أمهات الخلفاء

وتأثير النساء في الدولة من قبيل تأثير الأم في الأبناء، وقد بينا ذلك في باب الأمومة، ويعظم أثره على الخصوص في تأثير أمهات الخلفاء على أولادهن، ولا سيما في أواسط الدولة عند احتجاب الخلفاء واستسلامهم إلى الخدم.

على أن العباسيين حتى في صدر الدولة كانوا يصغون إلى النساء، فأحرزت المرأة نفوذًا كبيرًا وخصوصًا أمهات الخلفاء، وأول من استبد منهن الخيزران أم الهادي والرشيد، وهي قرشية وكانت ذات نفوذ وقوة يخافها أولادها، ومن خالفها منهم أو

[22] ابن الأثير ٩٤ ج٩.

اعترضها قتلته. وكانت في أيام زوجها المهدي صاحبة الأمر والنهي وهو يطاوعها، فلما تولى ابنها الهادي أرادت الاستبداد بالأمور دونه، وأن تسلك به مسلك أبيه، فلم يمض أربعة أشهر حتى انثال الناس إليها، وكانت المواكب تغدو وتروح إلى بابها فساءه ذلك، وكلمته يومًا في أمر فلم يجد إلى إجابتها فيه سبيلًا فقالت: «لا بد من إجابتي إليه فإني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك» فغضب الهادي وقال: «ويلي على ابن الفاعلة! قد علمت أنه صاحبها، والله لا أقضيها لك»، قالت: «إذن والله لا أسألك حاجة»، قال: «لا أبالي»، وقامت مغضبة فصاح بها: «مكانك ... والله إنا نفي من قرابتي من رسول الله، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو خاصتي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ إياك وإياك لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي!»، فانصرفت وهي لا تعقل، ولم تنطق عنده بعدها. ثم إنه قال لأصحابه: «أيما خير: أنا أم أنتم، وأمي أم أمهاتكم؟»، قالوا: «بل أنت وأمك خير» قال: «فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخير أمه فيقال: فعلت أم فلان وصنعت؟» قالوا: «لا نحب ذلك»، قال: «فما بالكم تأتون أمي فتتحدثون بحديثها؟»، فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها فحقدتها عليه، حتى إذا علمت أنه يريد خلع أخيه الرشيد والبيعة لابنه جعفر أمرت بعض جواريها بقتله بالغم والجلوس على وجهه[٢٣] فقتلنه.

فلما كانت أيام الرشيد استبدت الخيزران بالأحكام، واحتشدت الأموال فبلغت غلتها في العام ١٦٠ مليون درهم، أي: نحو نصف خراج المملكة العباسية في ذلك العهد، ولما ماتت توسع الرشيد بأموالها. وقس على ذلك ثروة سائر أمهات الخلفاء.[٢٤]

أما من حيث النفوذ فقد كان للسيدة أم المقتدر — وهي تركية — سطوة غريبة على رجال الدولة في خلافة ابنها، وكانت تتصرف في الأحكام دونه بالاشتراك مع الحجاب والخدم، وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفًا من ذكرها.[٢٥]

ويقال نحو ذلك في أم المستعين بالله المتوفى سنة ٢٥١هـ، وكانت صقلية الأصل، فأطلق المستعين في أمور الدولة يدها ويد اثنين من قواد الأتراك هما أتامش وشاهك

---

[٢٣] ابن الأثير ٤١ ج٦.

[٢٤] الجزء الثاني من هذا الكتاب.

[٢٥] تاريخ الوزراء ٦٧.

الخادم، فكانت الأموال التي ترد إلى بيت المال من النواحي يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة.[٢٦]

على أن تسلط النساء في الدولة العباسية كان على معظمه في أيام المقتدر، لتسلط الخدم والحجاب، وقد اشتهر من النساء في ذلك العهد السيدة أم المقتدر والخالة وأم موسى الهاشمية القهرمانة، فهؤلاء كن يرتشين بالاشتراك مع موسى الخادم ونصر الحاجب والكتاب ونحوهم، ويمشين الأمور كما يردن ويريد هؤلاء، وكان لأم موسى المذكور دهاء ونفوذ، حتى تكفلت مرة بالخلافة لأحد العباسيين من أصهارها، وأخذت تبذل الأموال للقواد وغيرهم، فوشى بعضهم إلى المقتدر فقبض عليها وأخذ منها أموالًا عظيمة، وقس على ذلك نفوذ نساء القصور في الدولة العباسية، وهو من قبيل نفوذ الموالي في هذه الدولة؛ لأن أكثر أولئك النساء من غير العرب.

(٦) فساد الأحكام في الدولة العباسية

(٦-١) التنازع على النفوذ

بلغت الدولة العباسية عصرها الذهبي في أيام خلفائها الأولين، وخصوصًا الرشيد والمأمون بتدبير الوزراء الفرس ولا سيما البرامكة. فاتسع سلطانها في أيامهم وامتدت سطوتها على معظم العالم المعمور في ذلك العهد، فبلغت الهند شرقًا والمحيط الأطلسي غربًا وبلاد سيبيريا وبحر قزوين شمالًا وبحر فارس وبلاد النوبة جنوبًا. وقد بينا أقسامها وجغرافيتها في الجزء الثاني. فلما نكب البرامكة ثم استبد الجند التركي بالحكومة أصبحت الأحكام فوضى، وخصوصًا بعد المتوكل؛ لأنهم أقدموا على قتله وكان ذلك فاتحة جرأتهم على الخلفاء بعده من عزل وتولية وقتل وسمل. فعجز الخلفاء عن القيام بشؤون الدولة، وهم أصحابها المسؤولون عنها والأحكام تصدر بأسمائهم، وإن كانوا مدفوعين إلى إجراءاتهم ببعض أرباب النفوذ في بلاطهم، من الوزراء والقواد. فأقدرهم على إرضاء الخليفة أو أشدهم دهاءً ومكرًا يفضي النفوذ إليه، فإذا ملك قياد الحكومة بذل جهده في حشد الأموال، إذ لا يأمن أن يستبدل هذا الخليفة بآخر لا يرضاه، أو لعل بعض أعدائه يغلبه بدسائسه وسعايته فيعزله، فإذا لم يكن له مال عاش ذليلًا مهانًا. على أن القواد

[٢٦] ابن الأثير ٤٧ ج٧.

كانوا يحاولون الاستئثار بالنفوذ في بلاط الخليفة بالتهديد أو بالوشاية، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص.

ويقال بالإجمال إن النفوذ أصبح ضائعًا بين الوزراء والقواد، وكلاهما لا يرجون من وراء عنايتهم وجهدهم منفعة لأنفسهم، غير ما يكتسبونه من المال في أثناء نفوذ كلمتهم. فأصبح الغرض الأول من تمشية الأحكام إنما هو حشد المال. فالوزير الذي يتولى أمور الدولة ولا يدري ما يكون مصيره بعد عام أو عامين من عزل أو قتل أو حبس لا يهمه غير الكسب من أي طريق كان، ولا يبالي بما قدم يترتب على ذلك فيما بعد، عملًا بالقاعدة التي وضعها ابن الفرات كبير وزراء ذلك العصر، وهي قوله: «إن تمشية أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب».[٢٧]

وانتبه الخلفاء إلى مطامعهم، فأصبحوا إذا عزلوا وزيرًا صادروه وأخذوا أمواله، وقد فصلنا ذلك في باب المصادرة في الجزء الثاني من هذا الكتاب، ثم عمت المصادرة سائر رجال الحكومة، حتى الرعية، وأصبحت بتوالي الأيام المصدر الرئيسي لتحصيل المال. فالعامل يصادر الرعية، والوزير يصادر العمال، والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم، حتى أنشأوا للمصادرة ديوانًا خاصًّا مثل سائر دواوين الحكومة[٢٨] فكان المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالمتاجرة.

(٦-٢) أنواع المصادرة ومقاديرها

قال الوزير ابن الفرات: «تأملت ما صار إلى السلطان من مالي فوجدت ١٠ ملايين دينار، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبد الله الجوهري (ابن الجصاص)، فكان مثل ذلك» فكأنه لم يخسر شيئًا؛ لأنهم كانوا يقبضون بالمصادرة، ويدفعون بالمصادرة. وإذا صودر أحدهم على مال لم يكن في وسعه أداؤه كله معجلًا أجلوه بالباقي، وساعدوه على تحصيله أو جمعه برد جاهه وتغيير زيه وإنزاله في دار كبيرة فيها الفرش والآلة الحسنة؛ ليستطيع التمحل في جمع الأموال من الناس.[٢٩]

[٢٧] تاريخ الوزراء ١١٩.

[٢٨] تاريخ الوزراء ٣٠٦.

[٢٩] الفرج بعد الشدة ٥١ ج١.

وتعددت أسباب المصادرة وجهاتها، حتى أصبح كل صاحب مال أو منصب عرضة لها. وهاك قائمة بما قبضه ابن الفرات من المصادرة على أيام الراضي بالله، ننشرها بنصها حرفيًّا أنموذجًا لأنواع المصادرات ومقاديرها:[٣٠]

دينار	
٧٣٠٠	من أحمد بن محمد البسطامي عن النصف مما بقي عليه من مصادرته لسنة ٣٠٠هـ.
١١٠٠٠	من علي بن الحسين الباذبيني الكاتب عما تولاه بالموصل.
٣٠٠٠٠	من محمد بن عبد الله الشافعي عما تصرف فيه لعلي بن عيسى.
٨٠٠٠٠	من محمد بن علي بن مقلة عما تصرف فيه.
١٠٠٠٠٠	من محمد بن الحسين المعروف بأبي طاهر.
١٣٠٠٠	من الحسن بن أبي عيسى الناقد عما ذكر أنه وديعة لعلي بن عيسى.
٤٠٠٠	ومنه أيضًا عن نفسه.
٢٠٠٠٠	من إبراهيم بن أحمد المادرائي.
٣٦٣٦٠	من عبد الواحد بن عبد الله بقية مصادرة والده.
١٠٠٠٠	من أحمد بن يحيي عن مصلحة وجبت.
٦٠٠٠	من إبراهيم بن أحمد الجهبذ عن صلحه.
٤٠٠٠	من محمد بن عبد السلام عما عنده من الوديعة لمحمد بن علي وإبراهيم المادرائي.
٤٠٠٠٠	من عبد الوهاب بن أحمد بن ما شاء الله عن صلحه.
١٠٠٠٠	من محمد بن عبد الله بن الحرث عن صلحه.
٢٥٠٠٠٠	من محمد بن أحمد عما تصرف فيه بالموصل وغيرها.
١٥٠٠٠	من إبراهيم المادرائي عن الباقي عليه.
٣٠٠٠	من أبي عمر بن الصباح عن الباقي على ابن العباس أحمد.

[٣٠] تاريخ الوزراء ٢٢٤.

٧٠٠٠	من علي بن محمد بن الحواري وقتل.
٧٠٠٠	من هرون بن أحمد الهمذاني.
٢٠٠٠	من عبد الله بن زيد بن إبراهيم.
١٥٠٠٠	من عبد الله بن زيد صلحًا عن نفسه.
٦٠٠٠٠	من علي بن مأمون الإسكافي وقتل.
٧٠٠٠٠	من يحيي بن عبد الله عما تصرف فيه مع حامد.
١٣٠٠٠٠٠	من حامد بن عباس وقتل.
١٥٠٠٠٠	من محمد بن حمدون الواسطي.
٤٢٠٠٠	من علي بن عيسى.
١٠٠٠٠	من إبراهيم جهبذ حامد بن عباس.
١٢٠٠٠٠٠	من الحسن المادرائي.
١٠٠٠٠٠٠	ومنه أيضًا.
١٠٠٠٠٠٠	من محمد المادرائي.
١٠٠٠٠	ومنه أيضًا بخط آخر.

درهم	
٢٠٠٠٠	من أبي الفضل محمد بن أحمد بن بسطام.
٥٠٠٠٠٠	من علي بن الحسن الباذبيني صلحًا عما تصرف فيه بالموصل وقتل.
١٠٠٠٠٠	من أبي عمر بن الصباح عن ضمانة الباقي من مصادرة أبي ياسر.
١٠٠٠٠٠	من عبد الله بن أحمد اليعقوبي.
١٠٠٠٠٠	من الحسن بن إبراهيم الخرائطي صلحًا عما اقتطعه من مال الرئيس.
١٠٠٠٠٠	من الحسين بن علي بن نصير.
٢٠٠٠	من علي بن محمد بن أحمد السمان عن ورثة قرقر.
١٠٠٠٠	من أبي بكر الجرجاني من ضياع بن عيسى.
٢٣٠٠٠٠	من الحسين بن سعد القطربلي.

١٥٠٠٠٠٠	من محمد بن أحمد …
٣٠٠٠٠٠	من أبي الحسن بن بسطام.
٥٠٠٠٠	من أحمد بن محمد بن حامد بن عباس.
٢٣٠٠٠٠	من سليمان بن الحسن بن مخلد.

(٦-٣) ابتزاز الأموال

فالوزير يتولى الوزارة عامًا أو عامين، ثم يعزل أو يستقيل وله عدة ملاين من الدنانير، فضلًا عن الضياع والمباني، وقد اكتسب هذه الثروة بالرشوة ونحوها من أسباب المظالم. وكان الوزير لا يولي عاملًا على ولاية ما لم يقبض منه مالًا على سبيل الرشوة يسمونه «مرافق الوزراء». ومن أغرب حوادث التولية بالرشوة أن الخاقاني وزير المقتدر بالله ولي في يوم واحد تسعة عشر ناظرًا للكوفة وأخذ من كل واحد رشوة. وإذا لم يكن للعامل أو الناظر ما يفي المبلغ المتفق عليه مع الوزير، دفع بعضه معجلًا وأجل البعض الآخر إلى مدة معينة أو غير معينة، والخلفاء يعلمون ذلك ولا ينكرونه أو يرون فيه غرابة أو ظلمًا.

والعامل الذي يتولى عمله بالرشوة وهو لا يزال مدينًا ببعضها يهون عليه ابتزاز أموال الرعية — أو هو يطلب الولاية لهذه الغاية — فيأخذ العمال في حشد الأموال، إما بالتلاعب في جباية الحكومة، فينفقون دينارًا في بعض مصالحها فيقيدونها عليها عشرة دنانير، أو باستخراج أموال الرعية بالرشوة، أو بضرب الضرائب الفادحة على الباعة وأهل الأسواق في المدن[٣١] أو بسلب الفلاحين في القرى بعض غلاتهم، وقد يقاسمونهم إياها فإن بعض العمال كان يبعث رجاله إلى البيدر فيقسمونه كما يشاءون، وإذا تكلم الأكار (الفلاح) شتموه وحلقوا لحيته وضربوه[٣٢] وقد لا يرضيهم ذلك فيغتصبون الضياع برمتها.

[٣١] ابن الأثير ١٢٩ و٢٠٣ ج١٢.

[٣٢] تاريخ الوزراء ٩٣.

ومن أغرب طرق الاغتصاب أن يغتصب العامل أو الوزير أو غيرهما من رجال الدولة ضيعة لبعض الناس، فيأخذها بغير ثمن ويستغلها لنفسه، وإذا استحق عليها الخراج أداه صاحبها الأول، مخافة أن يثبت الملك لمغتصبها إذ يدون خراجها باسمه في الديوان فيبطل حق مالكها في ملكيتها،[٣٣] فيضطر المالك إلى دفع الخراج أعوامًا ريثما يتوفق إلى من ينصفه ممن يفضي النفوذ إليهم من أهل العدالة أو يهتدي إلى وساطة أو حيلة.

ناهيك بما كانوا يغتصبونه من أموال الرعية باقتضاء خراج الأرض مضاعفًا أو مكررًا، على أنهم قد يرون لهم نفعًا من ترك خراج بعض الأرضين، فيتركونه لأصحابها على أن يخدموهم في مصلحة لهم، وربما بلغ مقدار الخارج المتروك مالًا كثيرًا جدًّا. فقد كان لرجل يدعى أبا زنبور في وزارة ابن الفرات ضياع مساحتها مئة فرسخ بمئة فرسخ لم يأخذ منه من حقوق بيت المال درهمًا،[٣٤] وكثيرًا ما كانوا يتركون أمثال هذه الضياع بلا خراج لأهل الوساطة أو الدالة أو النفوذ عند الخليفة أو غيره.

(٦-٤) الجاسوسية واللصوصية

ومن وسائل ابتزاز الأموال أن يقسط الوزير أو من يقوم مقامه على أرباب الدواوين والقضاة أو غيرهم مالا على وجه القرض، على أن يسبب لهم عوضه من أهل النواحي،[٣٥] فتقع الخسارة على الرعية. فتضايق أهل الأسواق في المدن والفلاحون في القرى والرساتيق وضاقت أبواب الرزق على الناس، وأصبحت الحقوق فوضى، من استطاع حيلة في اختلاس المال سرًّا أو جهرًا استخدمها، وكثر العيارون والشطار في المدن، وتعدد اللصوص في القرى، وفيهم جماعة أصلهم من جنود الدولة، طمع الوزراء أو القواد في أرزاقهم فخرجوا يتعرضون للمارة ويسلبونهم أموالهم وأمتعتهم، وإذا عوتبوا أو حوكموا احتجوا بذلك. وكان قطاع الطرق يسطون على قوافل التجار ويأخذون أموالها باعتبار أنها حق لهم؛ لأن أصحابها لم يؤدوا زكاتها لبيت المال وقد منعوها، وتجردوا فتركت عليهم فصارت

[٣٣] الأغاني ٤٧ ج٢٠.

[٣٤] تاريخ الوزراء ٩٤.

[٣٥] تاريخ الوزراء ٢٦٢.

أموالهم بذلك مستهلكة، واللصوص في حاجة إليها بسبب فقرهم فإذا أخذوا تلك الأموال — وإن كره التجار أخذها — كان ذلك لهم مباحًا؛ لأن عين المال مستهلكة بالزكاة وهم فقراء يستحقون أخذ الزكاة شاء أرباب الأموال أو كرهوا؛[٣٦] لأن الزكاة صدقة تؤخذ من أغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم، وكان لها شأن كبير في أول الإسلام ثم أهملت في أواسط الدولة العباسية، فاتخذ اللصوص ذلك حجة لسلب أموال التجار.

وزد على ذلك ما نجم عن فساد الأحكام من الضيق المالي وغلاء الأسعار في المدن، وما انتشب من الفتن بين الأحزاب ولا سيما السنة والشيعة، وراجت الدسائس وتكاثرت السعايات برجال الدولة، وانتشرت الجاسوسية في قصور الخلفاء ودواوين الوزراء والكتاب. وأصبح لكل منهم جواسيس على الآخرين ينقلون إليه أخبارهم، فتسابق أسافل الناس إلى السعاية بأفاضلهم، يرفعون إلى الخليفة أو إلى صاحب النفوذ في دولته كتبًا يختلقون بها المطاعن على الأبرياء للانتفاع بأذاهم. وأكثر ما تكون وشايتهم بأهل الدولة في حال اعتزالهم، أو فيمن يخافونهم إذا ألقيت مقاليد الأحكام إليهم، وقد يجتمع عند الخليفة أو الوزير صناديق مملوءة بتلك الكتب، فإذا تكاثرت أو ذهبت الحاجة إليها أحرقوها.[٣٧]

فلما فسدت الأحكام في دار الخلافة، واستبد الوزراء والقواد بشؤون الدولة، رأى العمال في الولايات أن يجتزئوا من ذلك الاستبداد في ولاياتهم، فأخذوا يستقلون فتشعبت المملكة العباسية إلى ممالك يحكمها الأمراء من الفرس والأتراك والأكراد والعرب وغيرهم. ومنها ما جاءها التغلب من الخارج ففتحها، كما أصاب مصر لما فتحها الفاطميون.

(٧) تفرق المملكة العباسية

لما أصبحت الدولة العباسية فيما تقدم من فساد الأمور، والفوضى في سلطتها وأحكامها بين الفرس والأتراك، أو بين الوزراء والأجناد، أو بين الخدم والنساء، وذهبت هيبة الخلفاء بما أصابهم من التضييق والاحتقار، هان على عمالهم في أطراف المملكة أن ينفصلوا عنهم بأحكامهم الإدارية والسياسية، وأن يستأثروا بجباية أعمالهم وهو الاستقلال. وكان

[٣٦] الفرج بعد الشدة ٥١ ج١.
[٣٧] تاريخ الوزراء ٢٢٤.

أسبقهم إليه أبعدهم عن مركز الخلافة. وأسبق عمال العباسيين إلى ذلك إبراهيم بن الأغلب في شمال إفريقيا استقل سنة ١٨٤هـ، ولا يعد استقلاله من نتائج فساد الدولة؛ لأنه حدث في عصر الرشيد والدولة العباسية في معظم سطوتها، وإنما ساعده على ذلك بعده عن مركز الخلافة. وأم استقلال العمال بذهاب هيبة الخلفاء أو اختلال شؤون الدولة، فالأسبق إليه الفرس ثم الأتراك فالأكراد، مثل تواليهم في التغلب على الخلفاء. وتدرج كل من هذه الأمم من العمالة إلى الإمارة إلى الملك أو السلطنة. فأول من استقل من الفرس العمال، فأنشأوا الإمارات الصغرى ثم الدول الكبرى، وكذلك فعل الأتراك والأكراد. فنقدم الكلام عن الفروع الفارسية، ثم نذكر الفروع التركية والكردية. أما العربية فسيأتي ذكرها في الكلام على العصر العربي الثاني.

الدول الفارسية في ظل العباسيين

(١) الدول الصغرى

لما أعاد الفرس مقاليد الخلافة إلى المأمون ازدادوا دالة عليه واستخفافًا بالسلطة العباسية، ثم استبد الأتراك بالخلفاء بعد المعتصم وغلوا أيديهم وكسروا شوكتهم، فكان للفرس على الإجمال حظ كبير من ذلك. فلما رأوا ذهاب نفوذهم في دار الخلافة استعاضوا عنه بالاستقلال بإماراتهم.

على أن الذين استقلوا من القواد أو الأمراء ما زالوا يعترفون للعباسين بالسلطة الدينية، فيطلبون الاستقلال تحت رعايتهم. فتفرعت المملكة العباسية إلى إمارات مستقلة عملًا بسنة الارتقاء. وإليك أهم الفروع الفارسية باعتبار تاريخ استقلالها وأسماء مؤسسيها:

الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
(١) الطاهرية	خراسان	٢٠٥–٢٥٩هـ	طاهر بن الحسين
(٢) الصفارية	فارس	٢٥٤–٢٩٠	يعقوب بن الليث الصفار
(٣) السامانية	ما وراء النهر	٢٦١–٣٨٩	نصر بن أحمد الساماني
(٤) الساجية	أذربيجان	٢٦٦–٣١٨	يوسف بن أبي الساج
(٥) الزيارية	جرجان	٣١٦–٤٣٤	مرداويج بن زيار

فانظر كيف تفرعت بلاد فارس إلى إمارات فارسية، فانتعشت الشيعة، ونالوا بعض ما كانوا يؤملونه من مساعيهم في نصرة العلويين من أن يعيدوا دولة الفرس الضخمة كما كانت قبل الإسلام. ولكن تلك الإمارات لم تمكث طويلًا — كما ترى في الجدول — حتى قامت دولة آل بويه، وهي أكبر دولة فارسية شيعية ظهرت في الشرق في عهد ذلك التمدن في ظل الدولة العباسية.

(٢) دولة آل بويه

رجال هذه الدولة وأنصارها الديلم من الجيلان وراء خراسان، ولكن ملوكها آل بويه من الفرس، ويرتفع نسبهم إلى ملوك الفرس القدماء، وإنما سموا ديلم؛ لأنهم سكنوا بلاد الديلم. وكان العلويون يسعون في نشر دعوتهم هناك أيام الرشيد، وآخر من نجح في ذلك الحسن بن علي الأطروش من نسل الحسين، فدعا الديلم إلى مذهبه في أواخر القرن الثالث فأجابوه.

وجد آل بويه الأقرب الذي أسس هذه الدولة اسمه بويه ولقبه أبو شجاع، كان له ثلاثة أولاد: علي ويلقب عماد الدولة، وحسن ويلقب ركن الدولة، وأحمد ويلقب معز الدولة. وكان بويه رقيق الحال، فانتظم أولاده في الجندية؛ لأنها كانت يومئذ بابًا من أبواب الرزق الواسعة، وكان عماد الدولة في خدمة مرداويج مؤسس الدولة الزيارية، فارتقي عنده حتى ولاه الكرج، ثم اتسعت أحواله فكتب إلى الخليفة العباسي وهو يومئذ الراضي بالله المتوفى سنة ٣٢٩هـ، أن يقاطعه على أعمال فارس بمال يحمله إلى دار الخلافة، على جاري عادتهم مع الدولة العباسية في ذلك العهد، فأجابه الراضي وبعث إليه بالخلعة. وأخوه حسن ركن الدولة تملك خوارزم، وجاء الإخوان واتحدا مع أخيهما الثالث معز الدولة في شيراز، وساروا غربًا حتى أتوا بغداد في أيام المستكفي سنة ٣٣٤هـ، فرحب بهم وخلع عليهم ولقبهم الألقاب المذكورة، وجعل معز الدولة أمير الأمراء، واستبدوا بالملكة واستولوا على الخلافة، وعزلوا الخلفاء وولوهم، فرفعوا منار الشيعة وأحيوا معالمها وأضعفوا نفوذ الأتراك والخلافة العباسية لا تزال في بغداد. ولما أقضت إمارة الأمراء إلى عضد الدولة لقب الملك، وهو أول من خوطب بهذا اللقب في الإسلام. وحكم آل بويه من سنة ٣٢٠–٤٤٧هـ.

الدول التركية في ظل العباسيين

(١) الدول الصغرى

لما قويت شوكة الأتراك في الدولة العباسية وهابهم الخلفاء كما تقدم، طمع بعضهم في الولايات كما طمع الفرس، فاستقلوا بها فنبتت للدولة العباسية فروع تركية خارج بلاد فارس، كما نبتت الفروع الفارسية في بلاد الفرس. وإليك الفروع التركية في العصر العباسي حسب سني نشأتها وأسماء مؤسسيها وبلادها:

اسم الدولة	مقرها	مدة تأسيسها	مؤسسها
(١) الطولونية	مصر	٢٥٤–٢٩٢هـ	أحمد بن طولون
(٢) الإيلكية	تركستان	٣٢٠–٥٦٠	عبد الكريم ستق
(٣) الإخشيدية	مصر	٣٢٣–٣٥٨	محمد الإخشيد
(٤) الغزنوية	أفغانستان والهند	٣٥١–٥٨٢	البتكين

وتدرج الأتراك في الولايات الإسلامية كما تدرج الفرس قبلهم، أي: من الإمارة إلى السلطنة وهم أول من سموا سلاطين في الإسلام، وأولهم سلاطين الدولة الغزنوية التي منها السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند وناشر الإسلام فيها.

(٢) الدولة السلجوقية وفروعها

على أن هذه الإمارات نشأت فروعًا للدولة العباسية، وكان أمراؤها وسلاطينها من عمال الدولة العباسية أو قوادها.

وكانت السنة قد تقوت بظهور الإمارات التركية، فلما قامت دولة آل بويه في أواسط القرن الرابع للهجرة بالعراق وفارس وعاصرتها الدولة الفاطمية بمصر، عظم أمر الشيعة في العالم الإسلامي وتضعضعت السنة فتشتت شمل المملكة العباسية. ثم ظهرت الدولة التركية الكبرى في أواسط القرن الخامس، وتعرف بالدولة السلجوقية نسبة إلى جدها سلجوق، فجاءت في حال الحاجة إليها؛ لأنها لمت شعث المملكة العباسية ونصرت مذهبها (السنة) بعد أن كادت تضمحل بين يدي الشيعة في مصر والشام والعراق وفارس وخراسان. وكانت الدولة الفاطمية قد نشرت سلطتها على المغرب، وأوشكت أن تستولي على المشرق كله، فجاء السلجوقيون من أقاصي الشرق فاستولوا على المملكة العباسية وجمعوا شملها. وبعد أن كانت ولايات مستقلة يملكها أمراء من الفرس والأتراك والأكراد والعرب، جعلوها مملكة واحدة يحكمونها تحت رعاية الخليفة العباسي.

ومؤسس الدولة السلجوقية سلجوق بن تكاك، أمير تركي كان في خدمة بعض خانات تركستان، فعلم باختلال المملكة العباسية فطمع فيها، وعلم أنه لا يبلغ ذلك وهو على دين غير دين الإسلام، فأسلم هو وقبيلته وسائر جنده ورجال عصبيته دفعة واحدة، ونهض بجميع هؤلاء من تركستان وساروا غربًا، فقطعوا نهر جيحون وتدرجوا في الفتح ونشر سلطانهم حتى اكتسحوا المملكة العباسية، وامتد سلطانهم من أفغانستان إلى البحر الأبيض. وأصبح العالم الإسلامي تتنازعه ثلاث دول إسلامية، أكبرها دولة السلاجقة في المشرق، ثم الدولة الفاطمية في مصر والمغرب، والثالثة دولة بني أمية في الأندلس. فشأن الدولة السلجوقية غير شؤون الدول التركية الصغرى التي تقدمتها؛ لأن هذه إمارات نشأت في حجر الدولة العباسية وتفرعت من مملكتها، وأما الدولة السلجوقية فقد نشأت مستقلة وجاءت من الخارج بقوة وجند، وأنقذت الخلافة العباسية من الضياع على أيدي البويهيين وغيرهم من الشيعيين. والدولة الإيلكية نشأت مستقلة أيضًا، لكنها قلما أثرت في المملكة الإسلامية.

وللسلاجقة منزلة عظمى في تاريخ الإسلام، وفي أيامهم تكاثر نزوح الأتراك إلى المملكة الإسلامية في فارس والعراق والشام، للسكنى والارتزاق في ظل أبناء جلدتهم، والسلاجقة أول من أنشأوا المدارس في المملكة الإسلامية، بأرقى ما بلغت إليه في عهد

ذلك التمدن على يد نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي في أواسط القرن الخامس، وقد فصلنا ذلك وعللناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

ونظام الملك فارسي الأصل من أولاد الدهاقين، ولكنه أنشأ ما أنشأه من المدارس والتكايا والرباطات والمساجد والمارستانات باسم سلطانه ملك شاه.

والسلاجقة دول تفرعت من أصل واحد وعرفت باسم واحد، ولكنها تمتاز بعضها عن بعض بأماكن حكمها، وأكبر هذه الدول السلاجقة العظام، وهم أصل سائر الفروع وأقوى منها جميعًا. وإليك الدول السلجوقية ومقدار حكمها:

(١) السلاجقة العظام: حكموا من سنة ٤٢٩–٥٥٢هـ.
(٢) سلاجقة كرمان: حكموا من سنة ٤٣٣–٥٨٣هـ.
(٣) سلاجقة الشام: حكموا من سنة ٤٨٧–٥١١هـ.
(٤) سلاجقة العراق وكردستان: حكموا من سنة ٥١١–٥٩٠هـ.
(٥) سلاجقة بلاد الروم (آسيا الصغرى): حكموا من سنة ٤٧٠–٧٠٠هـ.

فحكمت الدولة السلجوقية على الإجمال نحوًا من ثلاثة قرون، وبلغ اتساع مملكتهم من حدود الصين إلى آخر حدود الشام.

(٢-١) انتقال المملكة السلجوقية إلى الأتابكة

وكان السلاجقة في أيام سلطتهم يولون الأعمال أو الولايات قوادًا من مماليكهم يسمونهم الأتابكة، واحدهم أتابك، وهو لفظ تركي معناه «الأب الأمير»، واستعملوه أولًا بمعنى وزير ثم صار بمعنى الملك. وأخذ الأتابكة يستقلون بولاياتهم شيئًا فشيئًا، حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم، إلا الفرع الرومي في آسيا الصغرى، فإنه ظل في حوزة السلاجقة، حتى أتى العثمانيون في أواخر القرن السابع — وإليك تفرع المملكة السلجوقية الكبرى إلى مماليكهم الأتابكة وغيرهم وسني حكم كل دولة منها:

(١) الدولة البورية في دمشق من سنة ٤٩٧–٥٤٩هـ.
(٢) الدولة الزنكية في الجزيرة والشام من سنة ٥٢١–٦٤٨هـ.
(٣) الدولة البكتجينية في أربلاء وغيرها من سنة ٥٢٩–٦٣٠هـ.
(٤) الدولة الأرتقية في ديار بكر وماردين من سنة ٤٩٥–٧١٢هـ.

(٥) دولة الشاهات في أرمينيا من سنة ٤٩٣–٦٠٤هـ.
(٦) أتابكة أذربيجان في أذربيجان من سنة ٥٣١–٦٢٣هـ.
(٧) الدولة السلغرية في فارس من سنة ٥٤٣–٦٨٦هـ.
(٨) الدولة الهزارسبية في لورستان من سنة ٥٤٣–٧٤٠هـ.
(٩) الدولة الخوارزمية في خوارزم من سنة ٤٧٠–٦٢٨هـ.
(١٠) الدولة القطلغية في كرمان من سنة ٦١٩–٧٠٣هـ.

وما زالت هذه الممالك في حوزة الأتابكة وغيرهم من مماليك الدولة السلجوقية وقوادها، حتى جاء المغول فاكتسحوها كلها واستولوا عليها.

(٢-٢) سلاجقة الروم

أما الفرع السلجوقي الذي ظل سائدًا دون سائر الفروع، فهو سلاجقة آسيا الصغرى، وهي بلاد الروم في اصطلاح تلك الأيام. على أن مملكتهم هناك تفرعت إلى عدة فروع يحكم كلًّا منها عائلة سلجوقية صغيرة، وهاك أسماءها مع أسماء العائلات السلجوقية التي كانت تتولاها:

اسم الإمارة	اسم العائلة
(١) ميسيا	آل كراسي
(٢) بيسيديا	آل حميد
(٣) فريجيا	آل كرميان
(٤) ليسيا	آل تاكة
(٥) ليديا	آل سروخان وأيدين
(٦) كاريا	آل منتشا
(٧) بفلاغونيا	آل قزل أحمدلي
(٨) ليكونيا	آل قرمان

وما زالت هذه الإمارات في سلطة الأمراء السلاجقة، حتى أتى العثمانيون فاستولوا عليها وأنشأوا الدولة العثمانية في أوائل القرن الثامن للهجرة.

الدول الكردية في ظل العباسيين

(١) الدول الصغرى

الأكراد قوم أشداء وأكثرهم أهل بادية وخشونة وجفاء، يقيمون في الخيام وينقسمون إلى قبائل وعشائر وبطون، وهم أقل قبولًا للحضارة من الفرس والترك وغيرهما من الأمم الشرقية التي دانت للإسلام في إبان التمدن الإسلامي، وقد ظلوا أهل ظعن ورحلة في معظم ذلك التمدن. وكانت الدولة تستعين بهم في الحروب البدوية الشبيهة بالغزو كما كانت تستعين بالأعراب، ومقامهم على الأكثر في كردستان وأرمينيا وجزيرة العراق كالموصل وديار بكر، ولا يزال سوادهم هناك إلى الآن.

ونظرًا لتمسكهم بالبداوة والخشونة لم تستخدمهم الدولة العباسية في أعمالها إلا قليلًا، فلم ينبغ فيهم أحد من رجال الإمارة المستقلة أو أهل السياسة والتدبير إلا بعد دهر طويل من عهد ذلك التمدن. وأول من أنشأ دولة كردية مستقلة في الإسلام حسنويه بن حسين البرزكاني، زعيم بعض قبائل الأكراد في كردستان، في أواسط القرن الرابع للهجرة، وامتدت سلطته على معظم تلك المملكة وفيهاديناور (أو الدينور) وهمذان ونهاوند وسرماج وغيرها. وقد اعترف خليفة بغداد بسلطانه ولقب ابنه بعده بناصر الدولة. ولم يطل عمرها كثيرًا فحكمت من سنة ٣٤٨–٤٠٦هـ ثم استقل من الأكراد أبو علي بن مروان في ديار بكر سنة ٣٨٠هـ، وامتدت سلطته على آمد وآرزان وميافرقين، وبايع خلفه للفاطميين حينًا من الزمن وذهبت دولته سنة ٤٨٩هـ.

(٢) الدولة الأيوبية

على أن الأكراد لم يكن لهم شأن يذكر في الإسلام إلا على عهد الدولة الأيوبية من سنة ٥٦٤–٦٤٨، ومؤسسها السلطان صلاح الدين الأيوبي. وهو من أعظم رجال الإسلام تعقلًا وسياسةً وبسالةً وتدبيرًا، أنشأ دولته على أنقاض الدولة الفاطمية بمصر وبايع فيها للعباسيين، وحارب الصليبيين وردهم عن سوريا وأنقذ بيت المقدس من أيديهم، ومآثره أشهر من أن تذكر. وارتفع شأن الأكراد في أيام دولته، وتولوا الإمارات والولايات في مصر والشام وكردستان واليمن وخراسان، ولما مات اقتسم مملكته إخوته وأولاده وأولاد إخوته؛ ولذلك لم يطل حكمها. فغلبهم على معظمها مماليكهم الأتراك، كما غلب الأتابكة ملوكهم السلاجقة قبلهم، فكان للمماليك بمصر دولتان تعرفان بالسلاطين المماليك كما سيجيء.

ومما يحسن التنبيه إليه في هذا المقام أن الإسلام قد أثر في أمم المشرق تأثيرًا خاصًّا وساقها إلى التمدن تدريجًا، فتسابقت إلى إنشاء الدول وتأسيس الممالك باعتبار أسبقيتها في الإسلام، وقربها من العالم الإسلامي. فأول من أسلم من تلك الأمم العرب وأسسوا الدولة الإسلامية العربية، فاحتك بهم أولًا الفرس وهم أقرب أمم المشرق إلى جزيرة العرب فكانوا أسبق الأعاجم إلى إنشاء الدول. ثم جاء الأتراك من وراء بلاد فارس، فلما انتشر الإسلام بينهم أسسوا الدول ونظموا الحكومات. ثم ظهر الأكراد وهم أقرب من الأتراك إلى العالم الاسمي يومئذ، لكنهم تمدنوا بعدهم؛ لأن الأتراك أقرب منهم إلى سياسة الدول. وامتد الإسلام في تركستان وما وراءها من بلاد التتر أو المغول فنهض هؤلاء وأغاروا على بلاد الإسلام للنهب والقتل، لكنهم ما كادوا يحتكون بالعالم الإسلامي حتى أخلدوا إلى النظام وأنشأوا الدول. ويقال نحو ذلك عن تأثير الإسلام في المغرب، خصوصًا قبائل البربر في شمالي أفريقيا كما تقدم.

الخلافة والسلطة أو الدين والسياسة

لما ظهر الإسلام كان النبي رئيس المسلمين في أمور الدنيا والدين، وهو حاكمهم وقاضيهم وصاحب شريعتهم وإمامهم وقائدهم. وكان إذا ولى أحد أصحابه بعض الأطراف خوله السلطتين السياسية والدينية، وأوصاه أن يحكم بالعدل وأن يعلم الناس القرآن. ولكنه ما لبث أن فصل بين المنصبين فيمن كان يوليهم أمور الرعية، فبعث في السنة الثالثة للهجرة أبا زيد الأنصاري وعمرو بن العاص ومعهما كتاب منه يدعو الناس إلى الإسلام، وقال لهما: «إن أجاب القوم إلى شهادة الحق وأطاعوا الله ورسوله، فعمرو الأمير وأبو زيد على الصلاة وأخذ الإسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن».

على أن ذلك لم يكن قاعدة عامة؛ لأن الأمير كثيرًا ما كان يتولى الخراج والحرب والصلاة معًا، كما تولاها يزيد بن المهلب في العراق من قبل سليمان بن عبد الملك[1] ويقال بالإجمال: إن مصالح الدولة الإسلامية بعد أن كانت محصورة في النبي ﷺ سياسيًّا ودينيًّا تفرعت في أيام الخلفاء إلى عشرات من المناصب، إلا الخلافة فإنها ما زالت حتى الآن (حوالي سنة ١٩١٠) تشمل الرياسة في أمور الدين والدنيا.

والخلافة في الأصل منصب ديني تولاه الخلفاء الراشدون؛ لإتمام العمل الذي بدأ به النبي ﷺ، وهو نشر الإسلام والجهاد في سبيله، وكانوا يتولون أمور المسلمين السياسية أيضًا لما يقتضيه الجهاد من الحرب وأسبابها، كإدارة الجند وتنظيمه لحماية البلاد، ويدخل في ذلك ولاية الأعمال وجباية الخراج. على أنهم كانوا يفعلون ذلك بصفة دينية، أي: أن كل ما يعملونه فإلى الدين ينتهي الغرض منه، فكانوا يجندون الرجال ويفتحون

---

[1] ابن الأثير ١٠ ج٥.

البلاد في سبيل الدين. فلما انتشر الإسلام وتوطدت دعائمه وذهبت الحاجة إلى الجهاد، جاز للرياسة الدينية أن تستقل عن السيادة السياسية، أو تنقسم الرياسة إلى الخلافة والسلطة، كما حدث في النصرانية وغيرها.

ولكن الارتباط بين الدين والسياسة في الإسلام يختلف عما في النصرانية؛ لأن النصرانية انتشرت أولًا في عامة الناس ثم انتقلت إلى رجال الدولة. وأما الإسلام فإنه ظهر أولًا في رجال الدولة، وانتقل منهم إلى العامة؛ لأن أقدم أهل الإسلام الصحابة وهم جند المسلمين وأمراؤهم، نشروا الإسلام في الأرض وجاهدوا في سبيل نصرته بأنفسهم. فلما تأيد الدين وقامت دولة المسلمين ورغب الأمراء في السلطة الدنيوية، كان منصب الخلافة من أكبر أسباب تغلبهم، لتأثير الدين على أذهان الناس في تلك الأيام، فقد كانوا لا يجتمعون إلا تحت رايته وخصوصًا في الشرق، ولا يزالون على ذلك حتى الآن.

على أن أهل التقوى من المسلمين كانوا يجعلون حدًّا فاصلًا بين الخلافة والسلطة، فلما طلب معاوية السيادة كما يطلبها أهل المطامع بالدهاء والقوة، خالفوه وأبوا مبابعته، فلما قتل علي وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، لم ير المسلمون بدًّا من مبايعته على الطاعة كما يبايعون الملوك، لكنهم استنكفوا من أن يسموه «خليفة» أو يعترفوا له بسلطة دينية فسموه «ملكًا»، وهو يأبى إلا أن يجمع الرياستين لعلمه أن الرياسة الدنيوية وحدها لا تفيد شيئًا — ذكروا أن سعد بن أبي وقاص دخل على معاوية بعد أن استقر الأمر له وقال: «السلام عليك أيها الملك» فضحك معاوية وقال: «ما عليك لو قلت: يا أمير المؤمنين؟». فقال: «تقولها جذلان ضاحكًا؟ والله ما أحب أني وليتها بما وليتها به».

فيظهر من ذلك أنهم كانوا ينزهون الخلافة عن السياسة والدهاء، ويعتقدون أن بني أمية نقلوا الإسلام من الدين إلى العصبية والسيف ثم إلى الملك البحت.

(١) الخلافة لأزمة للسلطة المطلقة

وفي اعتقادنا أن الحكم المطلق لا يتأيد ويتسع نطاقه ويطول مكثه إلا بالدين أو ما يقوم مقامه. فما من دولة مطلقة طال حكمها واتسعت مملكتها إلا وفي سلطتها صبغة دينية تحميها من طمع الطامعين، بأن تجعل لملوكها مزية على سائر الناس. وإذا أريد فصل الدين عن السياسة فلا بد من تقييد الحكومة بالشورى، وهي أفضل الحكومات وأطولها عمرًا، وإلا فإنها تنحل سريعًا، ويكفي لانحلالها أن يتولى شؤونها ملك قليل

التدبير ناقص الاختيار فيغتصب ملكه بعض وزرائه أو قواده. وإذا تدبرت تاريخ الدول الإسلامية رأيت للسلطة الدينية تأثيرًا كبيرًا في طول بقائها واتساع نطاقها — اعتبر ذلك في الدول التي نشأت في أثناء التمدن الإسلامي من الفرس والترك والكرد والجركس، كالبويهيين والسلاجقة والأيوبيين وغيرهم من الدول الضخمة، فإن بين ملوكها جماعة من دهاة الرجال وقهارمة السياسة، ولم تطل أعمارها رغم استقوائها بالخلافة العباسية. وانظر إلى الدول العربية التي جمعت بين الخلافة والسلطة، كالعباسيين والفاطميين والأمويين في الأندلس، مع ما طرأ عليها من أسباب السقوط، فقد صبرت وطال جهادها. وإذا نظرت إلى الدول الأعجمية رأيت أطولها عمرًا وأوسعها ملكًا الدولة التي جمعت بين السلطتين وهي الدولة العثمانية. وبنو أمية في الشام لو لم يتخذوا لقب الخلافة ويقبضوا على أزمة الرياسة الدينية ما استطاعوا إلى الحكم سبيلًا، فإنهم إنما حكموا الناس وأيدوا سلطتهم بما في الخلافة من الصبغة الدينية، وتوفقوا إلى أعوان عرفوا أن العامة لا تحكم بمثل الدين، فجعلوا همهم تعظيم الخلافة حتى جعلوها فوق النبوة، وسموا الخليفة «خليفة الله» وقالوا: «خليفة الرجل في أهله أفضل من رسوله في حاجته». كما تقدم — والعلماء ينكرون ذلك ولا يصدقونه، وأما العامة فكانوا يساقون إلى الطاعة بالإرهاب، رغم ما كان يعتور صحة خلافة بني أمية من الشكوك.

فلما أفضت الخلافة إلى بني العباس، وهم من بني هاشم ومن أولى الناس بالخلافة، كان المسلمون أطوع لهم مما لبني أمية، واعتقدوا أن خلافتهم تبقى أبد الدهر حتى يأتي السيد المسيح[٢] وغرس في أذهان الناس بتوالي الأزمات أن الخليفة العباسي إذا قتل اختل نظام العالم، واحتجبت الشمس وامتنع القطر وجف النبات.[٣]

وكان الخلفاء لا يأنفون من ذلك التفخيم، حتى الرشيد مع تعقله وانتشار العلم في عصره، فقد ذكروا أنه كان يحتمل أن يمدح بما يمدح به الأنبياء، فلا ينكر ذلك ولا يرده، حتى قال فيه بعض الشعراء: «فكأنه بعد الرسول رسول»[٤] فكيف يكون حال الخلفاء في عصر الاضمحلال، إذ يقوم الوهم مقام الحقيقة ويكثر المتزلفون والمتملقون ويكتفي أولو الأمر بالكلام دون الأعمال؟

---

[٢] ابن الأثير ١٩٨ ج٥.

[٣] الفخري ١٢٥.

[٤] الأغاني ١٨ ج١٢.

وإذا شاخت الدولة تمسك أهلها بالعرض وتركوا الجوهر، فلا غرو إذا سموا الخليفة في أيام المتوكل «ظل الله الممدود بينه وبين خلقه»،[5] أو قالوا قول ابن هانئ للمعز الفاطمي:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار　　فاحكم فأنت الواحد القهار[6]

(١-١) الخلفاء والفقهاء

ويدل ذلك على ما كان للخلافة من المنزلة المقدسة عند عامة الناس، والأصل في هذا التقديس إنما هو الدين، وتعظيم الخلافة فرع منه؛ ولذلك كان بين الخلفاء الأولين وعلماء الدين الإسلامي، كالحفَّاظ والمحدثين والفقهاء، علاقة متبادلة وكل منهم يتقوى بالآخر — ومعنى ذلك أن الخليفة هو صاحب السيادة الدينية والسلطة الدنيوية، فهو أمير الناس في السِّلم، وقائدهم في الحرب، وإمامهم في الصلاة، وهو قاضيهم وفقيههم كما كان النبي ﷺ في أول الإسلام. فلما اتسعت الفتوح ومست الحاجة إلى تقسيم الأعمال بمقتضى سنة العمران، عمد الخليفة إلى إنابة من يتولى تلك الأعمال عنه. فالوالي إنما هو نائب الخليفة في العمل الذي يتولاه، والقاضي نائبه في القضاء، وقائد الجند يتولى قيادته بالنيابة عن الخليفة. وقس على ذلك سائر المناصب الإدارية والسياسية والقضائية، وكذلك في المهن الدينية، فالقراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء يتولون أعماله بالنيابة عن الخليفة. فكما يحتاج الخليفة إلى نصرة العمال والقواد والقضاة في تأييد سلطته الدنيوية، فهو يفتقر أيضًا إلى نصرة الفقهاء والعلماء لتأييد سيادته الدينية؛ ولذلك رأيت الخلفاء يقربون أهل العلم ولا سيما في أوائل الإسلام (وهم يومئذ الحفاظ أو القراء)، وكان إليهم المرجع في حل المشكلات الدينية أو القضائية أو الفقهية، وهي أساس الأحكام السياسية في الدولة الإسلامية؛ ونظرًا لتمسك العامة بالدين على الإجمال كان للفقهاء تأثير شديد في الدولة، فلا قطع الناس بأمر هام إلا باستفتائهم حتى في تنصيب الخلفاء، فإذا أنكر الفقهاء بيعة أحدهم أنكرها الناس؛ ولذلك كان الخلفاء يجلون العلماء ويقربونهم

[5] المسعودي ٢٨٠ ج٢.

[6] ابن الأثير ٢٤٥ ج٨.

ويعولون على مشورتهم في عصر الراشدين والدولة على سذاجتها لم يلابسها غش ولا دهاء، فإذا نهوا الخليفة أو الأمير عن عمل انتهى وأخذ بنصيحتهم.

فلما طمع بنو أمية في الخلافة والتمسوها من طريق الدهاء والبطش، كان في جملة ما أهملوه من قواعد الراشدين الأخذ بأقوال أهل العلم؛ لأنهم لو أطاعوهم ما تيسر لهم الملك. فقاسى العلماء في أوائل دولة الأمويين عذابًا شديدًا من المقاومة والضغط، فاضطر بعضهم للإفتاء بما يرضي أهل الدولة وأبى البعض الآخر إلا الحق، فاضطهدوهم وضيقوا عليهم — بدءوا بذلك من أيام عثمان والعمال يومئذ من بني أمية، وقد أخذوا يمهدون السبيل لسلطانهم بجمع الأموال والاستئثار بالنفوذ. وفي حكاية أبي ذر الغفاري مع معاوية بن أبي سفيان دليل ناطق على ما كان من جرأة أهل العلم على الخلفاء وإنكار الأمويين ذلك. وقد فصلناها في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

فلما استتب الأمر لبني أمية حبست الأفكار وتقيدت الألسنة، ولم يتقدم من العلماء في مناصب الدولة إلا المتملقون. وبعد أن كان الخليفة لا يعمل عملًا إلا بمشورة فقهاء المدينة، أغفل بنو أمية المدينة وفقهاءها إلا عمر بن عبد العزيز، فإنه عاد إلى مشورتهم. فظل الأحرار من الفقهاء في زوايا الإهمال معظم أيام بني أمية. فلما تسلط العباسيون وأظهروا أنهم يريدون إحياء السنة وتقويم ما اعوج من سبل الدين في عهد الأمويين، ظهر أهل الأفكار المستقلة من الفقهاء والعلماء والزهاد، وقربهم الخلفاء وأكرموهم فعادوا إلى جرأتهم في خطاب من يأنسون منه إصغاء، كما فعل ذلك الرجل بالمنصور وهو يطوف — وقد أشرنا إليها أيضًا في الجزء الثاني من هذا الكتاب — وكما فعل سفيان الثوري لما استدعاه الرشيد إلى بغداد ليكرمه ويقربه، فكتب إليه سفيان كتابًا قال فيه: «أما بعد، فإني كتبت إليك أعلمك أني صرمت حبلك وقطعت ودك، وإنك قد جعلتني شاهدًا عليك بإقرارك على نفسك في كتابك أنك هجمت على بيت مال المسلمين، فأنفقته في غير حقه وأنفذته في غير حكمه. ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عن حتى كتبت إلي تشهدني على نفسك. فأما أنا فإني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين حضروا كتابك وسنؤدي الشهادة غدًا بين يدي الله الحكم العدل. يا هرون! هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم … هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله

والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل ...؟ أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم (يعني العاملين)؟ أم رضي بفعلك الأيتام والأرامل، أم رضي بذلك خلق من رعيتك؟».[٧]

ودخل سفيان المذكور على المهدي مرة ولم يسلم بالإمارة، فلم يغضب عليه المهدي بل استعطفه[٨] وكان أكثر الخلفاء الأولين من بني العباس إذا لقوا فقيهًا أو زاهدًا طلبوا إليه أن يعظهم، فإذا وعظهم بكوا حتى تخضل لحاهم. وأشهر المتعظين من الخلفاء المنصور والرشيد والمعتصم والواثق، ولهم حكايات مشهورة.

فالفقهاء واسطة السيادة الدينية بين الخليفة والعامة، مثل توسط الأمراء والقواد في تأييد السيادة الدنيوية، وقد يغني الفقهاء عن الواسطتين جميعًا؛ لأن عامة المسلمين ينقادون إلى فقهائهم ويستسلمون إليهم كما ينقاد عامة النصارى إلى كهنتهم. فالخلفاء العباسيون كانوا يحتاجون إلى الفقهاء للاستعانة بهم على إخضاع العامة وامتلاك قلوبهم، وكذلك كان يفعل السلاطين والأمراء لنفس هذا السبب أو لسبب آخر. والنفع متبادل بين الفئتين؛ لأن الفقهاء كانوا يكتسبون بتقربهم من الخلفاء مالًا وجاهًا، ولكن ما يكتسبه الخلفاء منهم أعظم وأبقى. فرسخ احترام الفقهاء في قلوب العامة وتمسكوا بهم وعظموهم باسم الدين.

وكان الخلفاء يذعنون للعامة باسم الدين أيضًا. حتى إنهم كثيرًا ما كانوا يضطرون إلى مسايرة بعض الناس في بعض اعتقاداتهم الدينية، ولو كان ذلك الاعتقاد مخالفًا لما في نفوسهم أو مناقضًا للواقع، كما فعل المهدي إذ جاءه رجل بنعل زعم أنها نعل النبي ﷺ، فقبلها المهدي منه وأجازه عليها مع اعتقاده كذبه، وإنما خاف إن كذبه أن يحمل العامة قوله على الفتور في الدين.[٩]

ولم يكن للخلفاء بد من إظهار التقوى والقيام بالفروض الدينية؛ لئلا يفسد عليهم العامة ويحتقروا سلطانهم ولو كان الخليفة لا يعتقد ذلك. ذكروا أن الوليد بن يزيد الأموي مع اشتهاره بالخلاعة والتهتك، كان إذا حضرت الصلاة يطرح ما عليه من الثياب المصبغة والمطيبة، ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ويؤتى بثياب بيض نظاف من

[٧] الدميري ١٨٨ ج٢.
[٨] ابن خلكان ٢١٠ ج١.
[٩] كتاب الأذكياء ٩.

ثياب الخلافة، فيصلي فيها أحسن الصلاة بأحسن قراءة وأحسن سكوت وسكون وركوع وسجود، فإذا فرغ عاد إلى تلك الثياب.[١٠]

(١-٢) الدول الإسلامية والخلافة

فلهذا السبب كان الأمراء الذين يستقلون عن الدولة العباسية بالإدارة والسياسة لضعف الخليفة عن حربهم لا يستطيعون الاستقلال عنه بالدين، إذ لا يستغنون عن بيعته لتثبيت سلطانهم. فإذا أراد أحدهم الاستقلال بولاية أو فتح بلد أو إنشاء إمارة لنفسه، بعث إلى الخليفة في بغداد يبايعه ويطلب منه أن يعطيه تقليدًا أو عهدًا بولاية ذلك البلد، أو أن يلقبه ويخلع عليه، وإذا أبى الخليفة أن يجيبه غضب وعد ذلك تحقيرًا له، وقد يجرد عليه الجند ليكرهه على تثبيته.

فالإمارات أو الممالك التي استقلت عن الدولة العباسية، في فارس وخراسان وتركستان وما بين النهرين والشام ومصر وبلاد المغرب وغيرها، قبل قيام الدولة الفاطمية، كان أصحابها يخطبون لخليفة بغداد ويبعثون إليه بمال معين في العام، مع أنهم في أمن من سطوته، وإنما يريدون أن يرضى العامة عن سلطانهم.

وكذلك كان شأن الأجناد الأتراك وأمرائهم، فقد كانوا مع استبدادهم بخلفاء بغداد قتلًا وخلعًا لا يجسرون على استبقاء منصب الخلافة خاليًا يومًا واحدًا، لاعتقادهم أنه بدون الخليفة لا تستصلح العامة. حتى الملوك أو السلاطين الذين تسلطوا على بغداد وقبضوا على كل شيء فيها وأصبح الخليفة آل في أيديهم، مثل آل بويه وآل سلجوق، فقد كانوا يحاربون الخليفة ويجردون عليه الجيوش، حتى إذا ظفروا به وغلبوه بايعوه وأكرموه ورفعوا مقامه وتبركوا به. فعضد الدولة البويهي ملك بغداد واستبد بها، وهو شيعي على غير مذهب الخليفة. وكان يغالي في التشيع ويعتقد أن العباسيين غصبوا الخلافة من مستحقيها، فلم يكن ثمة باعث ديني يدعوه إلى طاعة خليفة بغداد، ومع ذلك فإنه بايعه وعظم شأنه، وأعاد من أمر الخلافة ما قد نسي، وأمر بعمارة دار الخلافة والإكثار من الآلات، وعمارة ما يتعلق بالخليفة وبطانته وأكرمه غاية الإكرام.[١١]

---

[١٠] الأغاني ١٤١ ج٦.

[١١] ابن الأثير ٢٥٧ ج٨.

وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يعرفون حاجة الأمراء المسلمين إلى رضاهم، فإذا ساءهم أحد منهم هددوه بالخروج من بغداد، فيضطر إلى استرضائهم؛ لأن خروجهم بغضب العامة[١٢] ويجرئهم على خلع الطاعة، لتقديسهم شخص الخليفة وتنزيهه عن الخطأ — ولذلك لم يكن من سبيل إلى نزع سلطته أو الاعتراض عليها إلا من وجه ديني، فكان الذين يقومون على الخلفاء يجعلون سلاحهم الدين، فيلبسون الصوف ويدعون إلى المعروف أو يعلقون في أعناقهم المصاحف[١٣] أو نحو ذلك مما يحرك عواطف العامة. وإذا أراد أحد الخلفاء أن يصلح ما بينه وبين العامة أصلحه بالتقوى. فلما ضمن الفضل بن سهل الخلافة للمأمون أوصاه بإظهار الورع والدين؛ ليستميل القواد[١٤] ولما رأى أبو مسلم الخراساني أهل اليمن في مكة قال: «أي جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان غزير الدمعة» يريد تحريك عواطفهم الدينية بالوعظ والبكاء. فلم يكن للممالك الإسلامية بد من خليفة تبايعه ليثبت ملكها. وقد يستاء بعض الأمراء المستقلين من خليفة بغداد فيكظم ولا يخلع بيعته إلا إذا رأى خليفة آخر يبايعه. فلما قامت الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر خلعت كثير من البلاد بيعة خليفة بغداد وبايعت للفاطميين في القاهرة. ولما تغلب السلطان صلاح الدين الأيوبي على مصر، وذهبت الدولة الفاطمية منها، فأول شيء فعله أنه خطب بجامع القاهرة للخليفة العباسي في بغداد، وطلب المنشور منه والخلع عليه. وكانت الخلافة العباسية في غاية الاضمحلال والضعف، وهو في غنى عن بيعتها، ولكنه علم أنه إذا لم يبايع الخليفة فلا يرضى عنه الناس.

وكذلك فعل السلاطين المماليك الذين ملكوا مصر بعد الدولة الأيوبية، فإنهم بايعوا للعباسيين وكانت الخلع تأتيهم من بغداد إلى القاهرة بتثبيت سلطتهم. فلما سطا التتر على بغداد وفتحوها سنة ٦٥٦هـ، وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله توقف شأن الخلافة، فاضطربت أحوال مصر وبذل سلاطينها جهدهم في إيجاد خليفة يبايعونه،[١٥] ولو أعوزهم خليفة ولم يجدوه ربما اختلقوا واحدًا ليحكموا العامة به[١٦] على أنهم ما زالوا

[١٢] ابن الأثير ٢١٣ ج٩.
[١٣] ابن الأثير ٢٠٨ ج٨.
[١٤] كتاب الأذكياء ٢٧.
[١٥] أبو الفداء ٢٢٢ ج٣.
[١٦] ابن الأثير ١١٩ ج٩.

يبحثون عن بقية الخلفاء العباسيين الذين كانوا في بغداد، حتى ظفروا بالهاربين منهم فاستقدموهم إلى القاهرة، وفرضوا لهم الرواتب واحتفلوا بها احتفالًا عظيمًا، وبالغوا في احترامهم وإكرامهم[١٧] مع علمهم أن أولئك الخلفاء لا يغنون عنهم شيئًا، ولكنهم خافوا اختلال دولتهم بدونهم. وظل ملوك الهند وغيرهم من ملوك الإسلام بالأطراف البعيدة يبايعون للخليفة العباسي بالقاهرة، ويطلبون التقليد منه أو المنشور لإثبات سلطتهم على يد السلاطين المماليك،[١٨] فما الذي بعث أولئك الملوك على طلب التقليد من خليفة لا ينفع ولا يشفع لولا ما يتوقعونه من أثر ذلك في أذهان العامة؟ ولا ننكر أن بعضهم كان يطلب بيعة الخليفة تدينا، ولكن الكثيرين كانوا يطلبونها لاستصلاح العامة بها.

(١-٣) الخلافة في غير قريش

ومما يستحق النظر والاعتبار أن ملوك المسلمين غير العرب، على اختلاف مواطنهم وأجناسهم ولغاتهم ودولهم، من الفرس والأتراك والأكراد والبربر والجركس وغيرهم، مع ما بلغوا إليه من سعة الملك وعز السلطان، ومع حاجتهم إلى السيادة الدينية لتستقيم دولتهم وتجتمع الرعية على طاعتهم، لم يخطر لأحد منهم أن يطلب الخلافة لنفسه قبل انتقال الإسلام إلى طوره الثاني، بعد تضعضعه بفتوح المغول، ولا ادعاها أحد من العرب غير قريش. وأول سلطان غير عربي بويع بالخلافة السلطان سليم العثماني.

على أن الذين قويت شوكتهم في عهد ذلك التمدن، من الأمراء المسلمين أو القواد غير العرب، كانوا إذا طمعوا في السيادة الدينية أو الخلافة انتحلوا لأنفسهم نسبًا في قريش، كما فعل أبو مسلم الخراساني لما رأى من نفسه القوة على إنشاء الدولة، وربما طمع في الخلافة فانتحل لنفسه نسبًا في بني العباس، فقال: إنه ابن سليط بن عبد الله بن عباس.[١٩]

وأما الملوك أو السلاطين الأعاجم فلما ضخمت دولهم في أواخر العصر العباسي، ورأوا اضمحلال الخلافة وتقهقرها تمنوا الاستغناء عنها، ولكنهم لم يروا سبيلًا إلى

[١٧] المقريزي ٣٠١ ج٢.

[١٨] ابن خلدون ٥٤٣ ج٣.

[١٩] الفخري ١٢٣.

ذلك إلا أن يستبدلوها بخلافة أخرى. على أن بعضهم طمع في النفوذ الديني من طريق الانتساب إلى الخليفة بالمصاهرة. وأول من فعل ذلك عضد الدولة بن بويه المتوفى سنة ٣٧٢هـ، فإنه حمل الطائع لله الخليفة العباسي في أيامه أن يتزوج بابنته، وغرضه من ذلك أن تلد ابنته ولدًا ذكرًا فيجعله ولي عهده، فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب[٢٠] ولم يوفق إلى مراده.

ولما أفضت السلطة إلى السلاجقة، تقدموا في هذا الطريق خطوة أخرى، فعمدوا إلى التقرب بالمصاهرة أيضًا، ولكن على أن يتزوج السلطان طغرل بك السلجوقي ابنة الخليفة، وهو يومئذ القائم بأمر الله، فخطبها إليه ووسط قاضي الري في ذلك، فانزعج الخليفة لهذا الطلب أيما انزعاج، إذ لم يسبق أن يتزوج بنات الخلفاء إلا أكفاؤهم بالنسب. وكانت يد السلطان قوية والخليفة لا شيء في يده، فأخذ في استعطافه؛ ليعفيه من إجابة طلبه، فأبى السلطان إلا أن يجاب. وحدثت أمور يطول شرحها خيف منها على الدولة، فاضطر الخليفة إلى القبول — فعقد له عليها سنة ٤٥٤هـ، وهذا ما لم يجر مثله قبله؛ لأن آل بويه لم يطمعوا في ذلك ولا تجاسروا على طلبه مع مخالفتهم للخليفة في المذهب[٢١] إذ يكفي من الخليفة تنازلًا أن يتزوج بنات الملوك لا أن يزوجهم بناته، ولم ينل هذا الشرف أحد قبل طغرك بك. ومع ذلك فإنه لما دخل إلى عروسه في السنة التالية، قبل الأرض بين يديها وهي جالسه على سرير ملبس بالذهب، فلم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له، وظل أيامًا يحضر على هذه الصورة وينصرف. على أنه لم يوفق لإتمام ما أراده؛ لأنه توفي في تلك السنة. أما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم تنلها دولة إسلامية قبل العثمانيين، فلما فتح السلطان سليم مصر وجد فيها آخر الخلفاء العباسيين الذين كان السلاطين المماليك قد استقدموهم، فتنازل له عن الخلافة سنة ٩٢٣هـ.

[٢٠] ابن الأثير ٢٨٣ ج٨.

[٢١] ابن الأثير ٨ ج١٠.

العصر العربي الثاني

الإمارات العربية والعنصر العربي

نريد بالعصر العربي الثاني العصر الذي جدد فيه العرب سطوتهم، وأعادوا سلطانهم ونفوذهم في الدولة، بعد أن غلب الفرس على أمورهم واستبدوا بهم. فقد رأيت أن شوكة العرب ضعفت بذهاب الدولة الأموية، وتغلب الفرس في الدولة العباسية، حتى غلب الأمين فانكسرت تلك الشوكة وتضعضع شأن العرب، ثم جاء المعتصم فقطع أعطيتهم ومنعهم من مصالح الدولة، فذلوا ونقموا على العباسيين ولبثوا يترقبون الفرص لاسترجاع سلطانهم، وأصبحوا ينصرون كل من يخرج على تلك الدولة في العراق أو الشام أو مصر، حتى الأكراد والأعراب والقرامطة، فلم ينفعهم ذلك إلا قليلًا لتغلب الأتراك في مصالح الحكومة.

على أن بعض القبائل العربية تمكنت بأسباب مختلفة من إنشاء إمارات صغيرة فيما بين النهرين والشام تحت رعاية العباسيين، وقد ساعدهم على ذلك ما قام من الفتن والحروب بين الخلفاء العباسيين ووزرائهم الفرس وأجنادهم الأتراك في القرن الرابع للهجرة، ورأوا الفرس والترك يستقلون بولاياتهم فقلدوهم، فاستقل آل حمدان من بني تغلب بالموصل وحلب وغيرهما من سنة ٣١٧–٣٩٤هـ، وكانت دولتهم عربية أحيوا بها معالم العرب وآدابهم وعرفت بالدولة الحمدانية، أشهر أمرائها سيف الدولة، وقد اشتهر بما نظمه فيه أبو الطيب المتنبي.

ونشأ في حلب في ذلك القرن أيضًا دولة عربية أخرى اسمها المرداسية، نسبة إلى أسد الدولة صالح بن مرداس من قبيلة بني كلاب من المضرية، فحكم في حلب هو وأولاده من سنة ٤١٤–٤٧٢هـ، وخلف الحمدانية بالموصل دولة بني عقيل من كعب من المضرية، فتولوها من سنة ٣٨٦–٤٨٩هـ، وظهرتعلى أن هذه الدول قلما في أثناء ذلك دولة عربية

رابعة عرفت بالمزيدية نسبة إلى مزيد الشيباني من قبيلة أسد، وقد أنشأوا مدينة الحلة في العراق وحكموا من سنة ٤٠٣–٥٤٥هـ.

وهناك دولتان أنشأهما رجال من العرب في العصر العباسي الأول وفي بلاد غير عربية، فالأولى أن تعدا من الدول الأعجمية، وهما الدولة الدلفية التي أنشأها أبو دلف العجلي في كردستان، والعلوية التي أنشأها الحسن بن زيد في طبرستان، وإذا أضفنا إلى ما تقدم دولة الأغالبة التي استقلت بالمغرب قبل سائر فروع الدولة العباسية، ودولة الأدراسة الآتي ذكرها، بلغ عدد الدول العربية الصغرى في النهضة العربية الثانية ثماني دول، هذا بيانها مع أسماء مؤسسيها ومدة حكم كل منها، ننشرها بحسب تاريخ تأسيسها:

الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
(١) الإدريسية	مراكش	١٧٢–٣٧٥هـ	إدريس بن عبد الله
(٢) الأغلبية	تونس وغيرها	١٨٤–٢٨٩	إبراهيم بن الأغلب
(٣) الدلفية	كردستان	٢١٠–٢٨٥	أبو دلف العجلي
(٤) العلوية	طبرستان	٢٥٠–٣١٦	الحسن بن زيد
(٥) الحمدانية	حلب والموصل	٣١٧–٣٩٤	بنو حمدان
(٦) المزيدية	الحلة	٤٠٣–٥٤٥	مزيد الشيباني
(٧) العقيلية	الموصل	٣٨٦–٤٨٩	بنو عقيل
(٨) المرداسية	حلب	٤١٤–٤٧٢	صالح بن مرداس

غير الإمارات العربية الصغرى التي ظهرت في بلاد اليمن، كالزيادية في زبيد، واليعفورية في صنعاء، وغيرهما.

على أن هذه الدول قلما أثرت في إحياء سطوة العنصر العربي أو إرجاع شوكة العرب؛ لأنها كانت تعترف بخلافة العباسيين وتبايع لهم، إلا العلوية والأدارسة. ولا حرج عليهم، فإن الفرس والترك والديلم كانوا قد استبدوا بأكثر إمارات المملكة العباسية، ورسخ في أذهان الناس أن الدولة العباسية باقية إلى رجوع المسيح، فبات الشرق كله

تحت سيطرة العباسيين، يخطب لهم ويضرب النقود باسمهم، فاتجهت آمال العرب نحو الغرب.

وكان الأمويون أصحاب العصبية العربية، وأكبر أعداء الفرس ومن جاورهم من الأعاجم، قد أنشأوا دولة عربية في الأندلس من سنة ١٣٨هـ سيأتي الكلام عليها. فالعرب الذين كانوا يطمعون في إحياء العنصر العربي، ويكبرون ذهاب دولة العرب في ظل العباسيين، كانوا ينزحون إلى الغرب فينزلون في الأندلس أو يقيمون في إفريقيا في ظل السيادة العربية بعيدين عن سلطة الدولة العباسية.

وأكثر العرب نفورًا من تلك الدولة وأشدهم بغضًا لها شيعة العلويين، لا سيما بعد أن قضى على آمالهم في الشرق بما توخاه العباسيون من التفرد بالخلافة هناك. وكان بعض أصحاب هذه الدعوة قد فروا من وجه العباسيين نحو الغرب في أوائل دولتهم، فأنشأوا هناك دولة علوية عرفت بالدولة الإدريسية، نسبة إلى إدريس بن عبد الله حكمت من سنة ١٧٢–٣٧٥هـ، ولم يطمع أمراؤها في لقب الخلافة.

وبقي في الشرق جماعة من العلويين كانوا لا يزالون يؤملون الفوز بشيعتهم الموالي الفرس، فلما رأوا العباسيين غلبوهم على ما في أيديهم بعد فتنة الأمين والمأمون واستبداد رجال الأتراك في الدولة ومقاومتهم العنصرين الفارسي والعربي جميعًا، يئسوا من نصرة الموالي فنزح بعضهم إلى المغرب تدريجًا، وظل البعض الآخر في المشرق يترصدون ضعفًا يبدو لهم من الدولة العباسية، فيغتنمون الفرصة للوثوب بها لا يبالون بمن يستنصرون أو على من يعولون. فكانوا يقومون تارة بالفرس اوالخراسانيين، وطورًا بالأكراد أو الديلم أو غيرهم من الأمم الناقمة على الأتراك، أو الفئات المظلومة من فساد الأحكام واستبداد الخدم، ولم يفز أحد منهم بإنشاء دولة غير الحسن بن علي في طبرستان صاحب الدولة العلوية التي ذكرناها، ولم يطل عمرها. وكثيرًا ما كانت تلك الفئات المظلومة تنتحل الدعوة العلوية للوثوب على الدولة، كما فعل صاحب الزنج في العراق، فإن أقلق راحة الدولة العباسية وأجنادها وعمالها بضعة عشر عامًا، بما جمعه من أباق العبيد والزنوج الذين كانوا يكسحون السباخ في ضواحي البصرة والكوفة، واستنهض سائر السودان فتركوا أسيادهم وقاموا معه فحارب الدولة في وقائع كثيرة قتل فيها نحو

٢٥٠٠٠٠٠،[١] وكانوا يفعلون ذلك باسم الدعوة العلوية وزعيمهم دعي اسمه علي بن محمد زعم أنه من نسل الحسين، وانتهت تلك الثورة بقتل الدعي وتشتت رجاله.

على أن الشيعة العلوية لم يكن لها شأن يذكر، إلا بعد ظهور الدولة البويهية الشيعية في الشرق، واستيلائها على بغداد واستبدادها بالخلافة، وكان الشيعة قد أنشأوا خلافة علوية في بلاد المغرب، فاشتد أزرهم بذلك وحملوا على المشرق يلتمسون افتتاح المملكة العباسية، فجاءوا مصر وفتحوها في أواسط القرن الرابع للهجرة وأقاموا فيها، وكانت دولتهم ضخمة عرفت بالدولة الفاطمية وهي أكبر دول الشيعة، وسيأتي ذكرها.

وجاءت الدولة الفاطمية مزاحمة للدولة العباسية، وقد قام بنصرتها العرب والبربر، وهؤلاء ينتحلون لأنفسهم نسبًا في العرب. وكانت الآمال متعلقة بإحياء العنصر العربي على يدها كما كان في صدر الإسلام، فبايعها معظم العالم العربي يومئذ حتى في العراق وما بين النهرين، فإن أهل الكوفة والموصل بايعوها مدة مع قربهم من بغداد عاصمة العلويين[٢] على أنهم لم يستطيعوا إحياء ذلك العنصر، لذهاب دولة آل بويه من المشرق، وظهور الدولة السلجوقية التركية هناك، وانتصارها للعباسيين وانتحالها مذهبها ودفاعها عنها، فظلت الموازنة محفوظة بين الشرق والغرب: الأول سني والثاني شيعي.

فلما تغلب الأكراد على الدولة الفاطمية، وأخرجوا مصر من حوزتها على يد صلاح الدين الأيوبي، أعادوا البيعة العباسية إليها سنة ٥٦٧هـ، وكان العنصر العربي قد ضعف بمصر قبل انقضاء تلك الدولة بمن استبد بالأحكام من الأتراك والأرمن وغيرهم كما سيجيء، فعاد العنصر العربي إلى الضياع، إلا إمارات صغيرة ظهرت في جزيرة العرب ولا يزال بعضها باقيًا إلى الآن (حوالي سنة ١٩١٠).

فالعصر العربي الثاني عبارة عن إحياء العنصر العربي في المغرب بعد انحلاله في المشرق، وأكبر العوامل في إحيائه الدولتان الأموية بالأندلس والفاطمية بمصر، وكان قيامهما نهضة عربية لم يطل مكثها ولا كان لها تأثير يذكر، ولم يقم للعرب قائمة في الدولة الإسلامية من ذلك الحين — إلا ما أبدته بعض القبائل من النهوض في بلاد العرب أو غيرها بدعوة سياسية أو دينية، كقيام الوهابية في نجد والدراويش في السودان. ولما

---

[١] الفخري ٢٢٧.

[٢] ابن الأثير ٩٢ ج٩.

عزم محمد علي مؤسس العائلة الخديوية على إنشاء دولة إسلامية كبرى في أوائل القرن التاسع عشر، أراد أن يستعين على إنشائها بعصبية إسلامية، وأقوى العصبيات بمصر يومئذ الترك والعرب، والعصبية التركية للدولة العثمانية، فاختار عصبية العرب، فحامت الآمال حوله، وخصوصًا بعد حربه الوهابية واجتماعه بشريف مكة وغيره من رؤساء القبائل، فأحيا العنصر العربي، ونشط العصبية العربية بما أنشأه من المدارس والمطابع ونشره من الكتب. فكان للعرب نهضة قلما أفادته في غرضه السياسي، لما حال دون مطامعه من أغراض دول الإفرنج في المملكة الإسلامية، ولكنها أفادت أهل الشرق من العرب فائدة أدبية علمية، بتمهيد السبيل للنهضة التي نحن فيها الآن، أما ما تتناقله الجرائد من أخبار اليمن ونجد وتمرد بعض رؤساء القبائل، فلا نتوقع له نتيجة تذكر، لأسباب عمرانية سياسية لا محل لها هنا.

فالنهضة العربية في العصر العربي الثاني الذي نحن في صدده قلما أثرت في إحياء العنصر العربي. وقد تقلبت على كل من الدولتين الأموية في الأندلس والفاطمية بمصر أحوال مختلفة في سياستها وشؤون حكومتها لا بأس من الإتيان على خلاصتها، وإن كانتا في الحقيقة مقلدتين للدولة العباسية في أكثر أحوالهما.

سياسة بني أمية في الأندلس

من سنة ١٣٨–٤٢٢هـ

اقتدت هذه الدولة في سياستها بالدولة العباسية، مثل سائر الدول التي عاصرتها أو نشأت بعدها. فمؤسسها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان كان شديدًا مثل جده عبد الملك، نجا من مذبحة أهله من مجلس السفاح سنة ١٣٢هـ وهرب من العراق يطلب بلاد المغرب بمساعدة مولى له اسمه بدر، لم يدخر وسعًا في إنقاذه وحمايته في أثناء ذلك الفرار، والمسافة طويلة وأهل البلاد ناقمون على الأمويين. فلما وصل به إلى المغرب سعى له في جمع الأحزاب، فقطع مضيق جبل طارق إلى الأندلس، وفيها من موالي بني أمية نحو خمسمائة رجل، فأخبرهم بقدوم مولاه وحرضهم على نصرته لاستبقاء هذه الدولة هناك، فنصروه وجمعوا كلمة المضرية واليمنية — وجمعها صعب في ذلك العهد. فبعد حروب كثيرة مهدوا له الدولة واستقدموه إليهم، فدخل الأندلس وتولى أمورها سنة ١٣٨هـ (٧٥٦م)؛ ولذلك سموه الداخل.

وقد حكم عبد الرحمن أولًا باسم الدولة العباسية، وخطب بها للمنصور نحو سنة، ولم يجسر في بادئ الرأي على إنشاء خلافة أخرى مع وجود الخلافة العباسية؛ لأن النبي ﷺ واحد وخليفته واحد. وكان لعبد الرحمن ابن عم يقال له: عبد الملك بن عمير بن مروان، شديد العصبية للأمويين واسع الأمل في إرجاع خلافتهم، وكانوا يسمونه شهاب آل مروان لشجاعته وسرعة فتكه، وقد حارب في نصرة ابن عمه حروبًا ثبتت له بها الدولة، فحرضه على قطع الخطبة العباسية، ولما آنس منه ترددًا صاح فيه: «اقطعها وإلا

قتلت نفسي!» فقطعها ولكنه لم يجسر أن يسمي نفسه خليفة، فكانوا يسمون أمويي الأندلس في أوائل دولتهم الأمراء، ثم سموهم الخلفاء.

واتفق في أثناء ذلك أن المنصور العباسي أهان ملك بن أنس إمام المدينة، لما علمه من إفتائه بخلع المنصور؛ لأنه كان قد بايع للعلويين، فاغتنم الأمويون نقمة مالك عليه وقربوه منهم وأكرموه، فانتفع كل منهما بصاحبه. فالأمويون رأوا فيه إمامًا كبيرًا ينصر دعوتهم أو يؤيدها من حيث الدين، ويطعن في خلافة بني العباس. ورأى مالك في الأمويين ملجأً كبيرًا وتعزية لما ذاقه من شدة بني العباس. فشاع مذهب مالك في الأندلس من ذلك الحين، وكانوا قبلًا على مذهب الأوزاعي مثل أهل الشام. وقد نقلوا الفتوى إلى رأي مالك في أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل.[١]

وكان عبد الرحمن هذا يقلد سياسة المنصور العباسي في تأييد دولته، وكانا متشابهين من عدة أوجه: منها أن والدة كل منهما بربرية، وكان عبد الرحمن مثل المنصور من حيث الشدة والعزم وضبط الأمور. واتفقا في أن كلًّا منهما قتل ابن أخيه، فقتل المنصور ابن أخيه السفاح، وقتل عبد الرحمن ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية.[٢] وقد اقتدى عبد الرحمن بالمنصور في سياسة الفتك والغدر لتأييد سلطانه بقتل الذين ساعدوه على تأييده، فسخط على بدر مولاه لفرط دلاله عليه، ولم يرع حق خدمته وصدق مناصحته، فأخذ ماله وسلبه نعمته ونفاه سنة ١٥٦هـ إلى مكان بقي فيه إلى أن هلك، كما قتل المنصور أبا مسلم الخراساني بعد بلائه في إنشاء دولته.[٣] وقتل عبد الرحمن أيضًا أبا الصباح بن يحيى رئيس العرب اليمانية، وكان قد ساعده على القيام وله فضل عليه.[٤] ففعل به مثل ما فعل بنو العباس بأبي سلمة وابن كثير وغيرهما. وقام اليمانية رجال أبي الصباح يطلبون بثأره، فأوقع عبد الرحمن بهم وأكثر القتل فيهم، واستوحش من العرب قاطبة وعلم أنهم يصحبونه على غل وحقد، فانحرف عنهم إلى اتخاذ المماليك ليتقوى بهم على أعدائه، فبعث إلى كبراء مملكته يبتاع مواليهم، فاقتنى موالي الناس من كل ناحية، واعتضد بالبربر فوجه إليهم في بر العدوة على شواطئ أفريقية واستوفدهم،

---

[١] نفح الطيب ٧٩٩ ج٨.

[٢] نفح الطيب ٧١٥ ج٢.

[٣] ابن الأثير ٥ ج٦.

[٤] نفح الطيب ٧٠٦ ج٢.

فجاءه منهم كثيرون فأكرم وفادتهم وأحسن إليهم وقربهم، فرغبوا في خدمته فاستكثر منهم ومن العبيد حتى بلغ جنده من هؤلاء نحو ٤٠٠٠٠ رجل، غلب بهم على أهل الأندلس من العرب، فاستقامت مملكته وتوطدت دعائمها، كما تأيدت الدولة العباسية بالخراسانيين.

(١) الصقالبة

ثم عمد الأمويون بعده إلى استخدام الخصيان الصقالبة، وهم غلمان كان النخاسون يحملونهم من شمالي أوروبا يتجرون ببيعهم في أنحاء العالم، وكان الاتجار بهم رائجًا. والسبب في رواجه أن قبائل السلاف (الروسيين) نزلوا في أوائل أدوارهم شمالي البحر الأسود ونهر الطونة، ثم أخذوا ينزحون غربًا جنوبيًّا نحو أواسط أوروبا، وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف أو (السكلاف) والسرب والبوهيم والدلمات وغيرهم. فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب التي في طريقهم، كالسكسون والهون وغيرهم، فتكاثر الأسرى من الجانبين. وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق، فتألفت لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الأسرى، عن طريق فرنسا فأسبانيا إلى أفريقيا ومنها إلى الشام ومصر، فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة. فكان التجار من الإفرنج وغيرهم يبتاعون الأسرى من السلاف والجرمان، من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرهما إلى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الأسود — ولا يزال أهل جورجيا والجركس إلى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع (إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى) — فإذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الأغنام، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال وفيهم الذكور والإناث، إلى أن يحطوا رحالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم إلى أسبانيا (الأندلس)، فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة أو الحرب، والإناث للتسري. وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم إلى الجنس الصقلي، وكانت كلمة «سلاف» تلفظ عندهم «سكلاف»، فعربها العرب «صقلب»، ومنها «صقلبي وصقالبة»، وأصبح هذا اللفظ عندهم يستعمل للرقيق الأبيض على الإجمال.

على أن عبد الرحمن الداخل قلما رغب في الصقالبة، وأول من استكثر منهم حفيده الحكم بن هشام (١٨٠–٢٠٦هـ) فإنه استكثر من اقتناء المماليك وارتبط الخيول ببابه وتشبه بالجبابرة. وهو أول من جند الجند المرتزقين بالأندلس، فجعل المماليك من

المرتزقة فبلغت عدتهم ٥٠٠٠ مملوك، وكانوا يسمونهم الخرس لعجمة ألسنتهم، ثم تدرج الأمويون في استخدام الصقالبة، حتى تكاثروا في أيام عبد الرحمن الناصر (٣٠٠–٣٥٠هـ)، وجعلهم بطانته وجنده كما فعل المعتصم العباسي بالأتراك قبله. واستقل بنو أمية بمملكتهم هذه في أوروبا عن سائر ممالك الإسلام في آسيا وأفريقيا، ولم يكونوا يطمعون في التغلب على الممالك الأخرى، فقطعوا علاقاتهم معها ومنعوا أهل دولتهم من الحج إلى الحرمين[٥] مخافة أن يقع أحد منهم في أيدي العباسيين، فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم، وما أبيح لهم الحج إلا بعد فراغ شأن الأموية ورجوع مملكة الأندلس إلى ملوك الطوائف غير العرب.

(٢) ملوك الطوائف بالأندلس

وبلغت الأندلس إبان مجدها في أيام عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٣٥٠هـ، وكان عاقلًا كريمًا توفرت الثروة في خلافته، وكانت أيامه مثل أيام هرون الرشيد في بغداد من حيث الرغد والرخاء. وخلفه ابنه الحكم المستنصر، وكان محبًّا للعلم والعلماء مثل المأمون بن الرشيد، وبلغت مملكة الأندلس في أيام هذين الخليفتين إلى أوج مجدها سطوة وأبهة وثروة، وأخذ شأن الخلافة بعدهما في الاضمحلال، فاستبد أهل الدولة وجندها بالأحكام، وهم موالي الأمويين من البربر والصقالبة، كما استبد الفرس والأتراك في الدولة العباسية.

وكان العرب في مقدمة رجال الدولة وأهل العصبية، ولهم المقام الرفيع والكلمة النافذة؛ لأن الأمويين أهل عصبية للعرب كما تقدم، فلما استبد الصقالبة والبربر بالمناصب والأعمال أخذت شوكة العرب في الضعف تدريجيًّا، حتى غلب ابن أبي عامر وزير الحكم بن الناصر على أمور الدولة في أيام هشام بن الحكم في أواخر القرن الرابع للهجرة، ومكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضًا ببعض، ومنع الوزراء من الوصول إلى الخليفة، وهو عربي الأصل من اليمنية، فأصبح يخاف الجند على نفسه، فعمل على تفريق جموعهم فبدأ بالصقالبة الخدم بالقصر فنكبهم بدسيسة وأخرجهم من القصر، ثم فتك بالجند الصقالبة وآخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم، واستقدم إليه رجالًا من برابرة أفريقية وزناتة وقدمهم واستعان بهم. فانكسرت شوكة العرب في الأندلس من ذلك الحين.

---

[٥] ابن خلدون ٢٣٨ ج١.

وما زالت الدولة هناك آخذة في الانحلال حتى اقتسمها الولاة البربر وغيرهم، بأسرع مما حدث في الدولة العباسية، لضعف اعتقاد المسلمين بصحة خلافة بني أمية؛ ولأن العباسيين أرسخ قدمًا في الخلافة لقرابتهم من النبي ﷺ، فانقسمت مملكة الأندلس في أوائل القرن الخامس للهجرة إلى إمارات تولاها أصحاب الأطراف والرؤساء، وفيهم العرب والبربر والموالي، فتغلب كل إنسان على ما في يده، فصاروا دولًا صغيرة متفرقة؛ ولذلك سموا ملوك الطوائف. وهاك أشهرهم مع أسماء إماراتهم:

اسم الدولة	اسم المملكة	مدة الحكم
بنو حمود	مالقة والجزيرة	٤٠٧–٤٤٩هـ
بنو عباد	إشبيلية	٤١٤–٤٨٤هـ
بنو زيري	غرناطة	٤٠٣–٤٨٣هـ
بنو جهور	قرطبة	٤٢٢–٤٦١هـ
بنو ذي النون	طليطلة	٤٢٧–٤٧٨هـ
العامريون	بلنسية	٤١٢–٤٧٨هـ
بنو هود التجيبيون	سرقسطة	٤١٠–٥٣٦هـ

ولم تطل سيادة هذه الدول كما رأيت، فغلبت عليهم دولة المرابطين ثم الموحدين، وظل الانقسام متتابعًا بين تلك الممالك، والخصام متواليًا والإفرنج يغتنمون ضعفهم وانقسامهم، ويسترجعون إماراتهم واحدة بعد واحدة وبلدًا بعد بلد، حتى غلبوا على المسلمين وأخرجوهم من الأندلس. وآخر مدينة افتتحها الإفرنج من تلك المملكة غرناطة، وكانت في حوزة بني نصر نسبة إلى يوسف بن نصر من سنة ٦٢٩هـ، توالى عليها منهم بضعة وعشرون ملكًا، آخرهم أبو عبد الله محمد بن علي، فاستخرجها الإفرنج من يده سنة ٨٩٧هـ، وفر أبو عبد الله، وكان ذلك آخر عهد المسلمين بالأندلس.

الدولة الفاطمية

من سنة ٢٩٧–٥٦٧هـ

(١) الشيعة في المغرب

قد علمت حال الشيعة في أيام بني أمية بالشام وما قاسوه من القتل والصلب، ثم ما كان من حالهم في الدولة العباسية، وخصوصًا في أيام المنصور والرشيد والمتوكل، من الاضطهاد والقتل، فحملهم ذلك على الفرار إلى أطراف المملكة الإسلامية، فهاموا على وجوههم شرقًا وغربًا كما تقدم. وكان فيمن جاء منهم نحو الغرب إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى، أخو محمد بن عبد الله الذي بايعه المنصور ثم نكث بيعته. فأتى إدريس مصر وهي يومئذ في حوزة العباسيين، فاستخفى في مكان أتاه إليه بعض الشيعة سرًّا، ومنهم صاحب البريد فحمله إلى المغرب في أيام الرشيد، فتلقاه الشيعة هناك وبايعوه، فأنشأ دولة في مراكش عرفت بالدولة الإدريسية من سنة ١٧٢–٣٧٥هـ، على أن هؤلاء لم يسموا أنفسهم خلفاء.

أما ظهور الشيعة وتغلبهم وارتفاع شأنهم حقيقة فالفضل فيه للدولة الفاطمية، نسبة إلى فاطمة بنت النبي ﷺ؛ لأن أصحابها ينتسبون إليها، وتسمى أيضًا الدولة العبيدية نسبة إلى مؤسسها عبيد الله المهدي. وكان شأن الشيعة قد بدأ بالظهور في المشرق على يد بني بويه في أواسط القرن الرابع للهجرة.

ولما تغلب البويهيون على بغداد كانت الدولة الفاطمية قد اشتد ساعدها في المغرب وهمت بفتح مصر. وكان آل بويه يغالون في التشيع، ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا

الخلافة من مستحقيها، فأشار بعضهم على معز الدولة البويهي أن ينقل الخلافة إلى العبيديين أو لغيرهم من العلويين، فاعترض عليه بعض خاصته قائلًا: «ليس هذا برأي. فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، لو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لقتلوك، فرجع معز الدولة عن عزمه».[١]

على أن الشيعة اعتزت في الشرق بهذه الدولة، وأحيا البويهيون كثيرًا من الاحتفالات الدينية الشيعية، ومنها عاشوراء تذكار مقتل الحسين[٢] وحملوا الخليفة على أن يخطب لعضد الدولة في بغداد، أي: أن يذكر اسمه في الخطبة. فخطب له وهو أول من خطب له فيها. فوقع التحاسد بين الأتراك والديلم هناك، ونشأت الفتن بين السنة والشيعة من ذلك الحين، والترك يمثلون السنة والديلم أو الفرس يمثلون الشيعة. فحمل الأتراك أهل بغداد على الاحتفال ببعض الأعياد عكس احتفال الشيعة[٣] نكايةً بهم.

(٢) الشيعة في مصر

على أن ظهور الشيعة في الشرق هون على الدولة العبيدية فتح مصر والانتقال إليها، وكانت قصبتها قبلًا مدينة المهدية بإفريقية وخلفاؤها ينتسبون إلى الحسين بن علي، وللمؤرخين في انتسابهم إليه أقوال متناقضة، فالذين يتعصبون للعباسيين ينكرون ذلك عليهم. ويغلب في اعتقادنا صحة انتسابهم إليه، وأن السبب في وقوع الشبهة طعن العباسيين فيه تصغيرًا لشأنهم.[٤]

والمصريون كانوا يحبون عليًّا من صدر الإسلام، وكانوا من حزبه يوم مقتل عثمان، ولكن قلما كان لهم شأن في الشيعة العلوية؛ لأن العلويين استنصروا أولًا أهل العراق وفارس كما تقدم. فلما قامت الدولة العباسية وتأثرهم المنصور بالقتل والحبس، وقتل محمد بن عبد الله الحسني وبعض أهله وفر سائر العلويين من وجه الدولة العباسية،

[١] ابن الأثير ١٧٧ ج٨.

[٢] ابن الأثير ٢١٦ ج٨.

[٣] ابن الأثير ٦٥ ج٩.

[٤] المقريزي ٣٤٩ ج١.

كان في جملتهم علي بن محمد بن عبد الله، فجاء مصر بأمر دعوته بعض رجال الشيعة، لكنه ما لبث أن حمل إلى المنصور واختفى.[٥]

وكان حال الشيعة العلوية بمصر يتقلب بين الشدة والرخاء، يتقلب أحوال الخلفاء في بغداد، فإن تولى خليفة يكره العلويين ضيق على الشيعة واضطهدهم والعكس بالعكس، فلما تولى المتوكل واضطهد الشيعة العلوية كتب إلى عامله بمصر بإخراج آل أبي طالب إلى العراق فأخرجهم سنة ٢٣٦هـ، ولما قدموا إلى العراق أرسلوهم إلى المدينة واستتر من بقي في مصر على رأي العلوية؛ لأن عمال المتوكل كانوا يبالغون في إظهار الكره للشيعة تزلفًا للخليفة — يحكى أن رجلًا من الجند اقترف ذنبًا أوجب جلده. فأمر يزيد بن عبد الله عامل مصر يومئذ بجلده، فأقسم الرجل عليه بحق الحسن والحسين إلا عفا عنه فزاده ثلاثين ضربة. ورفع صاحب البريد إلى المتوكل ذلك الخبر، فورد كتابه إلى العامل أن يضرب الجندي المذكور مائة سوط فضربه، وتتبع يزيد المشار إليه آثار العلويين، فعلم برجل منهم له دعاة وأنصار، فقبض عليه وأرسله إلى العراق مع أهله وضرب الذين بايعوه.

ولما تولى المنتصر بن المتوكل سنة ٢٤٧هـ كتب إلى عامله بمصر أن لا يضمن علوي ضيعة ولا يركب فرسًا ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطراف مصر، وأن يمنعوهم من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد، وإذا كان بينهم وبين أحد الناس خصومة قبل قول خصمه فيه بغير أن يطالب ببينة. فقاسى العلويون عذابًا شديدًا بسبب ذلك.

ولما استقل أحمد بن طولون بإمارة مصر سنة ٢٥٤هـ اضطهد الشيعة؛ لأنه تركي ولأنه على رأي الخليفة العباس، فاقتص آثار العلويين وحاربهم مرارًا. حتى إذا ضعف أمر بني طولون بمصر واختلت أحوال الدولة العباسية في بغداد وتغلب آل بويه عليها في القرن الرابع للهجرة أخذ حزب الشيعة ينتعش ويتقوى. فلما جاءهم جند المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨هـ بقيادة جوهر الصقلي كانت الأذهان متأهبة لقبول تلك الدعوة، ففتح جوهر مصر على أهون سبيل، وخطب فيها للعلويين وأقام شعارهم وأزال شعار العباسيين، وبنى مدينة القاهرة وانتقل إليها مولاه المعز لدين الله، وتوالى من دولة الفاطميين بمصر عشرة خلفاء، وجملة خلفائهم منذ أنشأوا دولتهم في أفريقية

[٥] المقريزي ٣٣٨ ج٢.

إلى انقضائها بمصر ١٤ خليفة حكموا من سنة ٢٩٧–٥٦٧هـ، وانتقلت مصر منهم إلى الأكراد الأيوبيين.

(٣) سياسة الدولة الفاطمية

إن الفاطميين من جملة الدول الإسلامية التي قلدت الدول العباسية في نظام حكومتها وسائر شؤونها. إلا ما يتعلق منها بالدين، فإنهم أيدوا كل ما يوافق مذهب الشيعة من إيثار العلويين وتقديمهم والعمل بأقوال أئمتهم، فألف يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي كتابًا يتضمن الفقه على ما سمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله، وبوبه على أبواب الفقه فبلغ حجمه نصف حجم صحيح البخاري، وهو يشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية. وقد بذلت الدولة الفاطمية جهدها في نشر هذا الفقه بين المسلمين، حتى كان الوزير المشار إليه يجلس بنفسه لقراءة هذا الكتاب على الطلبة، وبين يديه خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء، وجعله مرجع القضاء في الفتوى، وأفتى الناس به ودرسوه في الجامع العتيق (جامع عمرو)، وعمل الخلفاء على ترغيب الناس في حفظه بالبذل والعطاء، فأجرى العزيز بالله على ٣٥ رجلًا من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير، ويلازمونه أرزاقًا تكفيهم، فضلًا عما كان يصلهم من مال العزيز بالله في الصلات السنوية، وأمرهم ببناء دار إلى جانب الجامع الأزهر، وكان يخلع عليهم في عيد الفطر ويحملهم على البغال ترغيبًا لهم في نشر فقه الشيعة وتعاليمهم، وأجلسوا أناسًا في قصر الخلافة لقراءة علوم أهل البيت على الناس؛ لأنه بانتشار ذلك المذهب تتأيد تلك الدولة، لارتباط السياسة بالدين كما قدمنا. وتعقبوا من يطالع غير ذلك الكتاب وشددوا في عقابه، فاتفق أنهم عثروا على رجل وجدوا عنده كتاب الموطأ لمالك، فضربوه وطافوا به في المدينة. وكان يعقوب الوزير المذكور يهوديًّا وأسلم، وخدم الدولة الفاطمية خدمات جزيلة في تأييد دعوتهم كما رأيت، فلا عجب إذا عاده العزيز في مرضه وقال له: «وددت لو أنك تباع فأبتاعك بملكي».[٦]

ومشى سائر الخلفاء الفاطميين على هذه الخطة في نشر مذهب الشيعة، فأنشأ العزيز والحاكم دور الكتب للمطالعة والنسخ لنشر كتبهم، ولما تولى الخليفة الظاهر

---

[٦] ابن الأثير ٣٢ ج٩.

سنة ٤١١هـ، أخرج من كان في مصر من الفقهاء المالكية وغيرهم. وشددوا الأوامر على الناس أن يحفظوا كتاب «دعائم الإسلام»، و«مختصر الوزير»، وجعلوا لمن حفظ ذلك مالًا[٧] ومن مقتضيات فقه الدولة الفاطمية في المواريث توريث ذوي الأرحام، فالبنت عندهم إذا انفردت استحقت المال بأجمعه[٨] تأييدًا لحقهم في وراثة الخلافة؛ لأنهم ينتسبون إلى فاطمة بنت النبي وهي منفردة بالإرث.

(٣-١) أدوار الدولة الفاطمية

مرت الدولة الفاطمية في ثلاثة أدوار تشبه الأدوار التي مرت بها الدولة العباسية، فقد رأيت أن نفوذ الكلمة في الدولة العباسية كان في أوائلها مشتركًا بين العرب والفرس، ثم صار إلى الفرس ثم إلى الأتراك. والفاطميون عرب قامت دولتهم بالعرب والبربر، فكان النفوذ في أولها مشتركًا بين هذين العنصرين، ثم صار إلى البربر ثم إلى الأتراك.

والبربر قوم أشداء، مساكنهم في شمال أفريقية، وقد نصروا الشيعة العلوية في المغرب كما نصرها الفرس في المشرق، وهم قبائل شتى مثل قبائل العرب الرحل، وقد قاسى المسلمون في إخضاعهم عذابًا شديدًا؛ لأنهم ارتدوا عن الإسلام اثنتي عشرة مرة وثبوا فيها كلها على المسلمين، ولم يثبت إسلامهم إلا في أيام موسى بن نصير في أواخر القرن الأول. ولما نقم الناس على بني أمية لتعصبهم على غير العرب كان البربر في جملة الذين خرجوا عليهم وتطاولوا للفتك بهم. وقد سرهم ذهاب دولة الأمويين، ولكن ساءهم انتقالها إلى الأندلس على مقربة منهم؛ لأنهم كانوا يكرهونهم للعصبة فنصروا العلويين نكاية فيهم — إلا من اصطنعهم الأندلسيون بالمال، وللبربر فضل كبير في نشر الإسلام في أواسط أفريقية، مثل فضل الأتراك في نشره في أواسط آسيا، إلى الهند والصين؛ لأن البربر لما ثبت الإسلام فيهم نهضوا لفتح ما وراء بلادهم في أفريقية الغربية فنشروا الإسلام هناك.

فلما قامت الدولة الفاطمية في المغرب كان البربر من أنصارها، لا سيما قبائل كتامة وهوارة وهما من قبائل صنهاجة فأخذوا بيد الفاطميين منذ قيامهم على أيام عبيد الله

[٧] المقريزي ٣٥٥ ج١.

[٨] المقريزي ١١١ ج١.

المهدي أول خلفائهم في أواخر القرن الثالث للهجرة. فلما تأيدت دولتهم اتخذ خلفاء الفاطميين بطانتهم منهم وجعلوهم من أهل الدولة وأول من فعل ذلك أبو عبد الله الشيعي، وظلوا كذلك في خلافة ابنه القائم بأمر الله «سنة ٣٢٢هـ»، ثم المنصور بنصر الله «سنة ٣٣٤هـ» ثم المعز لدين الله «سنة ٣٤١هـ»، وساعدوهم في تملك المغرب كله وإخراجه من البيعة العباسية. وفي أيام المعز لدين الله فتح الفاطميون مصر وبنوا القاهرة ونقلوا دولتهم إليها.

فلما أفضت الخلافة إلى العزيز بالله بن المعز سنة ٣٦٥هـ، أراد التشبه بالعباسيين فاصطنع الأتراك والديلم واستكثر منهم وقدمهم وجعلهم خاصته، كأنه خاف على حياته من البربر. فقامت المنافسة بين البربر والأتراك وعظم التحاسد حتى توفي العزيز بالله وخلفه الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦، وكان يقدر فضل البربر، فقدمهم وقربهم فاشترطوا أن يتولى أمورهم ابن عمار الكتامي (من البربر)، فولاه الوساطة وهي كالوزارة عندهم. فاستبد في أمور الدولة وقدم البربر وأعطاهم وولاهم وحط من قدر الغلمان الأتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز. فاجتمعوا إلى كبير منهم اسمه برجوان وكان صقلبيًّا وقد تاقت نفسه إلى الولاية، فأغراهم بابن عمار حتى وضعوا منه فاعتزل الوساطة وتولاها برجوان، فقدم الأتراك والديلم واستخدمهم في القصر. ثم بدأ للحاكم أن يقتل ابن عمار فقتله وقتل كثيرًا من رجال دولة أبيه وجده، فتضعضع البربر وقوي الأتراك.

ولما مات الحاكم وخلفه ابنه الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤١١هـ أكثر من اللهو والقصف ومال إلى الأتراك، والمشارقة، فانحط جانب البربر وما زال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى. فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧هـ بعد الظاهر وكانت أمه أمة سوداء استكثرت في جنود ابنها من العبيد أبناء جلدتها، حتى بلغوا ألف عبد أسود، وكان هو يستكثر من الأتراك فأصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان إلى الاستئثار بالنفوذ، وآل التنافس إلى حرب شقيت بها مصر واضطر الخليفة إلى استنصار رجال دولته في الشام، فأتاه أمير الجيوش بدر الجمالي من سوريا وهو أرمني الأصل فقتل الكثير من أهل الدولة وأقام بمصر جندًا من الأرمن، وصار من حينئذ معظم الجيش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية، ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد أن كانوا وجوهها وأكابر أهلها.[٩]

---

[٩] المقريزي ١٢ ج٢.

وكان السلاجقة في أثناء ذلك قد غلبوا على العراق وفارس، وذهبت دولة آل بويه وضعف أمر الشيعة هناك، وولى السلاجقة مماليكهم وقوادهم (الأتابكة) على الولايات، واستقل كل منهم بولايته كما تقدم، ومنهم نور الدين زنكي في الشام. وكان في جملة قواد نور الدين جماعة من شجعان الأكراد، منهم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه، وقد بلغا عنده منزلة رفيعة، وكانت خلافة مصر قد أفضت سنة ٥٥٥هـ إلى العاضد بن يوسف، وكان ضعيف الرأي، وقد غلب وزراؤه على دولته وتنافسوا على الاستئثار بالنفوذ، وطال تنافسهم حتى أخربوا البلاد والخليفة لا يستطيع عملًا.

وكان في جملة المنافسين وزير اسمه شاور، قد غلب على أمره فذهب إلى نور الدين زنكي واستنجده على رجل آخر كان ينافسه في الوزارة وهو ضرغام، فاغتنم نور الدين تلك الفرصة للاستيلاء على مصر، وأنجده بأسد الدين شيركوه في جند من المماليك، فرد الوزارة إلى شاور وصار هذا يدفع ثلث خراج مصر إلى نور الدين.

وكانت الحروب الصليبية في تلك الأثناء قد احتدمت، فزاد تداخل نور الدين في شؤون مصر ونائبه فيها شيركوه، ومعه ابن أخيه يوسف بن نجم الدين، وهو صلاح الدين الأيوبي الشهير. ومات شيركوه بمصر سنة ٥٦٤هـ فخلفه صلاح الدين في منصب النيابة وهي الوزارة.

وكان صلاح الدين من أهل المطامع الكبرى، فلما قبض على أزمة النيابة، وهي كالوزارة، ورأى ضعف الخليفة أراد مصر لنفسه وليس لأميره نور الدين. فلما مات العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، خطب صلاح الدين بالقاهرة للخليفة العباسي ونقل حكومة مصر من الشيعة إلى السنة، وقبض على أزمة الأحكام، واستفحل أمر الصليبيين في تلك الأيام فتولى صلاح الدين أمر حربهم وقام بأعمال لا يزال التاريخ يردد صداها إلى اليوم، أهمها استرجاع بيت المقدس ومد سلطته على الشام وغيرها. وأنشأ الدولة الأيوبية، وهي كردية الجنس سنية المذهب، فعادت مصر إلى ظل الدولة العباسية من حيث البيعة فقط.

وعمد صلاح الدين ومن خلفه من أهله إلى الاستكثار من المماليك الأتراك والجراكسة للجندية، على جاري العادة في تلك الأعصر، حتى إذا كثروا استبدوا بشؤون الحكومة وطمعوا في السلطة. فلما ضعف أمر الدولة الأيوبية قبضوا هم على أزمة الحكومة وأنشأوا بمصر دولتين، عرفتا بدولتي السلاطين المماليك وهما المماليك البحرية والمماليك البرجية، حكمت الأولى من سنة ٦٤٨–٧٩٢هـ، والثانية من سنة ٧٨٤–٩٢٣هـ وكانتا تابيعان

للخليفة العباسي وهو مقيم في بغداد. فلما جاء التتر وفتحوا بغداد سنة ٦٥٦هـ وقتلوا الخليفة (المستعصم) فر من بقي من بني العباس، والتجأوا إلى سلاطين مصر على عهد الملك الظاهر بيبرس، فاختار واحدًا منهم قلده الخلافة وبايعه، وبهذا انتقت الخلافة العباسية إلى القاهرة، وظل خلفاء العباسين والبيعة لهم حتى جاء السلطان سليم الفاتح العثماني وفتح مصر سنة ٩٢٣، وكان الخليفة العباسي عامئذ المتوكل على الله آخر خلفائهم، فبايع للسلطان سليم وسلم إليه الآثار النبوية، فانتقلت الخلافة من العباسيين إلى العثمانيين من ذلك الحين.

العصر المغولي أو التتري

انحلال الدولة الإسلامية

من قيام جنكيزخان سنة ٦٠٣هـ، حتى وفاة تيمور لنك سنة ٨٠٧هـ

قد رأيت فيما تقدم أن الدولة العباسية، لما فسدت أحكامها وضعف شأن خلفائها واستبد بها جندها وخدمها، ضعفت علاقة أطراف مملكتها بدار الخلافة، فتفرعت إلى فروع بعضها فارسي وبعضها تركي أو كردي والبعض الآخر عربي، وكلها تابع للخليفة العباسي في بغداد، حتى نشأت الدولة الفاطمية في المغرب وخلافتها علوية، ففتحت مصر ونازعت الدولة العباسية على الشام وغيرها، ثم أصابها ما أصاب تلك فمالت إلى الشيخوخة مثلها، ولكنها انقرضت قبلها على يد صلاح الدين الأيوبي، وعادت مصر إلى مبايعة العباسيين.

على أن الخلافة العباسية كانت يومئذ قد بلغت منتهى الضعف، واستبد السلاجقة بمملكتها في الشام والعراق وفارس وما وراء النهر حينًا، ثم اقتسمها مماليكهم الأتابكة كما تقدم.

فانقضى القرن السادس للهجرة والمملكة الإسلامية قد تولاها الضعف والانقسام، ولا سيما في المشرق بمن تنازع على سلطتها من الأتراك قواد السلاجقة ومماليكهم، وأهمهم الخوارزمية في خراسان وتركستان، والخلافة العباسية قد تناهت في الضعف وبلغت الهرم، حتى أشرفت على الانحلال، وإنما استبقاها أصحاب الأطراف ليستعينوا

بها على تأييد سلطانهم بالبيعة، وأصبحت مملكتهم الواسعة تتنازعها ثلاث أمم، كأنهم اقتسموها فيما بينهم، وهم:

(أ) الأتراك السلاجقة وقوادهم في المشرق.
(ب) والأكراد الأيوبية في مصر والشام.
(جـ) والبربر في المغرب والأندلس (الموحدون).

وقد ذهبت دولة العرب ذهابًا تامًّا إلا إمارات صغيرة بقيت في اليمن ونحوها. وهذه الدول على اختلاف أجناسها وأطوارها مجمعة على مبايعة الخليفة العباسي في بغداد على ضعفه وانحلال دولته، ولكنها تختصم على الاستئثار بالسلطة في العالم الإسلامي.

فلما رأى أعداء الدولة الإسلامية المحيطون بها ضعفها وانقسامها عمدوا إلى الانتقام منها، فأغاروا عليها من الشمال والغرب والشرق وكل منهم يريد اغتيالها. فهاجمها الكرج والأرمن واللان من الشمال هجوم الغزاة للسلب والنهب، حتى إنهم كثيرًا ما كانوا يدخلونها بعشرات الألوف فيكتسحون أذربيجان وما جاورها، يقتلون وينهبون ويعودون بالأسرى والسبايا والغنائم، وكانت سبايا المسلمين تزيد أحيانًا عن عدة آلاف غير القتلى[1] — كما كان العرب يفعلون في أوائل دولتهم. على أنهم لم يستطيعوا فتحًا ولا رسخت لهم قدم في مملكة الإسلام.

وهجم عليها من الغرب أمم الإفرنج الصليبيين هجوم الفتح، وقد تكاتفوا لاكتساح المملكة الإسلامية بحجة الدين؛ لأن القبر المقدس فيها، ففتحوا فلسطين وبعض سوريا وملكوا بيت المقدس حينًا، ولو اجتمعت كلمتهم لافتتحوا ما وراء ذلك، ولكنهم انقسموا على أنفسهم وجاءهم صلاح الدين الأيوبي ببسالته ودهائه وتدبيره، فغلبهم على ما في أيديهم وأخرجهم من بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ، فضعف أمرهم وأخذ المسلمون يستعيدون البلاد منهم شيئًا فشيئًا، حتى أزالوهم من الشام تمامًا على أيام الناصر قلاوون.

أما من الشرق فجاءها التتر أو المغول بقبائلهم وبطونهم، وهم في خشونة البداوة وقوة الأبدان، وقد توفقوا إلى رجل شديد البطش وهو جنكيزخان القائد الشهير، فحمل بهم من أواسط آسيا على العالم المتمدن في أوائل القرن السابع للهجرة، وليس للمسلمين يومئذ رجل مثل صلاح الدين، فدوخ جنكيزخان مملكة الإسلام من أقصى أطرافها

[1] ابن الأثير ١٢٨ ج١١.

الشرقية إلى حدود العراق، غير ما افتتحه من بلاد الهند والصين حتى بلغت مساحة مملكته ٤٠٠٠٠٠ ميل مربع.

المغول

المغول أو المغل قبيلة من التتر كانت تقيم حوالي بحيرة بيقال (أو بيكال) في جنوبي سيبيريا، وتاريخهم القديم سقيم؛ لأنهم لم يظهروا إلا بظهور جنكيز خان في أوائل القرن السابع للهجرة، وكانوا قبله مثل سائر القبائل الرحل، يعيشون بالغزو والنهب والصيد والقنص في تلك البلاد البعيدة عن التمدن، وقد كفوا الناس خيرهم وشرهم ولا شأن لهم بين الأمم؛ لأنهم كانوا لا يزيدون على ٤٠٠٠٠ خيمة، فإذا حسبنا في الخيمة عشر أنفس لم يزد عددهم على ٤٠٠٠٠٠ نفس، فلما كانت أيام جنكيزخان حمل بهذا العدد القليل من بدو المغول على ما يحيط ببلادهم من الممالك العامرة واكتسحوها في بضعة عشر عامًا، كما خرج بدو العرب في أول الإسلام وافتتحوا مملكتي الروم وفارس في نحو تلك المدة. وفي الحالين كان النصر للبداوة على الحضارة؛ لأن المسلمين كانوا في أيام جنكيزخان قد تحضروا وانغمسوا في الترف وانقسموا على أنفسهم، كما كان الروم والفرس عند ظهور الإسلام — والتاريخ يعيد نفسه.

(١) جنكيزخان

كان والد جنكيزخان أميرًا على ١٣ قبيلة من المغول، تحت رعاية الخان الأكبر ملك التتر بعهود متبادلة بينهما، ولد جنكيزخان سنة ٥٤٨ فسموه تموجين وهو اسمه الذي كان يعرف به في نشأته الأولى. وبعد أربع عشرة سنة توفي أبوه فاستخف رؤساء القبائل بتموجين وتمردوا عليه، وأصبح كل منهم يطالب بالسيادة لنفسه. وكان تموجين شديد البطش من حداثته، فجمع رجاله وحارب الثائرين وتغلب عليهم. وهذه أول وقائعه

فهابه الناس، على أنه لم يستغن عن استنجاد الخان الأعظم، فأنجده وأكرمه وثبته في إمارة أبيه وزوجه ابنته.

وكان تموجين قد شب على ظهور الخيل وتعلم رمي النشاب، وضرب السيف وأتقن الفروسية بسائر فروعها، وكان قوي البدن شجاعًا صبورًا على التعب والجوع والعطش والبرد والألم، وعود رجاله على ذلك فاجتمعت كلمتهم على نصرته وانقادوا لأمره.

ولما علت منزلة تموجين عند الخان هاجت عوامل الحسد في أعضاء أسرته وغيرهم من رجال الدولة، وكان تموجين قد أغرى الخان بأولئك الأمراء فضيق الخان عليهم، فأوعرت صدورهم فثاروا عليه وشقوا عصا الطاعة وحاربوه وغلبوه، فاستنجد تموجين فأنجده وأعاده إلى كرسيه ومثل بأعدائه، حتى ألقى سبعين رجلًا منهم في الماء الغالي وهم أحياء.

فلما ظفر تموجين وأظهر القسوة والشدة خافه حموه وحسده، وأدرك تموجين ذلك فسعى في إصلاح ما بينهما بالحسنى فلم ينجح، فعزم على محاربته فتحاربا فانتصر تموجين فخافه الأمراء وحسدوه وحاربوه وكان الفوز له، فتولى عرش المغول.

وحارب تموجين بعد ذلك حروبًا فاز فيها، فازداد أمراؤه تعلقًا به، واحتفلوا بتهنئته احتفالًا عظيمًا في سهل على ضفاف سلنكا، فاجتمع الأمراء والخانات فوقف فيهم خطيبًا وكان قوي العارضة فأبدع. ثم جلس على لبادة سوداء فرشوها له هناك، وأصبحت تلك اللبادة أثرًا مقدسًا عندهم من ذلك الحين. ثم وقف بعض الحضور وكان من أهل التقوى والنفوذ فقال: «مهما بلغ من قرتك فإنها من الله، وهو سيأخذ بيدك ويشد أزرك. فإذا فرطت في سلطانك صرت أسود مثل هذه اللبادة، ونبذك رجالك نبذ النواة». وفي هذا القول من حرية البداوة والجرأة مثل ما يروونه عن جرأة العرب على خلفائهم وأمرائهم في صدر الإسلام. ثم تقدم سبعة أمراء أنهضوه باحترام، وساروا بين يديه حتى أقعدوه على عرشه، ونادوا باسمه ملكًا على المغول، وكان في جملة الحضور شيخ يعتقدون فيه الكرامة والقداسة، فتقدم وليس عليه كساء وقال: «يا إخوتي، قد رأيت في منامي كأن رب السماء على عرشه الناري تحدق به الأرواح، وقد أخذ في محاكمة أهل الأرض، فحكم بأن يكون العالم كله لمولانا تموجين، وأن يُسمى جنكيزخان أي: الملك العام». ثم التفت إلى تموجين وقال: «لبيك أيها الملك، فإنك تدعى منذ الآن جنكيزخان بأمر الإله». ولم يعد يعرف بعد ذلك إلا بهذا الاسم.

فلما تهيأ له تأسيس دولته وتدريب جنده، عمد إلى فتح العالم فسار أولًا نحو الشرق إلى مملكة الصين، وكان لإمبراطور الصين جزية على المغول يؤدونها كل سنة، فلما

استفحل أمر جنكيزخان أبى الدفع، ومعنى ذلك الإباء إشهار الحرب. فحمل جنكيزخان بجيشه على الصين واخترق سورها العظيم، وأمعن فيها قتلًا ونهبًا، والصينيون يومئذ أسبق الأمم في الاختراعات الحربية، فاستخدموا النار اليونانية التي استعان بها اليونان على دفع العرب، وقذفوا على المغول كرات فيها البارود قبل أن يعرفه أهل الغرب بأزمان، على أن ذلك لم يكن ليرد غارات تلك القبائل، فما زال جنكيزخان زاحفًا حتى احتل بكين عاصمة الصين وسائر بلادها الشمالية. فازداد ذلك الفاتح رغبةً وقوةً، فتحول بجنده الجرار نحو الغرب أي: غربي بلاده وهي مملكة الإسلام.

وكانت المملكة الإسلامية بما وصفناه من الضعف والاختلال، وقد انقسمت إلى عدة ممالك كردية وتركية وفارسية، وأقربها من بلاد المغول المملكة الخوارزمية من السلاجقة والأتراك، وسلطانها يومئذ علاء الدين خوارزمشاه، وكانت سلطة علاء الدين قد امتدت في أواخر أيامها على معظم العراق العجمي وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وفارس وما وراء النهر وقسم من أفغانستان وبعض الهند. وكانت قصبة تلك الدولة مدينة خوارزم، ومنها سمي سلطانها «خوارزم شاه»، فحمل جنكيزخان نحو الغرب وجنده يزيد على ٧٠٠٠٠٠ مقاتل، واكتسح تركستان وما وراءها، وأوغل فيها قتلًا ونهبًا مما تقشعر له الأبدان.

ومما حمله على ارتكاب الفظائع، أنه لما وصل بجنده إلى تركستان سير جماعة من التجار الأتراك ومعهم الذهب إلى سمرقند وبخارى من بلاد ما وراء النهر (تركستان)؛ ليشتروا له ثيابًا للكسوة، فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك اسمها أترار وهي آخر مملكة خوارزمشاه مما يلي بلاد جنكيزخان، وكان لخوارزمشاه هناك نائب، فلما جاءته هذه الطائفة من التتر أرسل إلى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ويذكر ما معهم من الأموال، فبعث خوارزمشاه يأمر بقتلهم وأخذ ما معهم وإنفاذه إليه. فقتلهم وسير ما معهم وكان شيئًا كثيرًا ففرقه خوارزمشاه في تجار بخارى وسمرقند وأخذ ثمنه منهم. وعذره في هذه المعاملة أن المغول كانوا قد غزوا كاشغار وبلاساغون وغيرهما من تركستان، وصاروا يحاربون عساكره؛ فلذلك منع الميرة عنهم.

فلما قتل نائب خوارزمشاه أصحاب جنكيزخان، حمي غضبه وجمع من الرجال فوق ما كان عنده وحمل على مملكة الإسلام، وكتب إلى علاء الدين خوارزمشاه يقول: «تقتلون أصحابي وتأخذون أموالهم؟ تهيأوا للحرب. فإني قادم إليكم بجمع لا قبل لكم به». فلما قرأ خوارزمشاه الرسالة قتل الرسول وأمر بحلق لحى الجماعة، وأعادهم إلى

جنكيزخان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له: «إن خوارزمشاه يقول لك: أنا سائر إليك ولو أنك في آخر الدنيا، حتى أنتقم وأفعل بك كما فعلت بأصحابك» — فاستخف خوارزمشاه بالمغول كما استخف هرقل بالعرب إذ جاءته كتبهم في أوائل الإسلام.

وقد فعل جنكيزخان كما قال تمامًا، فزحف بعساكره على المملكة الإسلامية، فدوخوها من بلاد تركستان فما وراءها غربًا، وهم ينتقلون من مدينة إلى أخرى يفتكون وينهبون ويحرقون ويهدمون، لا يخلفون وراءهم إلا الأطلال البالية مما لم يسبق له مثيل في تاريخ الإنسان. وهنا يفترق بدو المغول عن بدو العرب، فإن هؤلاء أبقوا على البلاد التي فتحوها وأمنوا أهلها وجعلوهم في ذمتهم، واقتبسوا تمدنهم وبنوا عليه تمدنًا من عند أنفسهم. وأما المغول فلم يكن همهم غير القتل والنهب كالوحوش الكاسرة، وليس هنا محل الإفاضة في سيرة هذا الرجل.[1] وإنما يقال بالإجمال: إنه تمكن في حياته من إنشاء مملكة لم يتوفق لمثلها أحد من الفاتحين قبله ولا بعده، لا الإسكندر المقدوني ولا يوليوس قيصر الروماني ولا نادرشاه الفارسي ولا نابليون بونابرت الفرنسي — أنشأ مملكة تمتد من البحر المحيط إلى البحر الأسود، ودخل في سلطانه ملايين من الصينيين والتنكوت والأفغان والهنود والفرس والأتراك غيرهم.

أنشأ جنكيزخان هذه المملكة الواسعة وهو لا يعرف الكتابة ولا القراءة، وكذلك معظم رجاله، فاستعان في وضع الشرائع والنظام بمن دخل في سلطانه من المسلمين ورعاياهم، كما استعان العرب في إنشاء دولتهم أول الإسلام بالفرس والروم وغيرهم، وقد توفي جنكيزخان سنة ٦٢٤هـ وهو في السادسة والسبعين من عمره بعد أن حكم ٢٢ سنة.

وبعد وفاته اقتسم أولاده مملكته على عادة المغول في هذه الحالة، باعتبار أن البلاد ملكه فيورثها لأعقابه فيقتسمونها كما يقتسمون سائر أمواله، فانقسمت مملكة المغول بعده إلى أربعة فروع تفرقت في أولاده الأربعة، ثم تفرع كل منها إلى غير فرع مما يطول شرحه، فنكتفي بذكر ما يهمنا منها:

إن أولاد جنكيزخان الذي أفضت الحكومة إليهم أربعة: أقطاي وطلوي وجوجي وجقطاي، فانقسمت المملكة فيما بينهم على ما يأتي، ويعرف ملوكها بالخاقانات وهم:

(١) دولة أقطاي في زنقاريا وغيرها من سنة ٦٠٣–١٠٤٣هـ.

[1] راجع الهلال السادس من السنة الثالثة عشرة.

(٢) دولة طلوي في بلاد المغول من سنة ٦٥٤–٧٥٠هـ.
(٣) دولة جوجي في بلاد القفجاق وغيرها من سنة ٦٢١–٩٠٧هـ.
(٤) دولة جقطاي في ما وراء النهر من سنة ٦٢٤–٧٦٠هـ.

فالدولة الأولى (أقطاي) كانت لها السيادة العظمى، وأول ملوكها جنكيزخان نفسه ولا يهمنا تاريخها في هذا المقام. أما الدولة الثانية فيهمنا من فروعها فرع له شأن في تاريخ الإسلام، نعني به فرع «هولاكو» وهو ابن طولوي بن جنكيزخان، تولى بعض المقاطعات في مملكة أبيه واستقل بها وملك فارس سنة ٦٥٤هـ، وعرفت دولته فيها بدولة إيلخان أو مغول الفرس، وكان في بلاد فارس بقايا مملكة خوارزمشاه فضمها إليه، وأقدم على ما لم يقدم عليه أحد من أسلافه — وذلك أنه لما استقر له الملك في فارس حمل على بغداد.

(٢) هولاكو وسقوط بغداد

والسبب في ذلك أن المنافسات بين السنة والشيعة ببغداد تكررت في أواخر الدولة، فلا تمضي سنة لا يقع فيها بين الطائفتين قتال تتوسط الحكومة في إصلاحه، وبما أن الحكومة سنية فالضغط كان يقع غالبًا على الشيعة، كانوا يقيمون معًا في الكرخ ببغداد وهم صابرون على ما يكابدونه من الاضطهاد، والحكومة مع ذلك توليهم مصالحها وتعهد إليهم بتدبير شؤونها. وكان الخليفة في أيام هولاكو المستعصم بالله، تولى الخلافة سنة ٦٤٠هـ، وكان ضعيف الرأي ووزيره رجل من الشيعة اسمه مؤيد الدين بن العلقمي ذو دهاء ومكر. فاتفق وقوع فتنة بين السنة والشيعة على جاري العادة. وكان لتخليفه ولد اسمه أبو بكر شديد العصبية على الشيعة، فاستعان بقائد الجند (الدوادار)، وأمر العسكر أن يفتكوا بالشيعة، فهجموا على الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي ولم يعد يستطيع صبرًا، فكتب إلى هولاكو سرًّا وأطمعه في ملك بغداد، وأرسل إليه أخاه ليحرضه على القدوم، فزحف هولاكو على بغداد بجيش عظيم، فلما علم الخليفة المستعصم بقدومهم، بعث الداودار فيمن بقي ببغداد من الجند وهم لا يزيدون على ٢٠٠٠٠ مقاتل، فالتقى الجيشان على مرحلتين من بغداد فانهزم عسكر الخليفة وتشتت.

أما هولاكو فأقبل حتى نزل الجانب الشرقي من بغداد، وأرسل قائدًا من قواده نزل الجانب الغربي قبالة دار الخلافة، والمستعصم لا يعلم بما دبره ابن العلقمي، فأنفذه

لمخابرة هولاكو بشأن الصلح، فكمل مكيدته وعاد وقال للخليفة: «إن هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم، ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر». وحسن له الخروج إلى هولاكو، فخرج إليه في جمع من أكابر أصحابه، فأنزلهم في خيمة، ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل، فاجتمع هناك جميع سادات بغداد، فلما اجتمعوا أمر هولاكو بقتلهم فقتلوا، ثم بذلوا السيف في بغداد، وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف، إلا الأطفال فأخذوهم في جملة الأسرى والسبي. ودام القتل والنهب في دار السلام أربعين يومًا، ثم نودي بالأمان ودخلت بغداد في سلطة هولاكو سنة ٦٥٦هـ، وذهبت الخلافة العباسية من العراق على يد الشيعة العلوية، كما كان يخاف ذهابها المنصور والمهدي والرشيد، وقد نكبوا وزراءهم وقوادهم خوفًا من ذلك. على أن الخلافة العباسية لم تنقرض تمامًا، بل انتقل من بقي من العباسيين بعد مذبحة هولاكو إلى مصر، وأقاموا في ظل السلاطين المماليك كما تقدم.

أما هولاكو فلما ملك عاصمة الإسلام في ذلك العهد طمع في فتح ما وراءها، فحمل على الشام وكانت في حوزة السلاطين المماليك بعد الدولة الأيوبية فردوه عنها، فقنع بما دخل في حوزته، وقد امتدت مملكته من الهند إلى الشام وأورثها لأولاده، فانقضت دولته ولم يتم عليها القرن «٦٥٤–٧٥٠هـ»، وانقسمت إلى ولايات صغيرة ما زالت في اضطراب وتضعضع حتى أخضعها تيمور لنك.

(٣) تيمور لنك

ينسب هذا القائد العظيم إلى دولة جنكيزخان. وليس هو من نسله ولكنه من عائلته، وكان جده وزيرًا جقطاي بن جنكيزخان. ولد تيمور سنة ٧٣٦هـ، ولما ترعرع تولى بعض الأعمال في دولة أقطاي في ما وراء النهر، ثم ترقى إلى رتبة الوزارة فطمع في الملك، فغلب على ملكه محمود وحمل على العالم كما حمل جنكيزخان قبله، ففتح بلاد فارس بعد حروب كثيرة سفكت فيها دماء غزيرة، ولم تمض سبع سنوات حتى دوخ خراسان وجرجان ومازندران وسجستان وأفغانستان وفارس وأذربيجان وكردستان، ثم جاء العراق فاستخرج بغداد من الجيلارية وكانوا قد تملكوها بعد هولاكو، ثم حول أعنة خيوله شرقًا نحو الهند، فغزا كشمير ودلهي، وتحول غربًا لفتح آسيا الصغرى وكانت في حوزة العثمانيين وسلطانهم يومئذ بايزيد، فبلغ تيمور لنك في فتوحه إلى أنقرة وحارب بايزيد وأسره سنة ٨٠٤هـ، واكتسح سائر بلاد المشرق إلى آخر حدود الشام،

وبايعه سلاطين مصر على الطاعة، فتحول لمحاربة الصين، فمات في الطريق سنة ٨٠٧هـ، قبل أن ينظم حكومته، فذهبت فتوحه هدرًا فعادت البلاد التي فتحها إلى ملوكها الأولين، وعادت الأحوال إلى ما كانت عليه قبله. على أن الدولة التيمورية طال حكمها في ما وراء النهر إلى سنة ٩٠٦هـ، بوفاة تيمور لنك ينقضي العصر المغولي، وبانقضائه ينقضي الدور الأول من تاريخ الإسلام.

الدور الثاني من ظهور الدولة العثمانية ولا يزال

قد رأيت أن المغول لم ينشؤوا دولة ثابتة في بلاد الإسلام، ولم يكن لهم شأن في التمدن الإسلامي، وإنما علاقتهم بهذا التمدن أنهم جاءوه والدولة الإسلامية في آخر دورها الأول، وفي منتهى التضعضع والضعف بمن حمل عليها من الإفرنج والكرج والأرمن واللان، فزادوها ضعفًا وذهبوا ببقية الخلافة العباسية في بغداد، وعادوا عنها وهي تكاد تكون في حال الاحتضار، وقد تبدد شملها وليس فيها دولة حية تجمع شتاتها، على أن ذلك كان مقدورًا للدولة العثمانية في العصر التركي الثاني، ولدولة شاهات الفرس في العصر الفارسي الثاني، ويتألف منهما الدور الثاني من تاريخ الإسلام. فعاد التتر عن المملكة الإسلامية في أوائل القرن التاسع للهجرة، ومصر في حوزة السلاطين المماليك يتنازعون على السلطة، ويتخاصمون على الكسب، والشام بعضها في أيدي أولئك المماليك، وبعضها في أيدي بعض أعقاب الأيوبيين، حتى يكاد يكون كل بلد مستقلًّا بنفسه. والعراق وبلاد الفرس وما بين النهرين يتنازع عليها الإيلخانية والجيلارية والمظفرية والقراقيونلية والتيمورية وغيرهم. وما وراء النهر وأفغانستان في سلطة المغول التيمورية، وآسيا الصغرى يتنازعها العثمانيون وبقايا السلاجقة. وسائر بلاد المشرق يختصم عليها بقايا التتر أو بقايا الأتابكة. وشمالي أفريقيا كان منقسمًا بين المرينية والحفصية. والأ،دلس لم يبق منها في سلطة المسلمين إلا الدولة النصرية في غرناطة. وجزيرة العرب تحكمها إمارات صغيرة تتحارب وتتعادى. وهذه الدول مع ضعفها واختلال أحوالها تجمعها خلافة أضعف منها، هي بقية الخلافة العباسية في الديار المصرية.

تلك كانت حال العالم الإسلامي من الاضطراب والتضعضع عند تغلب الدولة العثمانية، فجاءت في إبان الحاجة إليها فافتتحت القسطنطينية، وقد يئس المسلمون من فتحها بعد أن حاولوه مرارًا. وحارب العثمانيون أعظم ملوك أوروبا وطاردوهم إلى بلاد المجر، وحاصروا فينا عاصمة النمسا وأخذوا الجزية من الأرشيدوق فردينان، واكتسحوا البحر الأبيض إلى شواطئ أسبانيا، فارتعدت أوروبا خوفًا منهم، وفتحوا المشرق إلى العراق، ثم ساروا جنوبًا غربيًّا حتى فتحوا الشام ومصر، وفيها بقية الدولة العباسية، فتنازل العباسيون لهم عن الخلافة كما تقدم. فامتدت مملكتهم في أيام السلطان سليمان «سنة ٩٢٦–٩٧٤هـ» من بودابست على ضفاف الطونة إلى أسوان على ضفاف النيل، ومن الفرات بالعراق إلى مضيق جبل طارق، فاجتمع العالم الإسلامي الغربي تحت جناح الدولة العثمانية. وكان اجتماع الخلافة والسلطة فيها سببًا لطول بقائها أكثر مما تقدمها من الدول الإسلامية، حتى العباسيين مع طول مدة ملكهم؛ لأن سلطتهم أصبحت بعد القرن الثالث من إنشاء دولتهم اسمًا بلا رسم.

ونهض الصفويون من الجهة الأخرى في بلاد فارس وبين النهرين، فأنشأوا دولة شيعية كبرى، ثم انتقلت إلى الدولة القاجارية وجمعت البلاد الشيعية كما جمعت الدولة العثمانية البلاد السُّنيَّة.